هربرت جورج ويلز

طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض

طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض

تأليف
هربرت جورج ويلز

ترجمة
أسامة إسماعيل عبد العليم
كوثر محمود محمد

مراجعة
نيرة محمد صبري
هاني فتحي سليمان

هنـــداوي

طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض

The Food of the Gods

هربرت جورج ويلز

Herbert George Wells

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٧ ٢١٢٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الكتاب الأول: نشأة الطعام ٧

١- اكتشاف الطعام ٩

٢- مزرعة التجارب ١٧

٣- الفئران العملاقة ٤٥

٤- الأطفال العمالقة ٧٧

٥- شفوف السيد بانزنجتن ١٠١

الكتاب الثاني: الطعام في القرية ١١١

١- مجيء الطعام ١١٣

٢- العملاق الصغير ١٣١

الكتاب الثالث: حصاد الطعام ١٤٥

١- العالم الجديد ١٤٧

٢- العملاقان العاشقان ١٦٩

٣- صغير آل كادلز في لندن ١٨٧

٤- يومان مرَّا على ريدوود ٢٠١

٥- معسكر العمالقة ٢١٩

الكتاب الأول

نشأة الطعام

الفصل الأول

اكتشاف الطعام

١

في منتصف القرن التاسع عشر، انتشرت في عالمنا الغريب هذا، طبقةٌ من الرجال غالبيتها من كبار السن، الذين يُلقَّبون عن جدارة — رغم كراهيتهم الشديدة لهذا اللقب — بـ «العُلماء». بل إنهم يكرهون اللقب إلى درجة أن مقالات مجلَّتهم — دورية نيتشر التي كانت منذ نشأتها صحيفتهم المُميَّزة والبارزة — استبعدت الكلمة بعناية كما لو كانت هي الكلمة التي تُمثل أساس اللغة الشديدة البذاءة في هذا البلد، لكن العامة والصحافة أفضل دراية، فقد كانوا حقًّا «علماء»، وعندما ينالون حظًّا من الدعاية، فإن «العلماء المرموقين» أو «العلماء البارزين» أو «العلماء المعروفين» هو أقلُّ ما يمكننا أن نُطلقه عليهم.

لا شكَّ أن السيد بانزنجتن والبروفيسور ريدوود قد استحقَّا هذه الألقاب قبل أن يتوصَّلا للاكتشاف المُدهش الذي تحكي عنه هذه القصة. كان السيد بانزنجتن عضوًا في الجمعية الملكية ورئيسًا سابقًا للجمعية الكيميائية. أما البروفيسور ريدوود فكان أستاذًا في الفسيولوجيا في كلية بوند ستريت بجامعة لندن، وقد شهَّر به مناهضو تشريح الحيوانات الحية تشهيرًا شنيعًا مرارًا وتكرارًا. وقد تفوَّق كِلا الرجلين أكاديميًّا منذ ريعان شبابهما.

غير أن هيئتهما لم تكن مُميَّزة بلا شك، كحال كلِّ عالمٍ حقيقي بالطبع. بل إن أهدأ المُمثلين طباعًا يظهر عليه من التميُّز الشخصي ما يفُوق أعضاء الجمعية الملكية كافة. كان السيد بانزنجتن قصيرًا، أصلع الرأس تمامًا، ذا ظهر مُنحنٍ بعض الشيء؛ وكان يرتدي نظارة مُذهَّبة الإطار وحذاءً طويلَ الرقبة من القماش تشقَّق كثيرًا بفعل ثَفِنات قدَمَيه المُتعددة. أما البروفيسور ريدوود فكان عاديَّ المظهر تمامًا. وإلى أن اكتشف الرَّجُلان

طعام الآلهة (كما أصرَّا على تسميته)، فقد عاشا حياة علمية مغمورة إلى حدٍّ أنه يصعُب العثور على أيِّ شيء بشأنهما لأُخبر القارئ به.

اكتسب السيد بانزنجتن مكانته — إن جاز لنا استخدام هذا التعبير بالنسبة إلى رجل يرتدي حذاءً من القماش المُتشقِّق — بفضل بحثه الرائع عن شِبه القلويات الشديدة السُّميَّة، ولمع نجم البروفيسور ريدوود — لا أذكر بوضوح السبب في لمعان نجمه! كل ما أذكره هو أنه قد لمع نجمه للغاية. تحدُث مثل هذه الأشياء. غير أنني أعتقد أن السبب هو مؤلَّف ضخم وضَعه عن زمن الاستجابة استخدم فيه شرائح عدَّة من مُرتسمات مخطط النبض (ربما يحتاج ما أكتبه إلى التصحيح) وابتكار مُصطلحات جديدة جديرة بالإعجاب، وهذا أدَّى الغرَض.

لم يرَ العامة هذين الرجلين كثيرًا، أو لم يروهما على الإطلاق، لكنهم أحيانًا ما يَلمحون السيد بانزنجتن في أماكن كالمعهد الملكي وجمعية الفنون أو على الأقل يَلمحون رأسه الأصلع المُتورِّد وشيئًا من ياقته ومعطفه، ويسمعون أطرافًا من محاضرةٍ أو من ورقة علمية تخيَّل أنه ألقاها بصوتٍ مسموع. وأذكر مرة أنني — في ظهيرة أحد أيام الماضي السحيق — عندما كانت الجمعية البريطانية في دوفر، أتيتُ إلى القسم «ج» أو «د» أو شيء من هذا القبيل، وقد كان مقره في حانة، وتبعت، بدافع من الفضول البحت، سيدتَين ذواتي مظهرٍ جادٍّ تحملان رزمًا من الأوراق عبر باب كُتب عليه «البلياردو والمسبح» يقود إلى ظلام مُريب لم يتخلَّله إلا دائرة ضوء من المِسْلاط الضوئي الذي يعرض مُرتسمات مُخطَّط ريدوود.

شاهدتُ شرائح العرض وهي تظهر وتختفي وأصغيتُ إلى صوتٍ (نسيت ما كان يقوله) أعتقد أنه كان صوت البروفيسور ريدوود، وصدر أزيز من المِسْلاط الضوئي وصوت آخر أبقاني هناك، بدافع الفضول أيضًا، إلى أن أُنيرت الأضواء فجأة، وأدركتُ حينها أن هذا الصوت كان صوت أعضاء الجمعية البريطانية المُجتمعين وهم يلوكون الكعك والشطائر والطعام الذي أتوا به ليأكلوه تحت جنح ظلام المِسْلاط الضوئي.

وأذكر أن ريدوود واصل الحديث طوال الفترة التي أُنيرت خلالها الأضواء وظلَّ يُشير إلى المكان المُفترض أن يظهر فيه مُخططه على الشاشة، ثم لم يلبث الظلام أن حلَّ مرة أخرى. أذكُر أنه بدا لي حينها رجلًا عاديًّا تمامًا مُتوترًا بعض الشيء أسمر البشرة، يتصرف كأنه منشغل بشيءٍ آخر لكنه يؤدي ما يؤدي من المهام مدفوعًا بإحساسٍ غامض بالواجب.

سمعتُ كذلك السيد بانزنجتن ذات مرة فيما مضى في مؤتمر تعليمي في بلومزبري. كان — شأنه شأن أغلب علماء الكيمياء والنبات المرموقين — واثقًا جدًّا عند إلقاء الدرس، غير أنني مُوقن من أن فصلًا عاديًّا من فصول المدارس الداخلية كان سيبُثُّ في قلبه الرعب في غضون نصف ساعة. كان — على حدِّ ما أذكر — يقترح تعديلًا على طريقة البروفيسور أرمسترونج في التعلُّم الاستكشافي التي يمكن من خلالها — باستخدام معدَّات تُكلِّف ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه وبالتجاهل التامِّ لكلِّ الدراسات الأخرى والاعتماد على الاهتمام الكامل من مُعلمٍ ذي مواهب استثنائية — لطفل مُتوسِّط القدرات يتمتَّع بإتقانٍ غير منظم أن يحصِّل، في غضون عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا، قدرًا من علم الكيمياء يُعادل تقريبًا ما يمكن تحصيله من أحد المراجع البغيضة التي يبلغ ثمنها بضعة شلنات والتي شاعت كثيرًا وقتئذٍ …

كلاهما تراه شخصًا عاديًّا تمامًا خارج نطاق مجاله، بل كلاهما تراه بالأحرى شخصًا عاديًّا غير عملي، وتلك هي حال «العُلماء» ككل في العالم أجمع. إن أفضل سماتهما يمثل إزعاجًا لزملائهما من العُلماء ولغزًا للعامة، أما أسوَؤُها فهو واضح.

لا شكَّ في أسوأ سماتهما؛ إذ ليس ثمة جنسٌ بشري يتمتع بهذا القدر الواضح من الضآلة. فهما يحيَيان في عالمٍ محدود فيما يخصُّ علاقاتهما الاجتماعية، وأبحاثهما تتطلَّب اهتمامًا لا مُتناهيًا وعزلةً تكاد تبلُغ الرهبانية؛ وما يبقى بعد كل ذلك ليس بالكثير. فليس أمامك إلا أن تلقى مكتشفًا ضئيلًا لاكتشافاتٍ عظيمة، غريب الأطوار، خجولًا، قبيح الشكل، أشيب الشعر، مُعتدًّا بنفسه، تزدان بذلته على نحوٍ مُثير للسخرية بالوسام العريض الذي يُميز طبقةً أو أخرى من طبقات الفروسية وهو يُقيم حفل استقبال لزملائه، أو أن تطلع على صرخات الأسى التي تُطلقها دورية نيتشر بسبب «إهمال العلم» عندما يمرُّ طيف تكريمات عيد الميلاد الملكي مُتجاهلًا الجمعية الملكية، أو أن تستمع إلى عالِم أشنات لا يكلُّ ولا يملُّ وهو يعلِّق على أبحاث عالِم أشنات آخر لا يكلُّ ولا يمل؛ مثل هذه الأشياء تجبر المرء على إدراك محدودية البشر التي لا تتزعزع.

بالرغم من هذا الصرح العلمي الذي شيَّده هؤلاء «العلماء» الصغار ولا يزالون، هذا الصرح البالغ الروعة والغرابة الذي تكتنِفه آمالٌ غامضة غير مُكتملة عن المستقبل العظيم للإنسان، فلا يبدو أنَّ هؤلاء العلماء يُدركون ما يفعلون! لا شكَّ أن السيد بانزنجتن نفسه كانت لديه، منذ زمنٍ بعيد، فكرة باهتة عن هذا الحُلم عندما اختار مجاله — عندما اختار أن يكرس حياته لأشباه القلويات وأخواتها — بل أكثر من مجرد فكرة باهتة. فبِدُون

إلهام هذه الأمجاد والمناصب التي لا يرجو مثلها إلا «العلماء»، فأي شابٍّ كان سيُكرِّس حياته لهذا العمل؟ لا شك أن هؤلاء العلماء قد رأوا المجد، لا شك أن هذه الرؤى قد تراءت لهم، غير أنهم رأوها قريبةً جدًّا إلى حدِّ أنها أعمَتْهم. إنه لمن حُسن الحظ أن المجد أعماهم حتى يُطيقوا حمل شُعلة المعرفة لسائر حياتهم وهم راضون، فيتسنَّى لنا أن نُبصر!

ولعلَّ ما يُبرر إلماعات الهوس الذي يحمله ريدوود، وهو ما باتَ واضحًا وضوحًا لا يحتملُ الشك الآن، أنه مختلفٌ عن أقرانه، مُختلفٌ بقدر ما بقي شيء من هذه الرؤى ماثلًا أمام عينيه.

٢

أدعو هذه المادَّة التي صنعَها السيد بانزنجتن والبروفيسور ريدوود «طعام الآلهة»، وبالنظر إلى ما أدَّت إليه بالفعل، وكل ما ستؤدي إليه بلا شك، فلا مُغالاة في هذه التسمية بالتأكيد؛ لذا فسوف أمضي في إطلاق هذه التسمية عليها طَوال القصة. غير أنَّ احتمال أنْ يُطلق السيد بانزنجتن على المادة هذا الاسم عمدًا يُشبه في صعوبته احتمال أن يُغادر شقته في شارع سلون ستريت مُرتديًا ثوبًا قرمزيًّا بديعًا وإكليلًا من الغار. لم يكن الاسم إلا صيحة دهشةٍ أطلقها السيد بانزنجتن في بادئ الأمر. استخدم الاسم في غمرة حماسِه لساعةٍ أو نحو ذلك على أقصى تقدير، وبعدَها شعر أنه يتصرَّف بسخافة. يبدو أنه عندما تَفكَّر فيما رآه، خطرتْ له آفاق من الاحتمالات الهائلة — الهائلة بمعنى الكلمة — لكن بعد لحظةٍ من التحديق بدهشةٍ لدى الوصول إلى هذه الاحتمالات المُذهلة، طرد هذه الأفكار من رأسه بحزمٍ كما ينبغي لكل «عالم» حيِّ الضمير، وبعدها بدا الاسم وقحًا إلى حدٍّ مُقزِع، بل أصابه أيضًا العجَب لاستخدامه هذا التعبير، لكن رغم كل ذلك طارده شيء من هذا التجلي ولاح له مرارًا …

قال وهو يفرك يدَيه إحداهما بالأخرى ويضحك في توتُّر: «أتعلَم؟ إنَّ أهميتها ليستْ مجرد أهمية نظرية.»

ثم أسرَّ إلى البروفيسور ريدوود وهو يدنو بوجهه إلى وجه زميله خافضًا صوته: «لعلها — إن استُخدِمت على الوجه المناسب — تُباع …»

فقال البروفيسور ريدوود: «بالضبط؛ كطعام، أو مُكونٍ غذائي على الأقل.»

«هذا إنْ فرَضْنا بالطبع أنها مُستساغة الطعم، ولا يَسعُنا أن نتيقَّن من هذا إلا بعد تحضيرها.»

ثم استدار واقفًا على السجَّادة بالقُرب من المِدفأة، ودرَس الشقوق المُختَطة بعناية في قماش حذائه.

ثم قال مُتطلعًا لأعلى مُجيبًا عن سؤال: «تسمية؟ أنا شخصيًّا أميل إلى التشبيهات الكلاسيكية القديمة؛ فهي تُبجِّل البحث العلمي، وتُضفي عليه لمسةً من وقار الماضي. كنتُ أفكر في ... لا أعلم إن كنتَ ستجد هذا سُخفًا مني ... لكن لا بأس بالقليل من الخيال من حينٍ لآخر ... اسم هرقليوفوربيا. ما رأيك؟ غذاء قد يصنعه هرقل؟ أنت تعلم أنه قد ... بالطبع إن كنت لا تتَّفِق ...»

فكر ريدوود في الاسم وهو يتأمَّل نيران المِدفأة ولم يُبدِ اعتراضًا.

فسأله بانزنجتن: «هل تعتقد أنه يصلُح؟»

فهزَّ الآخر رأسه في جدِّيةٍ ثم قال:

«لعلَّ الأفضل تيتانوفوربيا؛ أي طعام الجبابرة ... هل تُفضل الاسم الأول؟»

«هل أنت واثِقٌ من أنه ليس مُبالغًا فيه بعض الشيء ...»

«لا.»

«آه! هذا يسعدني.»

ومن ثمَّ أطلقا على المادة اسم هرقليوفوربيا طوال فترة أبحاثهما، وفي تقريرهما — الذي لم يُنشَر قطُّ بسبب التطورات المفاجئة التي أفسدت كل تدابيرهما — دُوِّن اسم المادة هكذا على الدوام. أعدَّ الشريكان ثلاثَ مواد شبيهة قبْل أن يتوصَّلا إلى المادة التي تُحقِّق توقُّعاتهما، وقد أطلقا على هذه المواد الثلاث أسماء: هرقليوفوربيا ١، وهرقليوفوربيا ٢، وهرقليوفوربيا ٣، أما المادة هرقليوفوربيا ٤ فهي التي أُسمِّيها هنا بطعام الآلهة، مُصرًّا على تسمية بانزنجتن الأصلية.

٣

كان السيد بانزنجتن هو صاحب فكرة إطلاق هذا الاسم؛ لكن نظرًا لأنه استلهمها من إحدى كتابات البروفيسور ريدوود في دورية فيلوسوفيكال ترانزآكشنز، فقد أحسن صُنعًا أن استشار الأخير قبل أن يمضي في التسمية، علاوةً على أنَّ المسألة — كمسألةٍ بحتية — كانت مُتَّصِلة بالفسيولوجيا بقدر ما تتَّصِل بالكيمياء.

كان البروفيسور ريدوود أحد رجال العلم الذين يُدمِنون المُرتسمات والمُنحنيات، وإن كنتَ، بأيِّ حالٍ من الأحوال، القارئ الذي أفضله، فستُدرك نوعَ الورقات العلمية الذي

أعنيه. إنها ورقات لا يسَعُك فَهمُها على الإطلاق، تنتهي بخمسة أو ستَّةِ مُخطَّطات بيانية طويلة تنبسط أمامك موضِّحةً مُرتسماتٍ مُتعرِّجة غريبة وتمثيلًا بيانيًّا مُغالًى فيه لِوميضٍ أو تموُّجات غير مفهومة تدعى «المُنحنيات المنتظمة» مرسومة على إحداثي صاديٍّ وتتفرع من إحداثي سِينيٍّ، وأشياء من هذا القبيل. تنتابُك الحيرة وأنت تتأمَّل الرسوم لوقتٍ طويل وينتهي بك الأمر إلى الشكِّ ليس فقط في أنك تفهمها، بل في أنَّ من رسمها يفهمها هو نفسه، لكن الواقع هو أنَّ الكثير من رجالات العِلم هؤلاء يفهمون ورقاتهم العلمية جيدًا: المسألة ببساطة تتلخَّص في خللٍ في التعبير يزيد الفجوة بيننا وبينهم.

أميل إلى الاعتقاد بأن ريدوود كان يُفكِّر بلغة المُرتسمات والمُنحنيات، وبدأ بعد جهوده البحثية البارزة حول زمن الاستجابة — يُنصح القارئ الذي لا يتمتع بخلفية علمية بالتحلِّي بالصبر قليلًا وسيتضح كل شيء فيما بعدُ وضوح الشمس — يصوغ مُنحنيات منتظمة ومخططات نبض مُتعلقة بالنمو. كانت في الواقع إحدى ورقاته العلمية عن النمو هي ما أوحَتْ للسيد بانزنجتن بفكرته.

عكف ريدوود على قياس نموِّ جميع أنواع الكائنات الحية، من الهِرَر إلى الجِرَاء إلى زهرات دوَّار الشمس ونبتات عيش الغراب، والفول، وحتى طفله (إلى أَنْ وضعَتْ زوجته حدًّا لهذا) وأثبَتَ أن النمو لا يحدُث بمعدلٍ ثابت أو على الشاكلة الآتية على حدِّ تعبيره:

بل على دفعاتٍ مُفاجئة وفتراتٍ مُتقطِّعة على هذه الشاكلة:

وأنه ليس هناك، فيما يبدو، كائنٌ حي قد نما نموًّا مُنتظمًا ومطردًا؛ ومن ثمَّ — بناءً على ما توصَّل إليه حتى هذه اللحظة — فما من كائن حي قادر على النمو بانتظام واطِّراد؛ بدا كما لو أن على كل كائن حي أن يحشد القوة أولًا لينمو، ثم ينمو بقوة لبعض الوقت فقط، ثم يضطر إلى التمهُّل لفترةٍ قبل أن يواصل النمو ثانية. من هنا أشار ريدوود، بلغةٍ غامضة مُشبَّعة بالمصطلحات المُتخصصة والتي تميز «العالم» المُتناهي الدقة، إلى أن عملية النمو تتطلب على الأرجح كمية كبيرة من مادةٍ مُعينة ضرورية في الدم لا تتشكل إلا ببطء شديد، وعندما يستنزِف النمو هذه المادة، يجري إحلالها ببطء، وفي غضون هذا الوقت يبقى الكائن الحي على حاله. شبَّه ريدوود هذه المادة المجهولة بزيت الآلات؛ الحيوان الذي ينمو يُشبِه، على حد وصفه، المحرك الذي يستطيع التحرك لمسافةٍ مُعينة، ويجب بعدها تزييته قبل أن يجري تشغيله من جديد. (من هنا خطر للسيد بانزنجتن وهو يقرأ الورقة العلمية: «لمَ لا نملأ المحرك بالزيت من الخارج؟») وكل هذا — كما ذكر ريدوود بأسلوبه المُتقطِّع الجذَّاب المُفعَم بالتوتر — قد يتَّضِح أنه يسلط الضوء على غموض ما يكمُن في عمل الغُدَد الصمَّاء، كما لو أن للغُدَد الصمَّاء علاقةً بالأمر على الإطلاق!

في رسالة أخرى تالية، ذهب ريدوود إلى ما هو أبعد؛ إذ قدَّم عرضًا رائعًا لبعض الرسوم البيانية — تُشبه بالضبط مسارات الصواريخ — فكرته الرئيسية — إن كانت له فكرة رئيسية من الأساس — هي أنَّ نِسَب بعض العناصر في دم الحِراء والهِرَر وعُصارة دوَّار الشمس ونبات الفُطْر تختلف في المرحلة التي أسماها «مرحلة النمو» عنها في الأيام التي لا تنمو فيها الكائنات بدرجةٍ كبيرة.

بعد أن حمل السيد بانزنجتن رسوم ريدوود البيانية بزاويةٍ مائلة وبالمقلوب، وبدأ يرى هذا الاختلاف، اعترَتْهُ دهشة عارمة؛ لأن هذا الاختلاف قد يُعزى على الأرجح إلى وجود تلك المادة نفسها التي كان يسعى في الآونة الأخيرة لعزْلها في أبحاثه عن أشباه القلويات الأكثر تحفيزًا للجهاز العصبي، فترك ورقة ريدوود العِلمية على سطح المكتب — المائل من ناحية كُرسِيِّه ذي الذراعَين بصورة غير مُريحة — ثم نزع عنه نظارته المُذهَّبة الإطار، وزفر على عدستَيها، ومسحهُما بعنايةٍ فائقة.

ثم قال: «يا إلهي!»

ثم أعاد وضْع نظارته على عينَيه عائدًا إلى المكتب الذي أصدر على الفور صريرًا خفيضًا وألقى بالورقة العِلمية وكل ما تحويه من الرسوم البيانية على الأرض وقد تبعثرَتْ أوراقها وتجعدت، وقال مُجدَّدًا وهو يضغط على مَعِدته فوق الكرسي ذي الذراعَين مُتجاهلًا دون جزعٍ ما اعتاده لدى الاسترخاء بهذه الوضعية: «يا إلهي!» ولما وجد أن الأوراق ما تزال بعيدة عن مُتناوله نزل على يدَيه وقدمَيه ليصِل إليها. وعندئذٍ، وهو على الأرض، خطرت له فكرة إطلاق اسم طعام الآلهة على المادة.

فإن كان هو وريدوود مُحِقَّين، سيُغني حقْن الطعام بهذه المادة الجديدة أو إضافتها إليه عن «الطَّور البَيْني» وبدلًا من أن يجري النمو على هذه الشاكلة.

سيجري (إن كُنتَ تَفهمني) على هذه الشاكلة.

٤

جافى النوم السيد بانزنجتن في الليلة التالية لمُحادثته مع ريدوود، ثم أغفى إغفاءة، لكنها كانت إغفاءةً للحظة، رأى خلالها أنه حفر حفرة عميقة في الأرض وسكب فيها أطنانًا وأطنانًا من طعام الآلهة، فأخذت الأرض تنتفِخ أكثر فأكثر وتمدَّدَت حدود الدول فجأة، وعكف جميع أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية على العمل وكأنهم رابطة عظيمة من الخيَّاطين الذين يعملون على إطالة خطٍّ الاستواء …

كان هذا بالطبع حُلمًا سخيفًا، لكنه يُظهر الحماس الذي سيطر على عقل السيد بانزنجتن والقيمة الحقيقية التي يُعلِّقها على فكرته، أكثر ممَّا تُظهره أي من الأقوال أو الأفعال التي تصدُر عنه وهو مُستيقظ ومُنتبه. ربما كان من الأفضل ألَّا أذكر هذا الحلم؛ لأنني بوجهٍ عام لا أظنُّ أنه من المُتِع على الإطلاق أن يروي الناس أحلامهم لبعضهم بعضًا.

من عجائب المُصادفات أن ريدوود قد رأى بِدَوره حلمًا تلك الليلة، وكان كالتالي:

كان ثمة رسمٌ بيانيٌّ مخطوطٌ من نارٍ على رُقعة طويلة من الجحيم، بينما كان هو (ريدوود) يقِف على كوكبٍ أمام ما يُشبه منصَّةً سوداء، حيث يلقي محاضرةً عن الضرب الجديد من النمو الذي صار ممكنًا، أمام أعضاء المعهد الملكي المرموق لدراسة القوى الأزلية، تلك القوى التي لطالما سلكت هذا المنحى في نمو الأجناس والإمبراطوريات والكواكب والعوالم:

وسلكَتْ حتى في بعض الأحيان هذا المسار:

كان يشرح لأعضاء المعهد شرحًا فصيحًا مُقنِعًا أن هذه المسارات البطيئة بل والرجعية أيضًا سرعان ما ستئول إلى الزَّوال بفضل اكتشافه.

هذا حلم سخيف بالطبع! لكنه بدوره يوضح …

ولا أشير بتاتًا إلى أنَّ أيًّا من الحُلمَين ينبغي أن ينظر إليه باعتباره كاشفًا أو ذا دلالةٍ أبعد مما ذكرتُ بصورة قاطعة بأيِّ حالٍ من الأحوال.

الفصل الثاني

مزرعة التجارب

١

اقترَح السيد بانزنجتن في البداية تجربة هذه المادة على الشراغيف بمجرَّد أنْ صار بالفعل قادرًا على إعدادها. دائمًا ما تُجرى عليها التجارب من هذا القبيل، فهذا هو ما خُلِقت لأجله. اتَّفق الشريكان على أن يتولى بانزنجتن إجراء التجارب وليس ريدوود؛ لأن مَعمل الأخير تَشغلُه حيواناتٌ وأدوات لقياس سرعة المقذوفات لازِمة لدراسة التبايُن النهاري في وتيرة النَّطح لدى صغير العِجل، وهو بحثٌ أسفر عن مُنحنياتٍ عجيبة ومُحيِّرة؛ ومِن ثَمَّ فإن تواجُد أحواض الشراغيف الزُّجاجية كان أمرًا غير مرغوب فيه تمامًا في أثناء إجراء هذا البحث تحديدًا.

عندما أعطى السيد بانزنجتن لابنة عمِّه جين فكرةً عمَّا ينتويه، أبدَتْ على الفور اعتراضها على جلب عددٍ كبير من الشراغيف أو أيٍّ من حيوانات التجارب تلك إلى شقَّتِهما، غير أنها وافقَتْ على أن يَستخدِم إحدى غُرف الشقة لإجراء التجارب الكيميائية التي لا تنجم عنها انفجاراتٌ؛ فهذه التجارب — بالنسبة إليها — لا تجدي نفعًا؛ وسمحت له باستخدام فُرن غاز وحوضٍ وخِزانة مانعة لدخول الغبار بمنأًى عن عاصفة التنظيف الأسبوعية التي تأبى أن تتنازَل عنها. ونظرًا لمعرفتها بأشخاصٍ من مدمني الكحوليات، فقد ارتأت جين أنَّ حِرصه على التميز وسط المجتمع المثقف بديل مثالي عن الانحلال، لكنها لم تكن لتحتمِل عددًا كبيرًا من أي نوع من الأحياء التي «تتلوَّى» حيةً أو تفوح منها الروائح الكريهة ميتةً. وقالت إن هذه المخلوقات بلا شك ضارة بالصحة، وبانزنجتن معروفٌ بضَعف صحته، فمِن السُّخف الزعم بغَير ذلك. فلمَّا حاول أن يشرح لها الأهمية العظيمة لهذا الكشف المُرتقَب، قالت إنَّ كل ما يزعمه جميل، لكنها إنْ قبِلت بأن يجعل

كل ما بالمنزل قذرًا وضارًّا (وهو ما حدث) فهي مُوقِنة بأنه سيكون أول من يشكو جرَّاء ذلك.

فراح السيد بانزنجتن يذرَع الغُرفة جيئة وذهابًا برغم ثَغِنات قدميه ويتحدَّث إليها بحزمٍ وغضب بالِغَين لكن دون أدنى جدوى. أخبرها أنَّ تَقدُّم العلم يجب ألَّا يعترِضه شيء؛ فقالت شتَّان بين تَقدُّم العلم وملء الشقة بالشراغيف. قال إنَّ مَن يمتلك فكرة كفكرته في ألمانيا يوضع تحت تصرُّفه على الفور مَعمل كامل التجهيز مساحته عشرون ألف قدم مربع؛ فقالت إنها سعيدة، ولطالما شعَرَت بالسعادة، لأنها غير ألمانية. قال لها إنَّ هذا البحث سيكون سببًا في ذيوع شُهرته إلى الأبد، فقالت الأرجح أنَّ كثرة الشراغيف في شقَّةٍ كشقتهما ستُمرِضه. قال إنه سيد المنزل، فقالت إنها تُفضِّل أن تكون قيِّمة على مدرسة عوضًا عن خدمة جيش من الشراغيف؛ فطلب منها أن تتحلَّى بالعقلانية، فطلبت منه أن يتحلَّى هو بالعقلانية وأن يتخلَّى تمامًا عن فكرة الشراغيف؛ فطلب منها أن تحترم أفكاره، فقالت إنها لن تفعل إن كانت أفكاره كريهة الرائحة؛ فاستسلم تمامًا وتفوَّه بلفظةٍ سيئة — مناقضًا رؤية هاكسلي الكلاسيكية عن العلماء. لم تكن لفظةً شنيعة، لكنها كانت سيئةً بما يكفي.

تأذَّت جين كثيرًا، فتعيَّن على بانزنجتن الاعتذار لها، وتلاشى الأمل في تجربة طعام الآلهة على الشراغيف في الشقَّة بهذا الاعتذار.

فاضطرَّ بانزنجتن إلى التفكير في طريقةٍ أخرى لإجراء هذه التجارب الغذائية التي يتوجَّب عليه إجراؤها لإثبات نتائج اكتشافه بمجرد أن يعزل المادة ويُعدَّها. داعبَتْ رأسه لأيامٍ فكرة إيداع الشراغيف عند شخص جدير بالثقة مؤقتًا، إلى أن قرأ مُصادفةً عبارة في إحدى الصحف دفعته إلى التفكير في تأجير مزرعة للتجارب.

الدواجن! لمَعَت في رأسه تلك الفكرة على الفور، وارتأى أن تكون مزرعة التجارب مزرعة دواجن. استهوتْه فجأةً رؤية الأفراخ تنمو نموًّا جامحًا، وتخيَّل أقنان دواجن وحظائر عملاقة، تتسع باطراد. فالدواجن يسهل إلى حدٍّ بعيد الحصول عليها وتغذيتها وملاحظتها، وأجسامها ليست زلقة مثل الشراغيف إلى حد يسمح بالتحكم فيها وقياس حجمها، حتى بدت الضفادع له، بالمقارنة، كائناتٍ شديدة الجموح خارجة عن السيطرة، وتعجَّب بشدَّة من أنه لم يفكر منذ البداية في إجراء التجارب على الدواجن بدلًا من الشراغيف؛ فمن جُملة مميزاته أنه كان سيكفيه عناء كل هذا الجدل مع ابنة عمه جين. لمَّا عرض بانزنجتن على ريدوود هذا الاقتراح أيَّدَه الأخير.

قال ريدوود إنه يؤمن بأن إفراط علماء الفسيولوجيا التجريبية في إجراء التجارب على حيوانات صغيرة الحجم بلا داعٍ خطأ كبير؛ فهو يُشبه إجراء التجارب الكيميائية باستخدام ما لا يكفي من المواد، ومن هنا يصبح احتمال الوقوع في أخطاء الملاحظة والتلاعب بالنتائج كبيرًا على نحوٍ غير متناسب؛ لذا فمن المهم في الوقت الحالي أن يدافع رجال العلم بقوة عن حقهم في أن تكون لوازم الأبحاث كبيرة. إن هذا السبب هو ما دفعه إلى إجراء سلسلة تجاربه الحالية في بوند ستريت كوليدج على صغار الثيران رغم أن هذا أزعج إلى حدٍّ ما الطلاب وأساتذة المواد الأخرى بسبب استهتارهم وعبَثِهم أحيانًا في الأروقة. لكن المنحنيات التي حصل عليها ريدوود كانت مثيرة للاهتمام على نحو استثنائي، وإذا نُشرَت، فسوف تُبرر تبريرًا وافيًا اختياره لصغار الثيران؛ لذا فلولا عدم كفاية المنح المخصصة للبحث العلمي في بلده، لما كان ليُجري التجارب أبدًا على أي كائن يقلُّ حجمه عن حجم الحيتان، لكنه يخشى أن إتاحة مُربًّى على نطاق كافٍ يسمح بهذا في بلده يعد في الوقت الحالي مطلبًا خياليًّا، أما في ألمانيا …

لَمَّا كانت صغار الثيران تتطلب من ريدوود رعاية يومية، فقد وقع عبء اختيار مزرعة التجارب وتوفير معداتها بدرجة كبيرة على بانزنجتن، كما كان مفهومًا أيضًا أن تكاليف المشروع ستقع بالكامل على كاهل بانزنجتن، إلى أن يحصلا على منحة على الأقل؛ من ثمَّ أخذ يباشر العمل في معمل شقته حينًا ويبحث عن مزرعة على طول خطوط السكك الحديدية التي تمتد إلى جنوب لندن أحيانًا أخرى، وملأت نظارته التي تطل منها نظرةً ثاقبة، ورأسه الأصلع المُوحي بالبساطة، وحذاؤه الممزق العديد من أصحاب المزارع غير المرغوبة بآمال واهمة، ووضع إعلاناتٍ في العديد من الصحف اليومية وفي دورية نيتشر طالبًا زوجَين مسئولَين، يتسمان بالنشاط والانضباط، لهما خبرة في التعامل مع الدواجن لإدارة مزرعة تجارب مساحتها ثلاثة أفدنة إدارةً شاملة.

عثر على المزرعة التي تفي بحاجته في بلدة هيكليبراو بالقُرب من آرشوت في كِنت. كانت مزرعة صغيرة مُريبة في منطقة منعزلة تقع وسط وادٍ صغير مشجر تحيطه غابات صنوبرية قديمة تبدو مخيفة وحالكة الظلام ليلًا، وثمة منحدر محدَّب يحجب عنها ضوء الشمس عند الغروب، ويبدو بيت المزرعة ضئيلًا بالمقارنة ببئر كئيبة تعلوها سقيفة محطمة. خلا سقف المنزل الصغير من النباتات المتسلقة والكثير من نوافذه كانت مُحطمة، أما السقيفة التي تُختزن بها عربات الخَيل، فقد أظلها ظلٌّ قاتم في الظهيرة. كانت المزرعة تبعد ميلًا ونصف ميلٍ عن آخر بيت يقع على أطراف القرية، ولم يقطع

هذه العزلة إلا طائفةٌ غامضة من الأصداء المترددة في المكان، لا تكاد تُضفي أنسًا على هذه الوحشة بالتأكيد.

أبهرت المزرعة بانزنجتن لملاءمتها البالغة لمتطلبات البحث العلمي؛ سار في أرجائها يرسم مخططًا سريعًا لأقنان وحظائر الدواجن ووجد المطبخ قادرًا على استيعاب عدد من المفارخ والدجاجات الحاضنة بدون الحاجة إلى إجراء الكثير من التعديلات، فذرَع المكان جيئة وذهابًا وفي طريق عودته إلى لندن توقَّف في دانتون جرين وأبرم اتفاقًا مع زوجَين مؤهلين للعمل بالمزرعة استجابا لإعلانه ونجح في الليلة نفسها في عزل كمية كافية من مادة هرقليوفوربيا ١، الأمر الذي أثبت صحة هذه الترتيبات وجدواها.

أما الزوجان المُؤهلان للعمل بالمزرعة، اللذان قادهما القدر عبر السيد بانزنجتن إلى أن يُصبحا أول قيِّمَين على مزرعة طعام الآلهة، فلم يكونا مُتقدِّمَين في السن إلى حدٍّ واضح وحسب، بل واتَّسما أيضًا بالقذارة الشديدة. لم يلحظ السيد بانزنجتن هذا العيب الأخير؛ فليس ثمة ما يُدمِّر قدرة المرء العامة على الملاحظة بقدر إمضاء حياة مكرَّسة للعلم التجريبي. كان الزوجان يُدعَيان السيد والسيدة سكينر، وقد أجرى السيد بانزنجتن معهما مقابلة العمل في غرفةٍ صغيرة، ذات نوافذ مُحكمة الإغلاق، بها مرآة مُرقطة مُزخرفة فوق رفِّ المدفأة وبعض أزهار المَرموزة الذابلة.

كانت السيدة سكينر امرأة عجوزًا شديدة الضآلة، لا ترتدي شيئًا على رأسها، ذات شَعرٍ أبيض قذرٍ مشدود بإحكام إلى الخلف ووجه كان أبرز ما فيه هو أنفه، ثم صار الآن بعد أن فقد أسنانه، وانكمش ذقنه، وتجعَّد سائر ما فيه، مكوَّنًا من أنفٍ فقط تقريبًا. كانت ترتدي رداءً ذا لونٍ رمادي داكن (هذا إن كان للرداء أي لون) به قَطع في أحد المواضع يكشف عن رُقعة من قماش الفلانيل الأحمر. سمحت السيدة سكينر للسيد بانزنجتن بالدخول وتحدثت إليه بتحفُّظ ناظرةً إليه بإمعانٍ من أعلى أنفها، فيما كان السيد سكينر يجري، حسب زعمها، بعض التعديلات في دورة مياه منزله. كان لدى السيدة سكينر سنٌّ واحدة في فمها منعتها من النطق نُطقًا سليمًا، وراحت تتحدث وهي ضامَّةٌ يدَيها الطويلتَين المُجعدتَين إلى بعضهما في توتر. أخبرت السيد بانزنجتن بأنها عُنيَت بالدواجن لسنواتٍ، وعلى دراية بكل شيء عن المفارخ وبأنها وزوجها قد أدارا فيما مضى مزرعة دواجن لكن المزرعة فشلت في نهاية الأمر بسبب حاجتهما إلى عمالة يتولون العمل تحت إشرافهما. ثم قالت السيدة سكينر: «كان السبب هو توفير هذه العمالة ورواتبهم.»

ظهر بعدئذٍ السيد سكينر. كان رجلًا ذا وجه كبير، في لسانه لثغة، وفي عينيه حَوَل يجعله يبدو كما لو كان ينظر بإحدى عينيه إلى أعلى رأسك، وفي قدميه خُفَّان مُمزقَّان أكسباه تعاطف السيد بانزنجتن، ومن الواضح أن ملابسه كانت تعوزها بعض الأزرار. أمسك معطفه وقميصه بيد، وتتبع بسبابة اليد الأخرى الأشكال المرسومة على مفرش المنضدة الملوَّن باللونَين الأسود والذهبي، بينما ينظر بالعين الأخرى إلى أعلى رأس السيد بانزنجتن كما لو كان ينظُر إلى سيف ديموقليس، بنظرةٍ امتزج فيها الحزن باللامبالاة، وقال: «لا تهدف إلى الربح من وراء هذه المذرعة يا ثيدي. لا، يا ثيدي. الأمر ثيان، يا ثيدي. التجارب! بالضبط.»

قال إن باستطاعته الانتقال إلى المزرعة على الفور؛ إذ لا يرتبط بعمل في دانتون جرين سوى أداء القليل من أعمال الحياكة، ثم قال للسيد بانزنجتن: «هذا المكان ليث رائعًا كما حثبت، وما أكثبه هنا لا يثتحق العناء؛ لذا إن كان يناثبك قدومنا ...»

ومن ثمَّ انتقل السيد والسيدة سكينر إلى المزرعة في غضون أسبوع وشرع النجَّار الذي تعاقد معه بانزنجتن من هيكليبراو يبني أقنان وحظائر الدجاج المختلفة إلى جانب نقاشاته المنتظمة مع السيد بانزنجتن.

قال السيد سكينر مُخاطبًا النجَّار عن السيد بانزنجتن: «لم أره كثيرًا بعد، لكنه على حدٍّ ظني يبدو إما غبيًّا وإما أحمق.»

فقال نجَّار هيكليبراو: «بدا لي أن به شيئًا من الجنون.»

فقال السيد سكينر: «إنه يحثب نفسه خبيرًا بالدواجن. ربَّاه! مع أنك قد تحثب أنه دون الجميع يجهل كل شيء عن الدواجن.»

فقال النجَّار: «يبدو هو نفسه كالدجاجة وهو يرتدي تلك النظارة.»

فاقترب السيد سكينر منه وأسرَّ إليه بشيء وإحدى عينَيه تنظر بحزن إلى الوادي البعيد والأخرى تلتمع بخبث: «يجب أن يُقاث حجم الدجاج كل يومٍ لَعين — كل دجاجة لَعينة يجب أن يُقاث حجمها ليتأكد من أنها تنمو جيدًا. ماذا، حقًّا؟! يجب أن يُقاث حجم كل دجاجة لَعينة كل يوم لعين!»

ووضع يده على فمه ليضحك من خلفها ضحكةً مهذبة تغري غيره بالضحك، وأحنى كتفَيه كثيرًا وضحك بكل كيانه، ولم تعجز إلا عينُه الأخرى عن الضحك معه، وقال هامسًا بصوتٍ حادٍّ وقد تشكك في أن النجَّار فهم مقصده: «يجب أن يُقاث حجمها!»

فقال النجَّار: «إنه أسوأ من عُمدة قريتنا العجوز. أؤكد لك هذا.»

٢

إجراء التجارب هو أكثر ما يصيب بالملل (ما لم يكن هذا مجرد زعم من مجلة فيلوسوفيكال ترانزآكشنز)، وبدا للسيد بانزنجتن أن حلمه الأول ذا الاحتمالات الهائلة قد استغرق وقتًا طويلًا ليتحقَّق جزء صغير منه. كان قد اشترى المزرعة في شهر أكتوبر، غير أن تباشير النجاح الأولى لم تظهر إلا في شهر مايو. اضطر إلى تجربة مواد هرقليوفوربيا ١ و٢ و٣ لكنها فشلت جميعًا في تحقيق النتائج المرجوة؛ فقد واجه بعض المشكلات مع دواجن المزرعة التي كانت بمثابة فئران التجارب تارةً ومع آل سكينر تارة. كانت الوسيلة الوحيدة لحمل السيد سكينر على أداء المطلوب منه هي فصله عن العمل؛ عندها كان يحكُّ ذقنه غير الحليق — من عجائب السيد سكينر أنه لم يحلق ذقنه قط ورغم ذلك لم تنبت له لحية مطلقًا — وينظر إلى السيد بانزنجتن بإحدى عينيه وأعلى رأسه بالعين الأخرى ويقول: «آه، بالطبع يا ثيدي — إن كنت جادًّا فيما تقول!»

لكن النجاح لاح أخيرًا، وكان ما بشَّر به خطاب طويل بخط السيد سكينر الصغير. كتب السيد سكينر قائلًا:

> فقس بيض الأفراخ الجديدة. لا تروق لي هيئتها كثيرًا. إنها تنمو بقوة بالغة، بعكس نُظرائها التي سبقتها قبل تعليماتك الأخيرة؛ فالأفراخ التي سبقتها كانت رائعة وممتلئة الجسم — قبل أن تلتهمها القطة — أما هذه الأفراخ فتنمو كالنباتات الشوكية. لم أرَ شيئًا كهذا قط. إنها تنقُر بعنفٍ أعلى حذائي العالي الرقبة إلى حدٍّ أني غير قادر على قياس حجمها بدقَّة حسب المطلوب. إنها تبدو حقًّا كما العمالقة وتأكل كما العمالقة. سنحتاج قريبًا إلى المزيد من الذرة، فلم أرَ من قبلُ أفراخًا تأكل بهذا القدر. هذه الأفراخ أكبر حجمًا من دجاج البانتام، إن واصلت النمو بهذا المُعدَّل المُتسارع فستصلح للعرض وستخلو عروض الدواجن من دجاج البليموث روك. شعرتُ بالخوف الليلة الماضية عندما حسبتُ أن القطة تهاجمها، وأكاد أقسم أنني عندما نظرتُ من النافذة رأيتُ القطة تتسلل من تحت سُور الأسلاك الشائكة. عندما خرجت إلى الحظيرة، كانت الأفراخ كلها يقِظة تنقُر في أرجاء المكان لجُوعها، لكنني لم أجد أثرًا للقطة، فأعطيتها الكثير من الذرة وأغلقتُ باب الحظيرة بإحكام. يسرُّني أن أعرف ما إذا كانت تغذية الدواجن ستستمرُّ حسب التعليمات. الطعام الذي مزجتُه

بالعلف نفد كله تقريبًا ولا أودُّ أن أمزج المزيد منه بالعلف بنفسي بسبب حادثة البودنج. أرجو قبول أطيب التمنيَّات من كِلينا ودوام عطفكم الكريم علينا.

مع خالص الاحترام
«ألفريد نيوتن سكينر»

الحادثة المُشار إليها في نهاية الخطاب وقعتْ حين امتزج بودنج الحليب ببعضٍ من مادة هرقليوفوربيا ٢، الأمر الذي كانت عاقبته مؤلمةً وشِبه كارثية على آل سكينر.

حين قرأ السيد بانزنجتن ما بين سطور الخطاب رأى في نموِّ الأفراخ السريع تحقُّقَ الهدف الذي سعى إليه طويلًا؛ ومن ثم ترجَّل صباح اليوم التالي في محطة آرشوت حاملًا في يده حقيبة تحوي كمية من مادة طعام الآلهة، مُحكَمة الغلْق داخل ثلاث علب، تكفي كل أفراخ مزرعته بِكنت.

ذات صباح جميل مشرق في أواخر شهر مايو، أحسَّ السيد بانزنجتن أن ثَفِنات قدميه قد تحسَّنت كثيرًا حتى إنه قرر أن يقطع بلدة هيكليبراو سيرًا على قدميه وصولًا إلى مزرعته. بلغ طول المسافة إجمالًا ثلاثة أميال ونصف الميل، تمتدُّ عبر المتنزَّه والقرى وحتى سهول مَحميات هيكليبراو المُفعمة بالخضرة حيث رصَّع الربيع أوْجه الأشجار بلآلئه الخضراء، وامتلأت سياجات الزرع بالأزهار النجمية وأزهار الكامبيون وأُترِعَت الغابات بأزهار الخزامى الزرقاء وأزهار السحلبية الأرجوانية، وضجَّ المكان كله بشقشقة الطيور — طيور السُّمْنَة والشحارير وطيور أبي الحنَّاء والحسون وغيرها الكثير — وفي ركن دافئ من المتنزَّه رأى بعض أزهار السرخس تتفتح وبعض الأيائل السمراء تقفز وتركض.

كل هذا أعاد إلى ذهن السيد بانزنجتن مباهج حياته القديمة التي نسيها، ولاحتْ أمام ناظريه الآمال الواعدة بتحقُّق اكتشافه وقد بدتْ أشدَّ تألقًا وبهجة، وشعر بأنه قد بلغ أسعد أيام حياته بلا شك. ولَمَّا رأى في حظيرته المُشرقة بضوء الشمس، بجانب الركام الرملي تحت ظل أشجار الصنوبر، الأفراخَ التي أكلت العلف الذي مزَجَه لها عملاقةً وسمينة، وأكبر حجمًا بالفعل من الكثير من الدجاجات التي تزاوجَتْ واستقرَّت ولا تزال تنمو، وهي لم تتخلَّص بعدُ من ريشها الأصفر الناعم الذي وُلدَت به (لم يُعكِّره إلا مسحة خفيفة من اللون البُنِّي على طول الظهر)، تأكَّد له أنه قد بلغ بالفعل أسعدَ أيام حياته.

دخل تحت إلحاحٍ من السيد سكينر إلى أقنان الدجاج، لكن لما نقره الدجاج من خلال ثقوب حذائه مرةً أو مرتين، خرج مُجددًا واكتفى بمشاهدة هذه الأفراخ العملاقة عبر سُور الحظيرة الشَّبكي. نظر بإمعانٍ بالقُرب من السور وتتبع حركتها كما لو أنه لم يرَ من قبل فرخًا في حياته.

قال له السيد سكينر: «من المثتحيل تخيُّل الهيئة التي ثَيَثِيرون عليها عندما يكبرون.»

فأجابه السيد بانزنجتن: «سيكونون في حجم الحصان.»

فرد السيد سكينر: «تقريبًا.»

أضاف السيد بانزنجتن قائلًا: «قد يكفي الجناح الواحد عدة أشخاص. سيُقسِّمونه إلى هَبراتٍ كبيرة كالقطعيات التي يُعدُّها الجزارون للبيع.»

فاستدرك السيد سكينر: «لكنهم لن يواتلوا النموَّ بهذه الوتيرة.»

فتساءَل السيد بانزنجتن: «لا؟»

أجاب السيد سكينر: «لا، لديَّ خبرة بهذا النوع من الدواجن. إنها تنمو بسرعة في البداية، لكنها لا تثتمر بالمعدل نفسه، بارك الله فيك! لا.»

تخلل كلامهما برهة من الصمت.

ثم بادر السيد سكينر قائلًا بتواضع: «الأمر يتوقف على أُثْلوب الإشراف.»

فالتفتَ السيد بانزنجتن فجأة إليه بنظارته.

واصل السيد سكينر كلامه رافعًا عينه السليمة بنظرة واثقة وقد أطلق العنان لنفسه قائلًا: «لقد جعلناها تبلغ هذا الحجم تقريبًا في المذرعة الأخرى؛ أنا وذوجتي.»

أجرى السيد بانزنجتن جولته التفقدية المعتادة في أرجاء المزرعة، لكنه لم يلبث أن عاد إلى حظيرة الدواجن الجديدة. لقد فاقت في الواقع أقصى خيالاته جموحًا. إن مسيرة العلم بطيئة وحافلة بالتعقيدات؛ فبين الآمال المعقودة والأهداف المُدرَكة دائمًا ما تتوالى أعوام من الحلول والبدائل المعقدة، وها هو؛ ها هو طعام الآلهة يتحوَّل إلى حقيقة واقعة بعد أقلَّ من عامٍ من الاختبارات! بدا هذا رائعًا فوق المتصوَّر. لم يَعُد عليه بعد اليوم أن يتعلَّل بالآمال المؤجلة التي يَئُول إليها كلُّ ما يجول في مُخيلته العلمية! هذا على الأقل هو ما بدا له آنذاك. عاد وحدَّق في تلك الأفراخ الضخمة مرة بعد الأخرى.

قال: «دعني أرى. عمرهم عشرة أيام، وأعتقد أنهم إلى جانب الأفراخ العادية يبدون أكبر حجمًا ستَّ أو سبع مرات.»

قال السيد سكينر لزوجته: «حان الوقت لذيادة أجرِنا. إنه شديد الثعادة بعنايتنا بهذه الأفراخ. شديد الثعادة!»

مال نحوَها كمن يهمُّ بأن يبُوح بسِر، ثم قال وهو يضع يده على فمه: «إنه يحثب أن الثبب هو ذاك الطعام القديم الذي ثنعه.» ثم أصدر ضحكة كتمَها في حلقه.

كان السيد بانزنجتن سعيدًا بالفعل هذا اليوم، ولم يكن في حالةٍ مزاجية تؤهله لتفقد أي أخطاءٍ في إدارة المزرعة. لا شك أن ضوء الشمس أظهر قذارة السيد والسيدة سكينر بوضوح أشدَّ من أي وقتٍ مضى. رغم ذلك كانت تعليقات السيد بانزنجتن لهما في منتهى الرقة. كانت أسوار الكثير من الحظائر مُحطمة، لكن بدا أن السيد بانزنجتن اعتبر الأمر مقبولًا عندما أوضح له السيد سكينر أن «ثعلبًا أو كلبًا أو شيئًا ما» كان السبب في ذلك. فأشار بانزنجتن إلى أن إحدى المفارخ لم تُنظَّف.

فقالت السيدة سكينر عاقدةً ذراعَيها وهي تبتسم متظاهرةً بالخجل: «ليس الأمر كذلك يا سيدي. يبدو أنه لم يُتَح لنا الوقت لتنظيفها منذ أن قدمنا إلى هنا ...»

فصعد السيد بانزنجتن إلى الطابق العلوي ليلقي نظرةً على بعض جحور الفئران التي قال سكينر إنها تستدعي وضع مصيدة — بما أن الجحور كانت بلا شك كبيرة — واكتشف أن الحجرة التي يُمزَج فيها طعام الآلهة بالعلف ونخالة القمح في حالةٍ عارمة من الفوضى غير المقبولة؛ إذ كان آل سكينر ممن ينتفعون بصحون الفناجين المكسورة والعلب وبرطمانات المخلل وصناديق الخردل القديمة، وكان المكان يعجُّ بمثل هذه المُهملات. لاحظ في أحد أركان الغرفة كومة كبيرة من التفاح الذي اختزنه آل سكينر وقد تعفَّنت ورأى فِراء العديد من الأرانب متدليةً من مسمارٍ مُثبَّت في الجزء المنحدر من السقف؛ إذ عرض السيد سكينر على السيد بانزنجتن أن يستخدمها في اختبار مهاراته كتاجر فِراء قائلًا: «قلَّما جهلتُ الكثير عن الفراء والأشياء الأخرى.»

لا شك أن السيد بانزنجتن قد تقزَّز من هذه الفوضى، لكنه لم يُثر جلبة لا داعي لها. وحتى عندما عثر على دبور يستمتع بوليمةٍ شهية داخل وعاءٍ ممتلئ نصفه بمادة هرقليوفوربيا ٤، اكتفى بإشارة لطيفة إلى أنه من الأفضل أن يُحكم حفظ المادة من الرطوبة بدلًا من أن تترك معرضة للهواء هكذا.

ثم صرف اهتمامه عن هذه الأشياء فجأة لينوِّه إلى أمر شغله لبعض الوقت، فقال: «أعتقد يا سكينر أنني سأذبح أحدَ هذه الأفراخ اليوم ليكون عينة أُجري عليها الاختبارات. أعتقد أنني سأذبحه بعد ظُهر اليوم، وسأعود به إلى لندن.»

ثم تظاهر بأنه يُحدِّق في وعاءٍ آخر، ثم نزع عنه نظارته لينظفها.

وقال: «سأودُّ بشدَّة أن أحتفظ بأثرٍ أو بتذكار لهذه الدفعة من الأفراخ هذا اليوم.»

ثم أضاف: «بالمناسبة، أنت لا تُطعم هذه الأفراخ لحمًا. أليس كذلك؟»

فأجاب سكينر: «أوه! لا يا ثيدي. أؤكد لك يا ثيدي أننا على دراية تامَّة بإدارة الدواجن بجميع أنواعها بحيث لن نقع في خطأ من هذا القبيل.»

فردَّ السيد بانزنجتن: «هل أنت واثق من أنكم لا تُلقون فضلات عشائكم للأفراخ؟ أعتقد أنني رأيتُ عظام أرنب مُبعثرة بالقرب من ركنٍ بعيد من أركان الحظيرة.»

لكنهم عندما اقتربوا لإلقاء نظرةٍ على العظام وجدوا أنها عظام أكبر حجمًا لقطة، وقد جُرِّدت تمامًا مما كساها من لحم.

٣

قالت جين ابنة عمِّ السيد بانزنجتن: «هذا ليس فرخًا.»

وأضافت بانفعال: «أعتقد أنني أستطيع أن أُميِّز الفرخ عندما أراه.»

ثم استطردت قائلةً: «إنه أضخم من أن يكون فرخًا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكنك أن ترى بوضوح تام أنه ليس فرخًا. إنه أقرب إلى الحُبارى منه إلى الأفراخ.»

فقال ريدوود سامحًا على مضضٍ أن يَجُرَّه السيد بانزنجتن إلى هذا الجدال: «بالنسبة إليَّ، فعليَّ أن أُقِرَّ أنه، بالنظر إلى كل الأدلة ...»

فقالت جين: «أوه، إن كنتَ تُقرُّ بهذا بدلًا من أن تستخدم عينيك كأي شخص عاقل ...»

فقال ريدوود: «حسنًا، لكن بالفعل يا سيدة بانزنجتن ...»

فقالت: «أوه! واصل كلامك! كلُّ الرجال سواء.»

«بالنظر إلى كل الأدلة، فلا شكَّ أنَّ هذا الطائر ينطبق عليه تعريف الفرخ. لا شك أنه غير طبيعي أو بالغ الضخامة، لكن بما أنه خرج من بيضة دجاجة طبيعية، إذن نعم يا آنسة بانزنجتن عليَّ أن أقرَّ بذلك. هذا — إذا كان بوسعنا أن نُطلق عليه أي اسم — فرخ نوعًا ما.»

فقالت جين: «أتعني أن هذا فرخ؟»

فأجابها: «أعتقد أنه فرخ.»

فقالت جين: «يا له من هُراء!» ثم أشارت إلى رأس ريدوود وقالت: «لا صبر لي على ما تقول.» واستدارت فجأة وغادرت الغرفة وصفَقَت الباب خلفها.

قال السيد ريدوود عندما تلاشى صدى صوت صفيق الباب: «أنا بدوري أشعر بالارتياح الشديد لرؤية هذا يا بانزنجتن، رغم أنه فرخ هائل الحجم.»

وتطوع بالجلوس على مقعد قصير ذي ذراعين بجوار المدفأة دون أدنى إلحاح من السيد بانزنجتن، واعترَف باتخاذه إجراءً كان سيبدو حتى بالنسبة إلى شخص لا يتمتع بدرايةٍ علمية ضربًا من الرعونة، فقال: «ستحسَبُني مُتسرعًا يا بانزنجتن. أعلم هذا، لكنني في الواقع وضعتُ قليلًا من المادة — ليس بالكثير، بعضًا منها فقط — في زجاجة إرضاع طفلي قبل قرابة أسبوع.»

فصاح السيد بانزنجتن: «لكن افترض ...»

قاطعه ريدوود قائلًا: «أعلم.» ورمق الفرخ العملاق المُمدَّد فوق طبق على المنضدة.

ثم استطرد قائلًا: «سارت الأمور على ما يرام. حمدًا لله.» وتحسَّسَ جَيبه بحثًا عن سجائره.

ثم شرح التفاصيل شرحًا مُتقطعًا: «الطفل المسكين لم يكن وزنه يتزايد ... كنت أشعُر بقلقٍ بالغ عليه. وينكلز وهو تلميذ سابق لديَّ ... وهو فتى أخرق إلى حدٍّ مريع ... وعديم النفع ... السيدة ريدوود توليه ثقة مطلقة ... إنني رجلٌ حاد الطبع ... وهي لا تثق بي بالطبع ... ولذا عَلمتْه العناية بالطفل ... وأنا لا يُسمح لي إلا نادرًا بدخول حضانة الطفل ... فكان لا بد من عمل شيء ما ... فتسللت في أثناء تناول المُربية طعامَ الإفطار، ووصلتُ إلى زجاجة إرضاعه.»

فقال السيد بانزنجتن: «لكنه سينمو.»

فردَّ عليه ريدوود قائلًا: «إنه ينمو بالفعل. لقد زاد وزنه سبعة وعشرين أوقية الأسبوع الماضي. ليتك تسمع ما يقوله وينكلز في هذا الصدد، إنه يقول إن السبب هو أسلوب الإشراف.»

«رباه! هذا هو ما يقوله سكينر أيضًا!»

فنظر ريدوود إلى الفرخ من جديد وقال: «المشكلة في مواصلة ما بدأتُ. لن يتركوني وحدي في الحضانة لأنني حاولتُ قِياس منحنى نمو جورجينا فيليس، كما تعلم. كيف سأعطيه الجرعة الثانية؟»

فسأله السيد بانزنجتن: «هل عليك ذلك؟»

فأجاب ريدوود: «إنه يبكي منذ يومين ... لا يستطيع بأي حال العودة إلى تناول طعامه المُعتاد. يحتاج إلى المزيد من المادة الآن.»

فقال بانزنجتن مقترحًا: «أخبر وينكلز.»

ردَّ ريدوود: «تبًّا لوينكلز.»

فأشار بانزنجتن عليه قائلًا: «بإمكانك أن ترشو وينكلز ثم تعطيه مسحوقًا من المادة ليعطيه للطفل.»

فقال ريدوود وهو يضع ذقنه على قبضته ويُحدِّق في نيران المدفأة: «هذا هو تقريبًا ما سأضطر إلى فعله.»

وقف بانزنجتن لبرهة يسوِّي الريش على صدر الفرخ العملاق ثم بادر قائلًا: «ستكون هذه الدواجن عملاقة.»

فوافقه ريدوود وعيناه لم تُفارقا نار المدفأة: «ستكون كذلك.»

أضاف بانزنجتن: «ستكون بحجم حصان.»

فاستدرك ريدوود: «بل أكبر. هكذا ستصير!»

عندئذٍ أدار بانزنجتن ظهره للفرخ وقال: «ريدوود، هذه الدواجن ستُحدِث ضجَّة.»

فأومأ ريدوود برأسه وهو ينظُر إلى نيران المدفأة.

أردف بانزنجتن وهو يستدير فجأةً وعيناه تلتمعان ببريق: «يا إلهي! وكذا طفلك!»

فقال ريدوود: «هذا بالضبط هو ما أُفكِّر فيه.»

ثم أراح ظهره على مقعده مُتنهدًا وألقى لفافة التبغ التي لم يفرغ من تدخينها في النيران، ودسَّ يده عميقًا في جيب سرواله، وأردف: «هذا بالضبط هو ما أفكر فيه. سيكون التعامل مع مادة الهرقليوفوربيا تلك صعبًا. لا شكَّ أن المعدل الذي نما به هذا الفرخ ...»

فقال السيد بانزنجتن ببطء وهو يحدق في الفرخ: «طفلٌ صغير ينمو بهذا المعدل ... يا إلهي! سيكون ضخمًا.»

فقال ريدوود: «سأعطيه جرعاتٍ مُتناقصة، أو سيفعل وينكلز هذا على أي حال.»

قال بانزنجتن: «المسألة أخطر من مجرَّد تجربة.»

فقال ريدوود مؤيدًا: «أخطر بكثير.»

أضاف بانزنجتن: «لكن عليَّ أن أقرَّ بأنه كان ينبغي على طفلٍ ما أن يُجرِّب المادة سواءٌ عاجلًا أم آجلًا.»

فوافقه ريدوود: «أوه، كنا سنجرِّبها على طفلٍ ما، بالتأكيد.»

فقال بانزنجتن: «بالضبط.» ثم تقدَّم وخَطَا فوق البساط المفترش أمام المدفأة ونزع عنه نظارته ليمسحها.

ثم أردفَ قائلًا: «قبل أن أرى هذه الأفراخ يا ريدوود، لم أكن أُدرك أيًّا من الاحتمالات الناتجة عن اكتشافنا. لكن بدأتْ لتوِّها تتضح لي ... التبعات المحتملة.»

وحتى آنذاك لم يكن لدى السيد بانزنجتن أدنى فكرة عن الحريق المُروِّع الذي سيُحدثه مُستصغَر الشرر.

٤

حدثَ ذلك في أوائل شهر يونيو؛ لم يستطع بانزنجتن لعدَّة أسابيع أن يُكرِّر زيارته لمزرعة التجارب لتوهُّمه الإصابة بنزلةٍ حادة، فزار ريدوود المزرعة زيارةً سريعة اقتضتها الضرورة، ولما عاد بدا أكثر قلقًا على طفله ممَّا بدا قبل الزيارة. مضت إجمالًا سبعة أسابيع من النموِّ المنتظم المتواصل.

وهنا بدأتِ الدبابير نشاطها.

في أواخر شهر يوليو، وقبل فرار دواجن مزرعة هيكليبراو بنحو أسبوع، قُتل أول دبور عملاق. ظهر هذا الخبر في العديد من الصحف، لكنني لا أعلم إن كان قد نما الخبر إلى علم السيد بانزنجتن؛ ومن ثم لا أعلم بالطبع إن كان قد أدرك أنَّ للأمر علاقةً بالإهمال العام الذي ساد في مزرعة التجارب.

لم يعد هناك الآن مجالٌ كبير للشك في أنه في الوقت الذي انهمك فيه السيد سكينر بإغداق مادة هرقليوفوربيا ٤ على أفراخ السيد بانزنجتن، عكف عددٌ من الدبابير بانهماك مُماثل — بل ولعلَّه أشد — على حمْل كمياتٍ من المادة نفسها إلى دفعة صغارها التي فقس بيضها أوائل الصيف عند الرُّكام الرملي خلف الغابات الصنوبرية المُجاورة للمزرعة. ولا شكَّ أن هذا الجيل من الدبابير نما وانتفع بطعام الآلهة بقدْر ما نمت وانتفعت به دواجن السيد بانزنجتن. ولما كانت الدبابير تصل بطبيعتها إلى البلوغ الفِعلي قبل الطيور الداجنة؛ لذا فإنها، من بين كل الكائنات التي كانت تشارك الدواجن في الانتفاع بما أغدقه عليها السيد بانزنجتن، بسبب إهمال آل سكينر المفرط، كانت أُولى الكائنات العملاقة التي ظهرت للعالم.

كان مَن حالَفه الحظ وقتَل أولَ دبور من تلك الدبابير العملاقة — التي لم يُسجل التاريخ مثلها من قبل — حارسًا يُدعى جودفري يرعى ضيعة المُقدِّم روبرت هيك الواقعة بالقُرب من بلدة ميدستون. كان جودفري يسير وسط نباتات السرخس التي بلغت ركبتَيه وسط فضاء في منطقة أشجار الزان التي تلون ضيعة المُقدم هيك حاملًا على كتفه بُندقيته، التي كانت من حُسن الحظ ذات ماسورتين، حين لمح الدبور الطائر. يقول جودفري إنَّ الدبور كان هابطًا في اتجاهٍ معاكس للضوء ومن ثم لم يستطع أن يراه بوضوحٍ تام،

وفي أثناء هبوطه أصدر طنينًا (كصوت مُحرك السيارة) يقرُّ جودفري أنه شعر بالخوف. كان من الواضح أن الدبور بحجم بومة الهامة أو أكبر، وبدَتْ حركته في أثناء الطيران — لا سيما حركة جناحَيه المُغبشة — لِعَين جودفري الخبيرة غير شبيهة بحركة الطيور. أعتقد أن غريزة الدفاع عن النفس لدى جودفري قد امتزجَتْ بعادته التي مارسَها طويلًا عندما «أطلق الرصاص على الفور.» على حدِّ وصفه.

لكن غرابة التجربة أثَّرت غالبًا على دقته في التصويب، فأخطأت رصاصته أغلب الهدف، فلم يسقط الدبور إلا لوهلةٍ مصدرًا طنينًا غاضبًا كشف عن كونه دبُّورًا، ثم نهض مُجددًا والخطوط المرسومة عليه تلتمع في الضوء، ثم التفتَ إلى جودفري — على حدِّ قوله — فأطلق الأخير عليه رصاص ماسورة بندقيته الثانية من مسافةٍ أقلَّ من عشرين ياردة، وألقى ببندقيته وركض مُبتعدًا بضع خطوات ثم انخفض ليتفادى الحشرة.

كان جودفري مُوقنًا من أن الدبور طار على مرمى ياردة منه واصطدم بالأرض ثم نهض مُجددًا وسقط مرة أخرى ربما على مسافة ثلاثين ياردة، وراح يتدحرج ويتلوَّى وإبرته اللادغة تندفع إلى الأمام ثم تنقبض إلى الخلف والحشرة تُصارع سكرات الموت. هنا أفرغ جودفري رصاص ماسورتي بندقيته فيها قبل أن يجازف بالاقتراب منها.

لما اقترب جودفري منها لقياس حجمها وجد عرضَها وجناحاها مبسوطان يبلغ سبعًا وعشرين بوصة ونصف البوصة، وطول إبرتها ثلاث بوصات. وجد الحارس الجزء الأخير من جسدها مُنفصلًا عن سائر الجسد، لكنه قدَّر أن طول الحشرة من رأسها إلى إبرتها اللادغة يبلغ ثماني عشرة بوصة — وهو تقدير صحيح تقريبًا — أما عيناها المُركَّبتان فكانتا بحجم عُملة.

هذا هو أول ظهور مُوثَّق لتلك الدبابير العملاقة. في اليوم التالي كاد راكب دراجة، يهبط التلَّ الواقع بين بلدة سيفينوكس وبلدة تونبريدج، يدهَس دبُّورًا آخر من تلك الدبابير العملاقة. كان الدبور يزحَف على الطريق المُخصَّص للمركبات وقد بدا أن مرور الدراجة نبَّهه، فارتفع عن الأرض مُصدرًا ضوضاء شديدة تُشبه صوت المنشرة، وفي غمرة تلك اللحظة قفزت الدراجة بالراكب مُتجاوزة طريق المركبات إلى ممر المُشاة، ولَّما تسنَّى للراكب النظر خلفه، كانت الحشرة تُحلق مُبتعدة فوق الغابات مُتجهة صوب ويسترهام.

بعد أن قاد درَّاجته مُترنحًا لبعض الوقت، أوقفها وترجَّل منها وهو يرتجف بعُنف حتى إنه سقط عن الدراجة وهو يفعل ذلك، ثم جلس على جانب الطريق ليهدأ. كان ينوي أن يقود دراجته إلى آشفورد، لكنه لم يجاوز تونبريدج ذلك اليوم.

العجيب أنه لم تُوثَّق معلوماتٌ عن ظهور أي دبور عملاق آخر بعد ذلك لثلاثة أيام. أجد عند الرجوع إلى تقارير الأرصاد الجوية لتلك الأيام أن الطقس خلالها كان باردًا ومُلبَّدًا بالغيوم مصحوبًا بالأمطار في بعض المناطق، الأمر الذي قد يُبرر اختفاءها المؤقت، لكن في اليوم الرابع صفَتِ السماء وسطعت الشمس مشرقة وانبثق فجأة سيل من الدبابير، لا شك أن العالم لم يشهد مثله من قبل.

يستحيل تخمين عدد الدبابير العملاقة التي ظهرت هذا اليوم. ثمة خمسون بلاغًا على الأقل بظهور هذه الدبابير وضحية واحدة. اكتشف بقَّال أحد هذه الدبابير المُتوحشة في برميل سُكَّرٍ فسارع إلى مهاجمته بجاروفٍ وهو يحلق. ضربه البقَّال طارحًا إيَّاه أرضًا للحظة، فلدغه الدبور عبر حذائه وهو يضربه مُجددًا ليشقَّ جسده إلى نصفَين، لكن البقَّال مات أولًا.

أكثر الوقائع الخمسين إثارةً كان بلا شك لدبُّور زار المتحف البريطاني ظُهرًا. هبط بهدوء ودون إنذار على واحدٍ من الحَمام الذي لا حصر له الذي يقتات على الطعام في فناء المتحف وطار بفريسته إلى إفريز البناء ليلتهِمها على مهَل، ثم زحف لبعض الوقت فوق سطح المتحف، ودخل قُبة قاعة القراءة وطار في أرجاء القاعة لوقتٍ قصير مصدرًا طنينه، وهو ما أحدث حالة من الذُّعر والتدافُع بين القرَّاء، وفي آخر الأمر وجدَ نافذةً أخرى ثم اختفى مجددًا ليُخيم الصمت فجأة على الناظرين بالقاعة.

أغلب البلاغات الأخرى كانت بمرور دبابير أو هبوطها. في قرية أولدينجتون نول، فرَّقت الدبابير جماعة خرجت في نزهة، والتهمت كل الحلوى والمُربَّى التي كانت في حوزتهم، بينما قتَلَ سرب آخر جَروًا ومزَّقَه إربًا بالقُرب من بلدة ويتستبل أمام ناظرَي مالكته.

دوَّت الطرقات ذلك المساء بالصرخات وخلت صدارة الصحف إلا من عنوانٍ مكتوب بالخط العريض: «الدبابير العملاقة في كِنت.» ركض المحررون ومساعدوهم المنفعلون صاعدين وهابطين سلالم دُور النشر الملتوية هاتفين بعباراتٍ عن الدبابير. أما البروفيسور ريدوود، فبعدما خرج من جامعته في بوند ستريت في الساعة الخامسة، مُحتقنَ الوجه إثر نقاشٍ حادٍّ مع لجنته حول سعر صغار الثيران، اشترى صحيفة مسائية، ثم امتقع لونه ونسي على الفور أمر صغار الثيران واللجنة واستقلَّ عربة بسرعة قاصدًا شقة بانزنجتن.

٥

بدا لريدوود أنه لم يكن هناك مَن بالشقة سوى السيد سكينر وصوته — إن كنت بالطبع تُشير إلى السيد سكينر بأداة العاقل!

كان صوته مرتفعًا يفيض بنبرات الألم التي تتخلَّله. قال سكينر: «يثتحيل أن نمكُث هناك يا ثيدي. لقد مكثنا آملين أن تتحثن الأمور، لكنها لم تذْدَدْ إلا ثُوءًا يا ثيدي. المثألة لا تقتثر على الدبابير فقط يا ثيدي. ثمة حشرات أبو مقث كبيرة، يا ثيدي، بهذا الحجم.» (ثم أشار إلى كف يده وثلاث بوصات من معصمه السمين القذِر) وتابع قائلًا: «لقد كادت أن تُثيب الثيدة ثكينر بالجنون يا ثيدي. ونباتات القراث المجاورة للحظيرة تنمو بدورها يا ثيدي، ونبات الكناري الذاحف الذي ذرعناه بالقرب من الحوض يا ثيدي مدَّ مِحلاقه عبر النافذة في أثناء الليل يا ثيدي، وكاد أن يُمثك بثاقَي الثيدة ثكينر، يا ثيدي. الطعام الذي ابتكرتَه هو الثبب، يا ثيدي. أينما نثرْنا منه كمية بثيطة يدفع كل شيء إلى النمو بقوة أكبر من أقثى درجة تخيلتها لنموٍّ أي شيء. من المثتحيل أن نمكث هناك ولو شهرًا، يا ثيدي. هذه مجاذفة تهدد حياتنا يا ثيدي. حتى إن لم تلدغنا الدبابير، ثيخنقنا نبات الكناري الذاحف يا ثيدي. لن يمكنك أن تتخيَّل الوضع إلا إن أتيتَ لترى بنفثك يا ثيدي.»

ثم التفت بعينه المحوَلَّة الناظرة إلى أعلى نحو الإفريز الذي يعلو رأس ريدوود واستطرد قائلًا: «كيف نتأكد من أن الفئران لم تتناوله يا ثيدي! هذا هو أكثر ما يشغلني يا ثيدي. لم أرَ أي فئران ضخمة يا ثيدي لكن أنى لي أن أعرف يا ثيدي. لقد ظللنا نشعُر بالخوف لأيام بثبب حشرات أبي مقث التي رأيناها — كانت بحجم الكركند — وكان هناك اثنان منها يا ثيدي، والطريقة المُخيفة التي تنمو بها نباتات الكناري. لقد ثمعت طنين الدبابير بنفثي؛ بنفثي يا ثيدي، فأدركت ما عليَّ فعله. لم أنتظر شيئًا ثوى حياكة ذِرٍّ كنتُ قد فقدته ثم أتيت، وحتى الآن يا ثيدي أشعر بالقلق الشديد يا ثيدي. كيف عثاي أن أعلم ما الذي يجري للثيدة ثكينر الآن يا ثيدي؟! الكناري الذاحف ينمو في كل أرجاء المكان كالثعبان، يا ثيدي. لا بدَّ أن تراه بنفثك يا ثيدي، لكن إن رأيتَه فعليك أن تفِرَّ من طريقه! وحشرات أبي مقث تكبر أكثر فأكثر والدبابير؛ الثيدة ثكينر لا تملك حتى عدة إثعاف، يا ثيدي. ماذا لو أثابها مكروه يا ثيدي!»

فقال السيد بانزنجتن: «وماذا عن الدجاجات؟ كيف هي؟»

فأجاب سكينر: «لقد ظللنا نُطعمها حتى الأمث، لكننا لم نجرؤ على ذلك هذا الثباح، يا ثيدي. كانت الضوضاء التي تثدرها الدبابير مُريعة يا ثيدي؛ كانت تتدفَّق بالعشرات

بحجم الدجاج. قلتُ للثيدة ثكينر أرى أن تَحيكي لي ذرًّا أو اثنين لأنني لا أتتطيع الذهاب إلى لندن هكذا، وأنا ثأتوجَّه إلى الثيد بانذنجتن وأشرح له الأمر، وأنتِ امكثي في هذه الغرفة إلى أن أعود إليك، وأَبقِي هذه النافذة مُغلقة بأقتى ما تثتطيعين من إحكام.»

ابتدره ريدوود قائلًا: «لو لم تكن مُهملًا إلى هذا الحد الشنيع!»

فقال سكينر: «أوه! لا تقُل هذا يا ثيدي. ليث الآن يا ثيدي، ليث وأنا أشعر بالقلق إلى هذا الحد على الثيدة ثكينر يا ثيدي! أوه لا تفعل هذا يا ثيدي! لا طاقة لي بمُجادلتك. أقثم لك يا ثيدي أنه لا طاقة لي بهذا! الفئران تشغل تفكيري. كيف أتأكَّد من أنها لم تَثِل إلى الثيدة ثكينر في أثناء وجودي هنا؟»

فقال ريدوود: «وأنت لم تقِسْ ولو لمرة واحدة منحنيات النمو الهائلة تلك!»

فأجاب سكينر: «كنتُ في غاية الاضطراب، يا ثيدي. لو أنك تعلم ما عانيناه أنا وذوجتي طوال هذا الشهر! كنا في حيرة من أمرنا يا ثيدي. ماذا عثانا أن نفعل حيال نموِّ الأفراخ بهذه القوة وحشرات أبي مقث، ونبات الكناري الذاحف. لا أعلم إن كنت قد أخبرتُك بهذا من قبل يا ثيدي لكن نبات الكناري الذاحف ...»

فقال ريدوود: «لقد أخبرتَنا بكل ذلك. السؤال الآن يا بانزنجتن: ما العمل؟»

فقال السيد سكينر: «ما العمل؟»

فقال ريدوود: «سيتعيَّن عليك العودة إلى السيدة سكينر. لا يسعُك أن تتركها وحدَها هناك طوال الليل.»

فأجاب السيد سكينر: «لن أعود وحدي يا ثيدي، حتى وإن كان هناك العشرات من الثيدة ثكينر. الثيد بانذنجتن هو من يجب أن يعود.»

فقال ريدوود: «هُراء. ستكون بمأمنٍ من الدبابير ليلًا، ولن تعترضك حشرات أبي مقص.»

فقاطعة السيد سكينر: «لكن ماذا عن الفئران؟»

أجابه ريدوود: «ليس هناك أي فئران.»

٦

قد يكون السيد سكينر قد تخلَّى عن أسوأ مخاوفه، أما السيدة سكينر فقد مكثت بالمنزل طوال اليوم.

في الساعة الحادية عشرة، بدأ نبات الكناري المُتسلق، الذي ظلَّ ينمو طوال اليوم نموًّا نشطًا هادئًا، يتسلق النافذة ويُعتمها بشدة، ومع ازدياد عتمة الغرفة اتضح أكثر

فأكثر للسيدة سكينر أن بقاءها في هذا المكان سرعان ما سيكون مُتعذِّرًا، وأنها مكثت وقتًا طويلًا منذ رحيل السيد سكينر، فأطلَّت من النافذة التي أخذ الظلام يُخيم عليها، ناظرةً عبر المحاليق الهائجة لبعض الوقت، ثم قصدت باب حجرة النوم بحذر وفتحتْه ثم أرهفت السَّمع.

بدا أن السكون يخيم على كل شيء، فشمرت السيدة سكينر تنورتها، ثم اندفعت إلى داخل الغرفة. بادرت السيدة سكينر أولًا بالنظر أسفل الفراش ثم أغلقت باب الغرفة خلفها، وأخذت تحزم متاعها بسرعةٍ ومنهجيةِ امرأةٍ مُتمرسة استعدادًا للرحيل. لم يكن الفراش مُرتبًا، وقد تبعثرت في أرجاء الغرفة أجزاء نبات الكناري الزاحف التي بترَها السيد سكينر ليغلق النافذة ليلًا، لكن السيدة سكينر لم تعبأ بهذه الفوضى. وضعتْ متاعها في ملاءة مناسبة، أودعَتْ فيها كل ملابسها، ومعطفًا مخمليًّا يرتديه السيد سكينر عند التأنق، ووضعت برطمانًا من المخلل لم يفتح بعد. إلى هذا الحدِّ كان هناك ما يُبرر ما تحزمه من متاع. غير أنها أودعَت أيضًا بين متاعها علبتين مُغلقتين بإحكام تحويان مادة هرقليوفوربيا ٤، أحضرَهما السيد بانزنجتن في آخر زيارة له للمزرعة (كانت امرأة طيبة وأمينة، لكنها أيضًا كانت جَدَّة، وقد تفطَّر قلبها لرؤية مثل هذا النمو الرائع يتمتع به جيش من الدجاج اللعين).

حزمت السيدة سكينر جميع أغراضها ثم ارتدتْ قُبعتها، وخلعت المئزر الذي كانت ترتديه، وعقدت رباط حذاء جديدًا حول شمسيتها. وبعدما أرهفت السمع لوقت طويل عند الباب والنافذة، فتحت الباب، واندفعت خارجة إلى عالمٍ محفوف بالمخاطر. حملت الشمسية تحت إبطها مُمسكة بمتاعها بيدين خشنتَين حازمتين. ارتدت قُبعة يوم الأحد المُفضلة لديها وقد بدت زهرتا الخَشخاش، اللتان برزتا بين أشرطة القبعة الرائعة وخرزاتها الرائعة، مُتسلِّحَتَين بتلك الشجاعة المشُوبة بالتوتر التي تملَّكتها.

تجعَّدَت ملامحها حول أنفها لترسم إصرارًا. كانت قد نالت كفايتها! لقد مكثت هناك وحيدةً تمامًا! ليَعُد السيد سكينر إلى هناك إن أراد.

خرجت من الباب الأمامي، لا لأنها أرادت أن تتوجَّه إلى هيكليبراو (كانت وجهتها هي بلدة تشيزينج آيبرايت حيث تسكن ابنتها المُتزوجة) بل لأنه استحال العبور من الباب الخلفي بسبب نبات الكناري الزاحف الذي توحَّش في نموِّه منذ أن أوقعت علبة من طعام الآلهة بالقُرب من جذوره. أرهفت السمع لبرهة، ثم أغلقت الباب الأمامي بحذَرٍ شديد خلفها.

توقَّفت السيدة سكينر على ناصية المنزل لتستطلع المكان حولها.

ثمَّة مُرتفَع رملي على منحدر التل خلف الغابة الصنوبرية المجاورة يقع عنده عشٌّ للدبابير العملاقة، وقد درسته السيدة سكينر بعناية بالغة. كانت الدبابير قد كفَّت عن الذهاب والإياب المُعتادَين في الصباح ولم يُصادف أن رأت أيًّا منها. كان الهدوء يسود المكان، اللهم إلا صوت مِنشار أخشاب بخاري يُسمع بالكاد بين غابات الصنوبر. أما حشرات أبو مقص، فلم تبصر أيًّا منها. أحسَّت بشيءٍ يتحرك بالفعل بين نباتات الكُرنب، لكنه قد يكون قطة تطارد بعض الطيور. وقفت السيدة سكينر تُراقب المكان لبعض الوقت.

ثم خطتْ بضعَ خطوات، إلى أن أبصرت الحظيرة ذات الدجاج العملاق فتوقَّفت من جديد، ثم قالت: «آه!» وهزَّت رأسها ببطءٍ وهي تنظر إلى الدجاجات. كان طولها آنذاك يُضاهي تقريبًا طول طيور الإيمو الأسترالية، لكنها كانت بلا شكٍّ أسمن وأكبر في العموم. لم يتبقَّ إلَّا خمس دجاجات بعد أن تناحر ديكان فقتل أحدهما الآخر. تردَّدت السيدة سكينر وهي تلحظ الوهَن البادي على الدجاجات، وقالت مُحدِّثةً نفسها وهي تضع إصبعها النحيل على شفتَيها: «مسكينات!» ثم تركت الصرَّة التي كانت في يدها وأردفت: «ليس لديهنَّ ماء، ولم يتناولن طعامًا طوال الأربعة والعشرين ساعة الماضية! رغم ما يتمتعْنَ به من شهية كبيرة!»

بعدها صدر عن هذه المرأة العجوز الرثَّة المنظر عمل بطولي ينطق بالرحمة فيما يبدو لي؛ تركت صُرَّتها وشمسيتها وسط الطريق الممهد بالقرميد، وسارت إلى البئر واستخرجت ما لا يقلُّ عن ملء ثلاثة دلاء من الماء لتسكُبه في حَوض الدجاج الفارغ، بعدئذٍ فتحت باب الحظيرة بهدوءٍ شديد فيما تجمَّع الدجاج حول الحوض. بعد أن أتمَّت عملها، دبَّ فيها النشاط بقوة، وعاودت حمل صُرَّتها، وتجاوزت السور الواقع في نهاية الحديقة، والمروج الكثيفة النباتات (لتتلافى عش الدبابير) وجاهدت لتصعد الطريق المُتعرج نحو تشيزينج آيبرايت.

صعدت التل لاهثة، وفي طريقها توقفت بين الفينة والفينة لتضع صرتها وتلتقط أنفاسها وتُحدق في الكوخ الصغير بجانب الغابات الصنوبرية الواقعة أسفل التل. فلمَّا قاربت أخيرًا بلوغ قمة التل، أبصرت من بعيدٍ ثلاثة دبابير مُتفرقة تهبط على مهلٍ نحو الغرب، وقد ساعدها هذا كثيرًا في طريقها.

لم يمض وقتٌ طويل قبل أن تغادر الخلاء وتصِل إلى الطريق الواقع وراء التل والذي يعلو جانباه (بدا لها أكثر أمانًا)، ومن هناك شقَّت طريقها إلى هيكليبراو كومب صاعدة

التلال المُمتدة، وعند سفحها كانت هناك شجرة كبيرة توحي بالأمان، فاستراحت عندها لبعض الوقت فوق مَرقى.

ثم مضت بعزمٍ من جديد …

تراها بِصُرَّتها البيضاء كنملةٍ سوداء مُنتصبة تُهرع على طول الطريق الأبيض الضيق الذي يقطع منحدرات التلال تحت شمس الظهيرة الصيفية الحارقة. واصلتِ المضيَّ جاهدة خلف أنفها الذي يُنبئ عن عزمٍ لا يفتر، وزهرتا الخَشخاش البارزتان من قُبعتها ترتعشان بلا توقُّف، وقد ابيضَّ لون حذائها أكثر فأكثر بفعل أتربة التلال، وقطع وقع قدميها سكون ذاك النهار القائظ: تيك تاك، تيك تاك، وأبتْ شمسيتها إلا أن تنزلق من تحت مرفقها المُتشبِّث بها. تغضَّنت التجاعيد تحت أنفها وهي تزمُّ شفتَيها بكل إصرار، ولم تزل تأمُر شمسيتها مرارًا وتكرارًا بأن تكفَّ عن الانزلاق أو تصبَّ نِقَمَها على صُرَّتها التي أحكمتْ عليها قبضتها فتهزها بعنف. كانت شفتاها تتمتم بين الحين والآخر بمقتطفاتٍ من شجار تتوقَّعه بينها وبين سكينر.

وعلى بُعد أميال وأميال، لاح تدريجيًّا من العدم برج كنيسة وغابة فوق سفح تل ليدُلَّا على البقعة الهادئة التي تقع فيها تشيزينج آيبرايت بمنأًى عن اضطرابات العالم، تكاد لا تبالي — أو لا تبالي مطلقًا — بالهرقليوفوربيا التي تخفيها الصرَّة البيضاء التي ثابرَتْ صاحبتها لتصل بها إلى حيث قُدِّر أن ينتهي بها المطاف.

٧

حسب ما أذكر، قَدِمت الأفراخ إلى بلدة هيكليبراو قرابة الثالثة عصرًا. لا شك أن مرورها كان مصحوبًا بجلبةٍ وحركة بالغتَين، رغم أنه لم يكن بالطريق أحدٌ من المارَّة ليراها، لكن صرخة الصغير سكيلمرزديل العنيفة هي أول ما أنذر بشيءٍ غريب. كانت الآنسة دورجان التي تعمل بمكتب البريد تقف عند النافذة كعادتها، ورأتِ الدجاجة التي أمسكتْ بالطفل البائس وهي تنطلق عبر الشارع بضحيَّتِها وفي إثرها دجاجتان أُخرَيان. تعرفون خُطا الدجاج عندما يتحرَّر ويكون قويَّ البِنية! تعرفون إصراره ولهفته عندما يكون جائعًا! قيل لي إن دماء سلالة البليموث روك تجري في تلك الدجاجات؛ إنها طيور تتَّسِم بالقوة والسرعة، حتى وإن لم تتناول مادة الهرقليوفوربيا.

لعلَّ الآنسة دورجان لم تذهل تمامًا من المشهد، فرغم إصرار السيد بانزنجتن على التكتُّم على الأمر، فقد ذاع في القرية منذ أسابيع أن السيد سكينر يُربِّي دجاجًا ضخمًا؛ من ثمَّ صاحت الآنسة دورجان: «يا إلهي! هذا ما توقعته.»

يبدو لي أنها تصرَّفَت بسرعة بديهة رائعة؛ إذ انتزعت حقيبة الرسائل المغلقة التي كانت تنتظر التوجُّه إلى آرشوت وهُرعت مغادرةً مكتب البريد على الفور. وفي اللحظة نفسها تقريبًا ظهر السيد سكيلمرزديل نفسه يُهرع في القرية مُمسكًا بمِرشَّة من فُوَّهتها وهو شديد الشحوب، وبالطبع هُرع جميع من بالقرية في غضون دقيقةٍ أو نحو ذلك نحو باب منزله أو نافذته.

استوقف مشهد الآنسة دورجان وهي على الناحية الأخرى من الشارع حاملة في يدِها كل بريد هيكليبراو لذلك اليوم، الدجاجة الممسكة بالصغير سكيلمرزديل، فتوقَّفت للحظة مُترددةً ثم التفتتْ إلى بوابات فناء فولتشر المفتوحة، وهنا كانت اللحظة الفاصلة؛ إذ ركضت الدجاجة الأخرى إلى الفناء برشاقة واختطفت الصغير بضربةٍ سدَّدتها بدقة بمنقارها واختفت خلف جِدار بستان راعي كنيسة القرية.

«كاك كاك كاك!» صاحت الدجاجة الأخيرة لَمَّا أصابتها المرشَّة التي صوَّبها السيد سكيلمرزديل ببراعةٍ نحوها، ورفرفت بجناحَيها على نحوٍ هيستيري فوق كوخ السيدة جلو ثم دخلت حقل طبيب القرية، فيما طاردت بقية الدجاجات العملاقة الدجاجة الممسكة بالطفل في أرجاء بستان راعي كنيسة القرية.

ركض راعي الكنيسة وهو يُطوِّح بعصا الكروكيت محاولًا اعتراض طريق الدجاجة الممسكة بالطفل وهو يصيح: «يا إلهي!» أو قائلًا كلمات تنمُّ عن شجاعةٍ أكثر.

ثم صرخ: «قفي أيَّتها البائسة!» كما لو أنَّ الدجاج العملاق من ثوابت الحياة الشائعة.

فلما وجد أنه لا سبيل لاعتراض الدجاجة، قذف عصا الكروكيت بكل قوته فانطلقت بزاوية هائلة على بُعد قدم تقريبًا من رأس الصغير سكيلمرزديل لتخترق المصباح الزجاجي الخاص بالدفيئة. طاخ! الدفيئة الجديدة! الدفيئة الجديدة الجميلة التي تمتلِكها زوجة الكاهن!

ذُعرت الدجاجة، كما كان لأي أحدٍ أن يُذعر، وأوقعت ضحيتها وسط ثمار الخوخ البرتغالي — التي استُنقذ من بينها الصغير على الفور وهو مضطرب الحال، لكنه، فيما عدا ثيابه المُقطعة، لم يُصَب بأذًى — ثم قفزت مُرفرفة بجناحيها صوب سقف إسطبلات فولتشر، ثم خطتْ بإحدى قدمَيها فوق موضعٍ هشٍّ من قرميد السقف لتهوي، كما لو

كانت قد برزتْ من العدم، قاطعةً تأمُّلات السيد بامبز الشليل، والذي ثبت بما لا يدع مجالًا لشكٍّ أنه، في سابقة هي الأولى في حياته، اجتاز حديقته كلها وسار بداخل المنزل وأغلق الباب خلفه بلا أدنى مساعدة، ثم عاد من فوره إلى الاستسلام والاعتماد العاجز على زوجته!

اعترضت مجموعة أخرى من حاملي عِصي الكروكيت طريق بقية الدجاجات، فاجتازت مطبخ الكاهن إلى حقل طبيب القرية حيث انضمت الدجاجة الخامسة أخيرًا إلى المجموعة وهي تَقرُق بحُزنٍ بعد أن فشلت محاولتها في السير فوق نباتات الخيار بمزرعة السيد ويذرسبون.

وقفت الدجاجات لبعض الوقت ينظُرنَ حولهن كَدَيدَن الدجاج وينبشْنَ الأرض ويقْرُقن، ثم راحت إحداهن تنقر خلية نحلٍ بمزرعة الطبيب، ثم انطلقت الدجاجات بمشيَةٍ خرقاء مُتشنِّجة متقطعة منفوشة الريش عبر الحقول نحو بلدة آرشوت ولم تشهدهُنَّ شوارع بلدة هيكليبراو من جديد، وبالقُرب من آرشوت أتينَ على قدرٍ مُماثلٍ من الطعام في حقل مزروع باللِّفت السويدي، وظللنَ ينقُرنَ ما حولهنَّ في لهفة إلى أن سبقتهُن شُهرتُهنَّ.

ردَّة الفعل البشرية الأولى والفورية لاجتياح تلك الدواجن العملاقة كانت حماسةً غير عادية للصراخ والركض وإلقاء الأشياء. لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن يخرج جميع رجال هيكليبراو تقريبًا وعديد من السيدات وفي أيديهم طائفة مدهشة من أدوات الضرب والسياط لطرد الدواجن العملاقة. نجح أهالي البلدة في دفع الدجاجات نحو آرشوت، التي كانت تشهد احتفالًا ريفيًّا، فاتخذت آرشوت من الدجاجات وسيلةً لتتويج فعاليات يومها السعيد. بدأ سكان آرشوت يطلقون الرصاص على الدجاج بالقُرب من بلدة فيندون بيتشز ببنادق الصيد أولًا. مما لا شك فيه أن طيورًا بهذا الحجم تستطيع تلقِّي عددٍ لا حصر له من الطلقات الصغيرة بدون أن تتضرَّر. تفرَّقت الدجاجات بالقرب من بلدة سيفينوكس، وعلى مقربة من تونبريدج فرَّتْ إحداهن وهي تقرُق لبعض الوقت في هياجٍ مُفرط متقدمة قاربًا للنقل المسائي السريع تارةً وسائرةً بموازاته تارة، الأمر الذي أذهل جميع راكبي القارب.

في الخامسة والنصف، اصطاد مالك سيرك في تونبريدج ويلز ببراعة شديدة اثنتَين من الدجاجات العملاقة؛ إذ اجتذبهما بنثْر بعض الخبز والكعك إلى قفصٍ فرَغَ بعد أن نفقَتْ أنثى جملٍ عربي لاحقةً بذكَرِها.

٨

عندما ترجل سكينر المسكين من أحد قطارات ساوث إيسترن الذي أوصله إلى آرشوت مساء ذلك اليوم، كانت الظُّلْمة قد حلت تقريبًا. تأخر القطار عن موعده، لكن ليس كثيرًا، وقد نوَّه السيد سكينر لناظر المحطة عن ذلك. لعلَّ السيد سكينر استشفَّ في عيني رئيس المحطة نظرةً تحمل دلالة ما، فسأله سرًّا بعد لحظة من التردُّد وهو يضع يده على جانب فمه إن كان «خطْبٌ» ما قد وقع ذاك اليوم.

قال ناظر المحطة، وهو رجلٌ ذو صوت أجشَّ صارم: «ماذا تقصد؟»

فأجاب سكينر: «الدبابير وما إلى ذلك.»

أجابه ناظر المحطة بلُطف: «لم يسنح لنا الكثير من الوقت للتفكير في الدبابير، فقد انهمكْنا في مواجهة دجاجك اللَّعِين.» ثم أخبره بأمر الدجاجات وكأنه ألقمه حجَرًا.

فسأل سكينر وسط هذا الوابل من التعليقات والمعلومات المُوجزة والمُفعمة بالدلالات: «ألم تثمع شيئًا عن الثيدة ثكينر؟»

فأجاب ناظر المحطة: «مُطلقًا!» كما لو كان يرسم حدود معرفته.

فقال السيد سكينر، مُتحاشيًا ما قد يختم به ناظر المحطة مُحادثتهما من تعميمات حول ما يتحمَّله سكينر من مسئولية لإفراطه في إطعام الدجاجات: «عليَّ أن أتحرى الأمر.»

أثناء مرور السيد سكينر بطُرقات آرشوت حيَّاه عامل يحرق كُتَل الحجر الجيري من أحد المناجم القريبة من هانكي وسأله إن كان يبحث عن دجاجاته.

فسأله السيد سكينر: «ألم تثمع شيئًا عن الثيدة ثكينر؟»

فقال العامل إنَّ ما يعنيه هو أمر الدجاجات، وما قاله بالضبط لا يستدعي اهتمامنا.

كان الظلام قد خيَّم على البلدة، ظلامٌ لا يختلف في صفائه عن ظلام أي ليلة من ليالي إنجلترا في شهر يونيو، عندما دخل السيد سكينر — أو رأسه هي التي دخلت بالأحرى — إلى حانة جولي دروفرز وقال: «مرحبًا! لم تثمعوا بقثة دجاجاتي، أليث كذلك؟»

أجابه السيد فولتشر: «أوه، لم نسمع بها؟! جزء من القصة حدث على سقف إسطبلي، وجزء آخر منها اخترَقَ دفيئة زوجة كاهن الكنيسة — المعذرة — صَوبتها الزجاجية.»

فدخل سكينر الحانة وقال: «أريد شيئًا مُريحًا للأعثاب. أريد ماءً وبعضًا من شراب الجن.» وأخذ الجميع يُخبرونه بأمر الدجاجات.

فقال سكينر: «رباه!»

ثم سأل حين صمت الجميع: «لم تثلكم أنباء عن الثيدة ثكينر، أليث كذلك؟»

فقال السيد ويذرسبون: «لا لم تصلنا! لم تخطر ببالنا. لم يخطر أيٌّ منكما ببالنا.»

فسأله السيد فولتشر مُمسكًا بإبريق معدني يحتسي فيه الجعة: «ألم تكن بمنزلك اليوم؟»

فقال السيد ويذرسبون: «لو أمسكَتْ إحدى تلك الدجاجات اللعينة بها ...» ثم ترك للحاضرين تخيُّل كلِّ ما تحمِله عبارتُه من رعب.

بدا للمُجتمعين في الحانة آنذاك أن الذهاب مع سكينر للتحقُّق مما إن كانت السيدة سكينر قد أصابها مكروه سيكون ختامًا مُثيرًا ليومهم الحافل بالأحداث. لا يسع المرء أبدًا أن يُدرك ما الذي قد يُخبئه الحظ له عندما تتلاحق الحوادث، لكنَّ سكينر كان غافلًا عن تلك الخواطر وهو يقِف عند مشرب الحانة يحتسي شراب الجنِّ الساخن والماء وإحدى عينَيه تجُول خلف المشرب والعين الأخرى تُحدق في العدَم.

سأل سكينر بلا مُبالاة أتقن إظهارها: «أعتقد أنه لم يكن هناك مشاكل اليوم هنا مع أيٍّ من تلك الدبابير العملاقة. أليث كذلك؟»

فقال فولتشر: «كنا مُنشغلين للغاية بمواجهة دجاجاتك.»

«أعتقد أنها اختفت جميعًا الآن.»

«ماذا؟ الدجاجات؟»

«كنتُ أفكر بالأحرى في الدبابير.»

ثم أضاف بحذَرٍ يوقِظ الشكَّ لدى طفل عمره أسبوع وهو يضغط على أغلب الكلمات التي انتقاها: «أعتقد أنه ليث هناك من ثِمع بأشياء أخرى عملاقة بالجوار. أليث كذلك؟ ككلب عملاق، أو قطة عملاقة، أو أي شيء من هذا القبيل. يبدو لي أنه إن كان هناك دجاج عملاق ودبابير عملاقة ...»

ثم ضحك مُتظاهرًا بأنه غير جادٍّ فيما يقول.

لكن نظرة تأمُّل قلِقةً علَتْ وجوه سائر الحاضرين عندئذٍ. كان فولتشر هو أول من صاغ أفكارهم المُحتشدة في هيئة كلمات.

بادر فولتشر قائلًا: «قطة بحجم هذا الدجاج.»

فأردف ويذرسبون: «أجل! قطة بحجم هذا الدجاج.»

علَّق فولتشر: «ستكون كالنمر.»

فأضاف ويذرسبون: «بل أكبر.»

كان سكينر وحيدًا عندما سلك في النهاية الطريق المهجور الممتدَّ عبر أرض الحقل المُرتفِعة التي تفصل هيكليبراو عن الوادي المُعتم الذي تُظلُّه أشجار الصنوبر، حيث يتصارع تحت ظلاله القاتمة نبات الكناري الزاحف العملاق في صمتٍ مع مزرعة التجارب ليُحكم قبضته حولها.

شُوهِد سكينر بوضوحٍ في الأفق وهو يصعد أرض الحقل المرتفعة وفوقه سماءُ الشمال الصافية برحابها الشاسعة — إذ تبعته أعين الناس إلى ذلك الحين — ثم ينحدِر مُجددًا في جَوف ظلام الليل إلى المجهول الذي بدا أنه لن يخرج منه قط. لقد مضى في طي المجهول ولقي مصيرًا غامضًا. لا يعلم أحد إلى اليوم ما الذي حدث له بعد أن هبط هذه الذُّرى. عندما قادت خيالاتُ السيد فولتشر الأكبر والسيد فولتشر الأصغر والسيد ويذرسبون الرجال الثلاثة إلى صعود التل والبحث عنه، كان الظلام قد ابتلعه وغاب عن الأنظار تمامًا.

وقف الرجال الثلاثة على مقربة من بعضهم البعض. لم يصدُر أي صوت من ظلام الغابة الذي توارت خلفه مزرعة التجارب.

قال السيد فولتشر الأصغر واضعًا نهايةً للصمت الذي خيَّم على رءوس الثلاثة: «حسنًا.»

فقال السيد ويذرسبون: «لا أُبصر أية أضواء.»

فقال الأول: «لن تستطيع ذلك من هنا.»

فأضاف السيد فولتشر الأكبر: «الجوُّ يملؤه الضباب.»

ثم استغرق الرجال الثلاثة في التأمُّل لِبُرهة.

ثم قال فولتشر الأصغر: «كان سيعود إلينا لو أنَّ مكروهًا قد وقع.» بدا هذا الأمر بديهيًّا وحاسمًا حتى إن فولتشر الأكبر قال: «حسنًا.» وعاد الرجال الثلاثة إلى منازلهم وخلدوا إلى النوم، لكن عليَّ أن أقرَّ أن أذهانهم باتت مُنشغلة بالتفكير في الأمر.

سمع راعي غنَمٍ بالقرب من مزرعة آل هاكستر عويلًا شقَّ الليل حتى إنه حسبه عويل ثعالب، وفي الصباح وجد أحد حُمْلانه مَيتًا بعد أن جُرَّ جسده حتى منتصف الطريق إلى هيكليبراو والْتُهِم جزءٌ منه.

ما لا يمكن تفسيره من بين كل هذه الوقائع هو اختفاء أي أثرٍ مؤكَّد للسيد سكينر! بعد عدة أسابيع، عُثِر على شيءٍ بين أطلال مزرعة التجارب المُتفحِّمة قد يكون أو لا

يكون عظم كتِفٍ بشرية. وفي ناحية أخرى من الأطلال عُثِر على عظمةٍ طويلة مشكوك في أمرها هي الأخرى وقد نُخرت بشدَّة. واكتُشفت عينٌ اصطناعية بالقرب من مرقًى يقود إلى حقول العرقون. ومن هنا اكتشف الكثيرون أنَّ جاذبية سكينر كانت ترجع في جزءٍ كبير منها إلى تلك العين. كانت تُحدِّق في العالم بتلك النظرة ذاتها المُترَعة باللامبالاة وذلك الشعور نفسه بالكآبة المُوحشة، اللذين أضفَيا عُمقًا عوَّضه عن هيئته البسيطة.

ظهرت، بالبحث المضني بين هذه الأطلال، الحلقات المعدِنية والأغطية المُتفحِّمة لاثنَين من الأزرار الكتَّانية وثلاثة أزرار ذات حلقات تُشبك بها وكانت سليمة، وزر معدني من الأزرار المُستخدَمة بين الشرائح الاقتصادية الأدنى. أقرَّ المسئولون بأن هذه البقايا تُعدُّ أدلة قاطعة على هلاك سكينر. أما أنا فأُومِن تمامًا — بالنظر إلى هيئة سكينر المميزة — أنَّ الدليل يجب أن يتمثل في عددٍ أكبر من العظام وأقلَّ من الأزرار.

لا شك أن العين الاصطناعية مقنعة تمامًا، لكن إن كانت حقًّا لسكينر — مع أنَّ السيدة سكينر نفسها لم تكن تعرف بالتأكيد أنَّ عينه التي لا تتحرك كانت اصطناعية — فقد تبدَّل لونها من البُنِّي اللامع إلى لونٍ أزرق هادئ يُوحي بالثقة. أما عظم الكتِف فهو دليل مشكوك تمامًا في أمره، وأودُّ أن أضعَهُ جنبًا إلى جنبٍ مع عظام الكتِف التي نُخرت لبعض الحيوانات الأليفة قبل أن أُقرَّ بأنه لبشري.

وأين على سبيل المثال حذاء سكينر؟ مهما كانت شهية الفئران شاذَّةً وغريبة، هل يُعقل أن الكائنات نفسها التي لم تلتهم إلا نِصف حَمَلٍ ستُجهِز على شَعر سكينر وعظامه وأسنانه وحذائه؟

استجوبتُ بعناية أكبر عددٍ مُمكنٍ ممَّن جمعَتْهم معرفة وثيقة بسكينر، وجميعهم أجمعوا على أنهم لا يستطيعون تصوُّر أيِّ شيءٍ يلتهِم سكينر؛ إذ كان الأخير — كما أخبرني أحد البحارة المتقاعدين الذين يسكُنون أحد أكواخ السيد دبليو دبليو جيكوب في دانتون جرين بحذَرٍ يشيع في هذه الأرجاء — «عديم القيمة على أي حال.» وحتى أجزاؤه الجديرة بالالتهام «لا تلتهِمُها النيران، بل هي التي تخمد النيران.» رأى البحَّار أن سكينر سيكون بمأمنٍ في أي مكان. وأضاف أنه لا يرغب في التحدُّث بسوءٍ عن سكينر لكنَّ الحقائق هي الحقائق، وقال إنه يفضل أن يُحبس في منزله على أن يعهد إلى سكينر بصُنع ثيابه. هذه الملاحظات بلا شك لا تجعل سكينر يبدو مَطمعًا لأيِّ حيوانٍ مفترس.

تَحرِّيًا للصراحة مع القارئ، فإني لا أُصدِّق أنه عاد قطُّ إلى مزرعة التجارب. أعتقد أنه ظلَّ يحُوم في تردُّدٍ طويل حول الحقول التابعة لأبرشية هيكليبراو، ولَمَّا بدأ الهرَج والمرَج، آثر السلامة واختار العيش في الخفاء تحت وطأة حيرته واضطرابه.

وفي الخفاء، سواءٌ أكان في هذا العالم أم كان في عالمٍ مجهول بالنسبة إلينا، لا يُخامرني أدنى شكٍّ أن سكينر تشبَّث بالبقاء حيًّا إلى يَومنا هذا …

الفصل الثالث

الفئران العملاقة

١

بعد ليلتَين من اختفاء السيد سكينر كان طبيب بلدة بودبورن يقود عربة الخيل الصغيرة الخاصة به بالقرب من بلدة هانكي في ساعة متأخرة. كان قد أمضى الليل كله ساهرًا ليساعد امرأةً في حالة مَخاض على إخراج نفسٍ أخرى إلى عالمنا العجيب. وبعدما أتمَّ مهمته قاد عربته مُتجهًا إلى منزله وهو يقاوم النعاس. كانت الساعة الثانية تقريبًا بعد منتصف الليل وقد أخذ القمر المُتناقِص يصعد في عنان السماء. تسرَّبت البرودة إلى هواء تلك الليلة الصيفية وخيَّم ضباب أبيض غير بعيد عن الأرض فتعذَّرت الرؤية بوضوح. كان الطبيب وحدَه تمامًا — فسائق عربته كان مريضًا — ولم يكن هناك ما يُرى على كلا جانبيه سوى طيفٍ عابر لسِياج من الأشجار يتسارع مع الوهج الأصفر المنطلق من مصابيح عربته، ولا ما يُسمع إلَّا صلصلة جيادِه وصرير عجلات العربة. كانت ثقتُه بجِياده لا تقلُّ عن ثقته بنفسه، فلا عجَبَ أنه استسلم لسُلطان النعاس.

تعلمون ذلك النعاس المُتقطع الذي يُلمُّ بالجالس، فيرتخي الرأس، ويُومئ مع إيقاع عجلات العربة، ويتدلَّى الذقن على الصدر، ثم لا يلبَثُ النائم أن يهبَّ من غفوته على الفور فجأة.

تتوالى سريعًا سلسلة من النقرات الخفيفة.

«ماذا كان هذا؟»

بدا له أنه سمِع صرخة رفيعة حادَّة من مكانٍ قريب، فتنبَّهت حواسُّه لبرهة، ووبَّخ حصانه بكلمةٍ أو اثنتَين، لم يستحقَّهما الجواد، ونظر حوله. حاول أن يُقنع نفسه بأن ما سمِعه كان عويل ثعلبٍ آتيًا من بعيدٍ أو لعلَّه صراخ أرنبٍ صغير أمسك به ابن مِقْرَض.

من جديد سُمعَ صوتُ نقراتٍ مصحوبًا بهَسْهَسة.

ماذا كان هذا؟

شعر الطبيب بأنه بدأ يتوهَّم أشياء، فهزَّ كتفَيه وأمر حصانه بمواصلة السير، وأرهف السمع فلم يسمع شيئًا.

أم لعلَّه سمِع؟

خُيِّل إليه أمر في غاية الغرابة؛ خالَ شيئًا ما قد اختلس نظرةً خاطفة إليه من خلف السياج، شيئًا ذا رأسٍ ضخم عجيب وأذنَين مُستديرتَين! أمعن النظر لكنه لم يستطع أن يُبصر شيئًا.

فقال: «هراء.»

اعتدل في جلسته وقد حسبَ أنه وقع في شِراك كابوس فنكز جواده بلمسةٍ خفيفة من سَوطه وخاطبه، ثمَّ أمعن النظر مُجددًا صوب السياج، لكنَّ وهَج مِصباحه إلى جانب الضباب جعلا الرؤية غير واضحة، فلم يستطع تبيُّن شيء. يروي الطبيب أنه خطر بباله آنذاك أنه لا صحة لما تخيَّله؛ لأنَّ جواده كان سيجفل إن كان هناك شيء. رغم كلِّ هذا ظلَّ مُنتبهَ الحواسِّ ومتوترًا.

ثم سمعَ بوضوحٍ تامٍّ صَوت خُطًا سريعة ذات وقْعٍ خفيف تتعقَّبه على طول الطريق.

لم يستطع أن يُصدق أذنَيه، ولا أن ينظر حوله؛ إذ كان أمامه مُنعطف، فضرب جواده بالسوط ثم نظر مُجددًا على جانبَيه، فرأى بوضوحٍ على ضوء شعاعٍ أسقطه مصباحُه فوق منطقة منخفضة من السياج ظَهْرَ حيوان ضخم لم يستطعْ تمييزه، ولمحَه يمضي بقفزاتٍ سريعة مُختلجة.

يذكُر الطبيب أنه تذكَّر عندئذٍ قصص السِّحر القديمة؛ فقد كان هذا المخلوق مُختلفًا تمامًا عن أيِّ حيوانٍ أَلِفَه، فأحكم الرجل قبضته على زمام جواده خشية أن يجفل. رغم كونه رجلًا متعلمًا، فقد أقرَّ بأنه تساءل إن كان هذا المخلوق غير مرئي بالنسبة إلى حصانه.

بعد أن مضى قدمًا، دنَتْ تحت ضوء القمر البازغ ظلال قرية هانكي ببيوتها الصغيرة لتبعَثَ في نفسه الراحة، مع أنَّ الظلام خيَّم عليها تمامًا، فضرب الجواد بسوطه وحدَّثه ثانية، ثم ما لبثت الفئران أن انقضَّتْ عليه في لمح البصر!

كان قد عبر بوابة ومع عبوره لها قفز الفأر الموجود بالمقدمة قاطعًا الطريق. لقد انقضَّ بارزًا من الضباب ليتضح ملء العيان بوجهه الجامح المُتلهِّف وأذنيه المُستديرتين، وجسده الطويل الذي بدا أضخم بحركاته، وقدمَيه الورديَّتَين المُكفَّفتي الأصابع، وهو ما

أذهلَ الطبيب بصورةٍ خاصة. لا شكَّ أن ما جعل الأمر أكثر ترويعًا بالنسبة إليه آنذاك هو أنه لم تكن لدَيه فكرة عن ماهية الكائن الذي يواجهه؛ فهو لم يُدرك أنه فأر بسبب حجمه. أجفل جواده والفأر يهبط على الطريق بجانبه، ودبَّ الاضطرابُ والصخَب في الطريق الصغير مع صوت ضربات سوط الطبيب وصياحه. وفجأةً جرى الأمر برمَّته سريعًا.

صلصلة، خشخشة، قعقعة، ثم خشخشة.

على حدٍّ استنتاجي، نهض الطبيب وصاح في جواده وهوى على الفأر بسوطه بكلِّ قوته فأجفل الفأر مُبتعدًا من أثر ضربته، الأمر الذي هدَّأ من رَوع الطبيب تمامًا. على وهَج المصباح، رأى الطبيب فِراء الفأر يتجعَّد تحت صفعات سَوطه، فهوى بضربةٍ ثانية وثالثة غير مُنتبِهٍ للفأر الثاني الذي يتعقَّبه وقد دنا منه.

أطلق العنان لزمام الجواد ونظر خلفه ليجد الفأر الثالث في إثره.

قفز الجواد إلى الأمام وانتفضت العربة عاليًا عند حفرةٍ بالطريق، وفي لحظة محمومة بدا أن كل شيء يحدُث على عجل.

من حُسن الحظِّ أن الحصان سقط في قرية هانكي وليس قبل عمرانها أو بعدَه.

لا يعلم أحدٌ كيف سقط الجواد؛ أتعثَّرَ أم أتَتِ العضَّات التي سدَّدها الفأر الذي على ميمنتِه بأسنانه القاطعة (بثقله كله) بمفعولها. الطبيبُ نفسه لم يكتشف أنَّ الفأر عضَّه إلا عندما بلغ منزل صانع القرميد، وبالطبع لم يكتشف متى عضَّه الفأر، رغم أنه كان مُصابًا إصابة بالغة. كان على كتِفه اليسرى شقٌّ طويل كتلك التي تصنعها فئوس توماهوك المزدوَجة، وقد قُطِعَت مِزقتان مُتوازيتان من لحمه جرَّاء ذلك.

لم يلبَث الطبيب أن قفز من عربته على الأرض وقد التوى كاحله بشدَّة — ولو أنه لم يدْرِ بذلك — وظلَّ يضرب بسوطه في سخط فأرًا ثالثًا انقضَّ عليه مباشرة. يذكر الطبيب بالكاد أنه قفز فوق عجلات العربة وهي تنقلِب، فقد تلاحقت أفكاره ومشاعره بسرعة محمومة إلى حدِّ أنه لم يعُد قادرًا على تذكر تفاصيل الحادثة بدقَّة فيما بعد. أعتقد، من وجهة نظري، أن الجواد انتفض والفأر يُطبق أسنانه حول حلقِه مُجددًا، وهوى على جانبه لتنقلِب العربة بأسرها، وأنَّ غريزة البقاء قد دفعت الطبيب إلى القفز. تحطَّم وعاء المصباح إثر انقلاب العربة واندفع منه فجأةً وهَج زيت مُشتعل، وصدر صوت انفجار مكتوم نتج عنه لهب أبيض، في مسرح الحدث.

كان هذا هو أول ما أبصره صانع القرميد.

سمع الجلبة التي صاحبت اقتراب الطبيب وصيحاته الجامحة، رغم أن الطبيب لا يذكر أمر هذه الصيحات. نهض الرجل من فراشه مُسرعًا وبينما هو ينهض، سمع صوت

تحطُّم المصباح وانبثق وهَجُه من خلف الستائر وهو يرفعها. كان «وهَجُه أقوى من ضوء النهار.» على حدِّ قوله. وقف صانع القرميد مُمسكًا بحبل الستائر وهو يُحدق من نافذته مُتأملًا التحوُّل المروِّع الذي حلَّ بالشارع أمامه. بدا للرجل ظِلُّ الطبيب متراقصًا أمام اللهب وهو يحمل سوطه الملتوي، وأخذ الجواد يركل بقدميه بلا تمييزٍ وقد توارى نصفه خلف الوهج والفأر قابض على حلقه. قُبالة جدار فناء الكنيسة، التمعتْ عينا فأرٍ شرس آخر في العتمة مُنذرة بالشر، ثم ظهر فأر ثالث — بدا كظلٍّ مُخيف ذي عينَين حمراوَين ويدَين ورديَّتَين — محاولًا التعلُّق بإفريز الجدار المائل الذي قفز إليه لحظة توهُّج المصباح الذي تفجَّر.

تعلمون كيف يبدو الفأر بوجهه المُتلهِّف وثنيتَيه الحادَّتَين وعينَيه القاسِيتَين. لا شكَّ أنه بدا مُريعًا لصانع القرميد الناعس وهو يراه وقد تضاعفتْ أبعاده إلى ما يقرُب من ستة أضعاف حجمه الطبيعي وتضاعَفَ حجمه أكثر بفعل الظلام والدهشة والخيالات المُتقافزة على ضوء اللهب المُتقطِّع.

انتهز الطبيب هذه الفرصة، وهذا الملاذ الخاطف الذي كشف عنه وهَج النيران، واختفى عن أنظار صانع القرميد وأخذ يدقُّ بيت الأخير بمؤخِّرة سوطه.

رفض صانع القرميد أن يسمح له بالدخول قبل أن يجلب مصباحًا.

البعض لامَ الرجل على ذلك، لكن إلى أنْ أعلم مدى شجاعتي، سأتردَّد في ضمِّ صوتي إليهم.

صاح الطبيب وطرق الباب.

قال صانع القرميد إنه كان يبكي رُعبًا عندما فتح الباب آخِر الأمر.

قال الطبيب لاهثًا: «القفل! القفل!» لم يستطع قول «أغلق الباب بالقفل.» حاول أن يقصد الباب لمساعدة صانع القرميد، لكنه عجز عن ذلك. أحكم صانع القرميد إغلاق الباب، ثم ألقى الطبيب بنفسه على المقعد المجاور للساعة وظلَّ جالسًا لبُرهة قبل أن يتمكن من الصعود إلى الطابق العلوي.

كرر الطبيب مرارًا: «لا أعلم ما هي! لا أعلم ما هي!» رافعًا صوته في «هي.»

كان صانع القرميد سيجلب له بعض خمر الويسكي، لكنَّ الطبيب أبى أن يُترَك وحدَه بلا شيءٍ سوى مصباح مُرتعش الضوء.

مضى وقتٌ طويل قبل أن ينجح صانع القرميد في إقناعه بالصعود إلى الطابق العلوي.

لَمَّا خمدَت النيران عادت الفئران العملاقة وأخذت الجواد الميِّت وسحبتْهُ عبر فناء الكنيسة إلى ساحة صناعة القرميد وعكفتْ على الْتِهامه حتى الفجر، دون أن يجرُؤ أحد على إزعاجها.

٢

عرج ريدوود في قُرابة الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالي على بانزنجتن حاملًا الطبعة الثانية لثلاث صحف مسائية.

قطع بانزنجتن تأمُّله اليائس بشأن الصفحات المنسيَّة من الرواية الأكثر إلهاءً التي استطاع أمين مكتبة برومتون رود أن يجِدها له ورفع عينَيه سائلًا ريدوود: «هل من جديد؟»

فأجاب الأخير: «لُدِغ رجلان بالقرب من تشارثم.»

«كان عليهم أن يتركونا نطرد تلك الدبابير من أعشاشها بالدُّخان، وها قد خرجت بالفعل! هذا خطؤهم.»

فوافقَه ريدوود قائلًا: «إنه خطؤهم، بالتأكيد.»

«هل سمعت شيئًا فيما يتعلق بشراء المزرعة؟»

أجابه ريدوود: «سمسار العقارات شخص مُباهٍ صعْب المِراس؛ إنه يزعم أن هناك شخصًا آخر يسعى لشراء المنزل — دائمًا ما يزعم هذا كما تعلم — ولا يتفهم أن المسألة عاجلة. قلتُ له: «إنها مسألة حياة أو موت، ألا تفهم؟» فأخفض هذا الشيء جَفنه قليلًا ثم قال: «إذن لماذا لا تدفع مائتي جنيه إضافية؟» أُفضِّل أن أعيش في عالمٍ من الدبابير العملاقة على أن أُذعِن لُمماطلات هذا المخلوق البغيض. أنا ...»

ثم توقَّف لبُرهة شاعرًا بأن جُملةً كهذه قد يُفسِد السياق الدائر معناها بسهولة.

فقال بانزنجتن: «من الصعب أن نتوقَّع أن واحدًا من هذه الدبابير ...»

فقال ريدوود: «معرفة الدبابير بالمرافق العامة لا تتجاوز معرفة سماسرة العقارات بها.»

تحدَّث ريدوود لبُرهة عن سماسرة العقارات والمُحامين وغيرهم ممن على هذه الشاكلة، بالأسلوب المُتحامل وغير المنطقي الذي يسلُكه الكثيرون لدى التحدُّث عن المعاملات المُتَّبعة في هذه المهن «من بين كل غرائب هذا العالم الغريب، أجد أن أغربها على الإطلاق أن نتوقع من الطبيب أو الجندي أن يتصرَّف بشرفٍ وشجاعة ومهارة باعتبار أن هذا من

البديهيات، لكننا في الوقت نفسه لا نسمح فقط للمُحامي أو سمسار العقارات أن يتصرَّف بحماقة مشُوبة بالجشع والخداع والطموح المُغالى فيه، بل نتوقَّع منه هذا.» وبعدما شعر بالارتياح الكبير، اتَّجَه إلى النافذة وحدَّق في الحركة المرورية بشارع سلون ستريت.

كان بانزنجتن قد وضع الرواية الأكثر إثارةً على الإطلاق فوق المنضدة الصغيرة التي تحمِل مصباحه الكهربي وشبَّك أصابع كفَّيه المُتقابلتين وتأمَّلها بإمعانٍ شديد.

ثم قال: «ريدوود، هل يتحدث الناس بشأننا كثيرًا؟»

«ليس بقدْر ما أتوقع.»

«ألا تُوجَّه لنا أية اتهامات؟»

«مُطلقًا، لكنهم من ناحية أخرى لا يؤيدون ما أشرتُ إلى وجوب فعله. لقد كاتبتُ صحيفة ذا تايمز كما تعلم شارحًا كل شيء ...»

قاطعه بانزنجتن قائلًا: «نحن نبتاع صحيفة ديلي كرونيكل.»

«كتبت صحيفة ذا تايمز افتتاحيةً طويلة حول هذا الموضوع — افتتاحية حسنة الصياغة رفيعة المستوى، مكوَّنة من ثلاث فقرات مكتوبة بخط تايمز لاتين، منها فقرة تُوضح الوضع الراهن — تشعُر وأنت تقرؤها كأنك تسمع صوتَ شخصٍ ذي شأن يُعاني من دوار الإنفلونزا وهو يتحدَّث عبر طبقاتٍ من أغطية اللباد بدون أن يُشعِره ذلك بالراحة. يتَّضِح تمامًا من قراءة ما بين سطور الافتتاحية أن صحيفة ذا تايمز تَعتبِر تجميل الحقائق أمرًا غير مُجدٍ وتؤمن بوجوب اتخاذ إجراءٍ ما — غير مُحدَّد بالطبع — على الفور، وإلا فسوف نشهد تبعات أخرى غير مرغوب فيها — تعلم لغة الصحيفة الفصيحة، والمقصود هو المزيد من الدبابير واللدغات. مقال كتبه سياسي مُحنَّك من الطراز الأول!»

«وفي الوقت نفسه، تنتشِر ظاهرة العملقة هذه بشتَّى الطرق المُريعة.»

«بالضبط.»

«أتساءل عمَّا إذا كان سكينر مُحقًّا بشأن تلك الفئران الكبيرة!»

ردَّ ريدوود: «أوه لا! هذا سيكون أمرًا يفوق الاحتمال.»

ثم وقف بجانب مقعد بانزنجتن.

وقال، خافضًا صوته قليلًا: «بالمناسبة. كيف تعاملتْ؟»

وأشار إلى الباب المُغلق.

فأجاب بانزنجتن: «ابنة العم جين؟ إنها ببساطة لا تعلم شيئًا عن الأمر، ولا ترى علاقةً لنا به وترفض قراءة هذه المقالات. تقول: «دبابير عملاقة! لا صبر لي على قراءة الصحف».»

فقال ريدوود: «ذلك من حُسن الحَظ.»

«هل أفترض أن السيدة ريدوود ...»

«لا. يُصادف أنها في الوقت الحالي شديدة القلق على صغيرنا؛ فهو، كما تعلم، لا يزال ...»

«ينمو؟»

«نعم، ازداد وزنه في غضون عشرة أيام واحدة وأربعين أوقية؛ أي ما يقرُب من ٥٦ رطلًا، وعمره لا يتجاوز ستَّة أشهر! هذا بطبيعة الحال أمر مُقلق جدًّا.»

«هل يتمتَّع بصحة جيدة؟»

«مُفعَم بالحيوية، حتى إنَّ مُربيته ستترك العمل لدَينا لأنه يركُل بقوة شديدة. لقد ضاقت جميع ملابسه بالطبع بصورةٍ صادمة. كان لا بدَّ من إعداد أغراضٍ جديدة له، من ملابس وكل ما سواها. لقد انكسرت إحدى عجلات عربتِه — وهي عربة خفيفة — وكان لا بدَّ من إعادته للمنزل على عربة بائع اللبن اليدوية. أجل. شاهده حشدٌ كبير ... وضعْنا جورجينا فيليس في فراشه النقَّال ووضعناه في فراش جورجينا فيليس. والدته قلقة بطبيعة الحال. كانت في البداية تشعر بالفخْر به وتميل إلى مدح وينكلز، لكنها لم تعُد كذلك الآن. صارت تشعُر بأن هذا النمو يستحيل أن يكون صحيًّا. كما تعلم.»

«تخيلتُ أنك سوف تُعطيه جرعات مُتناقصة.»

«حاولت هذا.»

«ولم يفلح الأمر؟»

«العواء. عادة ما يكون بكاء الطفل مُرتفعًا ومزعجًا. هذا لمنفعة الجنس البشري، لكنه منذ تعاطي الهرقليوفوربيا ...»

فقال بانزنجتن وهو يتأمَّل أصابعه بمزيدٍ من الاستسلام: «إممم.»

«من الناحية العملية، لا شكَّ أن الأمر سينكشف. سيُسمع بأمر الطفل فيربط الناس بينه وبين الدجاجات وباقي الكائنات، وستصل المسألة برمتها إلى زوجتي. لا أدري على الإطلاق كيف سيكون وقع الأمر عليها.»

فقال بانزنجتن: «لا شكَّ أنه من الصعب وضْع أي خُطة.»

ثم نزع عنه نظارته ومسحها بعناية.

ثم أردف: «هذا مثال آخر لما يحدُث باستمرار. إن كنَّا نحن رجال علم — إن كان لي بالفعل أن أفترض أنَّ هذه الصفة تنطبق علينا — فنحن بالطبع نعمل دائمًا من أجل الوصول إلى نتيجة نظرية — نظرية بحتة. لكن يُصادف أننا بالفعل نُطلق بعض القوى — القوى الجديدة. يجب ألا نتحكَّم بها ولا يسع أي أحدٍ هذا. المسألة من الناحية العملية يا ريدوود خارج نطاق سيطرتنا. نحن نُنتِج المادة ...»

فأكمل ريدوود وهو يلتفِت إلى النافذة: «وهم يعيشون التجربة.»

«فيما يتصل بهذه المشكلات الجارية في كِنت، فلا استعداد لديَّ للقلق أكثر من ذلك.»

«إلا إذا اضطرُّونا إلى القلق.»

«بالضبط، وإن كانوا يَودُّون خَوض المتاهات مع المستشارين القانونيين والمُحامين المُحتالين والعقبات القانونية والاعتبارات المُزعجة لهذا النظام الغبي، إلى أن يصير لدَيهم عدد من الفصائل الجديدة المُستقرة من الحشرات العملاقة. لطالما كان الوضع فوضويًّا يا ريدوود.»

كان ريدوود يتتبَّع بعَينه خطًّا مُلتويًا مُتشابكًا في الهواء.

ثم استطرد بانزنجتن: «موضع اهتمامنا الحقيقي في الوقت الحالي هو طفلك.»

فالتفتَ ريدوود ودنا من زميله وحدَّق فيه.

ثم قال: «ما رأيك في أمره يا بانزنجتن؟ بإمكانك أن تنظر إلى المسألة بموضوعية أكثر منِّي. ماذا عليَّ أن أفعل حياله؟»

«استمِرَّ في تغذيته.»

«بمادة الهرقليوفوربيا؟»

«بمادة الهرقليوفوربيا.»

«إذن سينمو.»

«وفقًا للحسابات التي يمكن أن أُجريها بناءً على نموِّ الدجاج والدبابير، سينمو حتى يصِل طوله إلى خمسٍ وثلاثين قدمًا — بقوام وأعضاء تتناسب مع هذا الحجم ...»

«وماذا سيفعل عندئذٍ؟»

فأجاب السيد بانزنجتن: «هذا هو ما يجعل الأمر برمته مُشوقًا للغاية.»

«تبًّا لذلك يا رجل! فكِّر في ملابسه، وعندما يكبَر لن يكون إلا عملاقًا وحيدًا في عالم من الأقزام.»

كانت عَين السيد بانزنجتن تبدو من خلف إطار نظارته الذهبي مُحمَّلة بالدلالات.

ردَّ على ريدوود بغموض قائلًا: «ولِماذا يكون وحيدًا؟» وكرَّرها بغموضٍ مُتنامٍ: «لماذا يكون وحيدًا؟»

«لكنك لا تقصد ...؟»

فقال بانزنجتن مَزهوًّا بنفسه كمن نطق بحِكمة مُؤثرة: «قلت: لماذا يكون وحيدًا؟»

«تعني أنَّنا قد نُنشئ أطفالًا آخرين؟»

«لا يحتمل سؤالي معنًى بخلاف ما أعنيه.»

بدأ ريدوود يسير في أرجاء الغرفة ثم قال: «بالطبع! يُمكننا أن ... لكن! ما الهدف من وراء ذلك؟»

بدا واضحًا أن بانزنجتن مُستمتع بسَمْتِه الفكري المجرد، فأردف قائلًا: «أكثر ما يُثير اهتمامي في المسألة برمَّتها يا ريدوود هو اعتقادي بأن عقل الطفل — بناء على ما تقودني إليه استنتاجاتي — سيفوق مستوانا بخمسٍ وثلاثين مرَّة ... ما الأمر؟»

كان ريدوود يقِف أمام النافذة ويُحدِّق في إعلانٍ في مُلصق إخباري على عربة صحف تُصلصل وهي تدخل الشارع.

فكرَّر بانزنجتن قوله وهو ينهض من مجلسه: «ما الأمر؟»

أطلق ريدوود صيحة ذهول عنيفة.

فقال بانزنجتن: «ماذا هناك؟»

فقال ريدوود وهو يتَّجِه نحو باب المنزل: «سأُحضر جريدة.»

«لماذا؟»

«سأحضر جريدة. شيء ما لم أفهمه جيدًا ... فئران عملاقة!»

«فئران؟»

«أجل، فئران. سكينر كان مُحقًّا رغم كل شيء!»

«ماذا تعني؟»

«كيف لي أن أعلم بحقِّ السماء ما الذي يَعنيه هذا قبل أن أقرأ جريدة؟ فئران ضخمة! يا إلهي! تُرى هل التهم أحدُهم سكينر!» ألقى نظرة خاطفة على المكان بحثًا عن قُبعته، ثم قرَّر أن يُغادر بدُونها.

استطاع وهو يُهرع هابطًا درجات السلم درجتَين درجتَين أن يسمع صياح باعة الصحف الصاخب بطول الشارع جيئةً وذهابًا وهو يدوِّي.

«حادثة مروِّعة في كِنت. حادثة مروِّعة في كِنت. طبيب تأكله الفئران ... حادثة مروِّعة ... حادثة مروِّعة ... فئران. التهمَتْه فئران هائلة الحجم. اقرأ التفاصيل كاملة. حادثة مروِّعة.»

٣

عثَر المهندس المدني الشهير كُوسَار على ريدوود وبانزنجتن في مدخل البناية الضخْم وريدوود يحمل الصحيفة الوردية الرطبة وبانزنجتن يقِف على أطراف أصابعه يقرأ الصحيفة من فوق كتِف الأخير. كان كُوسَار رجُلًا ضخم البِنية ذا أطراف نحيلة غير متناسقة يُريحها بين الحين والآخر إلى جانبٍ من جسده، ووجه كأنه لِتمثال تُرك في المراحل الأولى من نحتِه لكونه لا يستحقُّ أن يكتمل. كان أنفه مُربعًا وفكُّه السُّفلي بارزًا وله نَفَس مسموع. لم يرَه الكثيرون وسيمًا. كان شعرُه مُلتصقًا برأسه وصوته، الذي اقتصد في استهلاكه، ذا نبرةٍ عالية يشُوبها سُخط مَرير. اعتاد أن يرتدي بذلة رمادية وقبعة من الحرير في جميع المناسبات. دفع أجرة سائق العربة التي كان يستقلها ثم أقبل مالئًا جَيب سرواله العميق بكفِّه الحمراء الكبيرة وراح يصعد الدرَج بإصرارٍ لاهثًا، ممسكًا بنسخة من الصحيفة الوردية من منتصفها وكأنه يمسك بسهم.

قال بانزنجتن غير منتبه إلى اقترابه: «سكينر؟»

فأجاب ريدوود: «لم يُذكر شيء عنه. لا بدَّ أنه الْتُهِم. لا بدَّ أن كليهما الْتُهم. هذا أمر مريع ... مرحبًا! كُوسَار!»

فسأل كُوسَار ملوحًا بالصحيفة: «هذا من صنيعكما؟»

ثم تساءل بحزم: «حسنًا، لِمَ لا تضعان حدًّا لهذا؟»

وأردف قائلًا: «لا يدهشني الأمر!»

ثم صاح: «تريدان أن تشتريا المكان؟ ما هذا الهراء! أحرِقاه! كنت أعلم أنكما ستتصرَّفان بحماقة. ماذا أنتما فاعلان؟ سأقترح عليكما!

أنت؟ ماذا ستفعل؟ اسلُك الشارع حتى تصِل إلى صانع الأسلحة. لماذا؟ من أجل شراء بنادق! أجل — هناك متجر واحد فقط لها. اجلب ثماني بنادق! بواريد. لا بنادق صيد الأفيال. كلا! إنها كبيرة للغاية. ولا بواريد الجيش، فهي صغيرة جدًّا. قُل إنها من أجل قتْل — قتْل ثور. قل إنها لقتل جاموس! فهمت؟ ماذا؟ فئران؟ لا! كيف سيتفهَّمون هذا؟ ولأننا نريد ثماني بنادق، اجلب الكثير من الذخيرة. لا تأتِ ببنادق بلا ذخيرة. لا!

اجلُب الكثير منها في عربة أجرة واذهب بها إلى ... إلى أين؟ آرشوت؟ مقاطعة تشارينج كروس إذن. ثم استقلَّ قطارًا. حسنًا استقلَّ أول قطار، الذي ينطلق بعد الساعة الثانية. هل تعتقد أن بوسعك فعل هذا؟ حسنًا. تحتاج إلى ترخيص؟ اجلب ثمانية تراخيص من مكتب البريد بالطبع. تراخيص حمْل سلاح كما تعلم. لا تراخيص صيد. لماذا؟ لأنها فئران يا رجل.

وأنت يا بانزنجتن، ألديك هاتف؟ أجل. سأتصل بخمسة من رجالي من إيلينج. لِمَ خمسة؟ لأن هذا هو العدد المطلوب!

إلى أين أنت ذاهب يا ريدوود؟ تجلب قُبعتك! هُراء! خذ قُبعتي. أنت بحاجةٍ إلى بنادق يا رجل، لا قُبعات. هل معك مال؟ هل هو كافٍ؟ حسنًا. وداعًا.

أين الهاتف يا بانزنجتن؟»

فاستدار بانزنجتن مُذعنًا للأمر وقاده إلى الهاتف.

استخدم كُوسَار الهاتف، وأعاده إلى موضعه، ثم قال: «وهناك الدبابير. الكبريت ونترات البوتاسيوم سيتكفَّلان بها. لا شك في ذلك. الجصُّ الباريسي. أنت كيميائي. من أين يمكنني أن أحصل على كميات هائلة من الكبريت في جوالات يمكن حملها؟ لماذا؟ عجبًا، ليرحمني الله! لطرد الدبابير من أعشاشها بالدُّخان بالطبع! أعتقِد أنه لا بدَّ من استخدام الكبريت، أليس كذلك؟ أنت كيميائي. الكبريت هو الأفضل. أليس كذلك؟»

فقال بانزنجتن: «بلى، أعتقد هذا.»

«ليس هناك ما هو أفضل منه، أليس كذلك؟ حسنًا. هذه مهمتك. جيد. أحضِرْ أكبر قدرٍ ممكن من الكبريت، ونترات البوتاسيوم لتشتعل فيها النيران. إلى أين ترسله؟ إلى تشارينج كروس. على الفور. احرص على أنْ يفعلوا هذا. وتابِع الأمر. هل هناك شيءٌ آخر؟»

ثُم فكَّر للحظة.

«الجصُّ الباريسي، أي نوع من الجصِّ. لتدمير الأعشاش، وصنع ثقوب بها كما تعلم. من الأفضل أن آتي أنا به.»

فسأل بانزنجتن: «كم يلزمك؟»

«من ماذا؟»

«من الكبريت.»

«طن. اتفقنا؟»

فأحكم بانزنجتن وضع نظارته بيدٍ مرتعشة وأجاب باقتضابٍ شديد: «حسنًا.»

فسأله كُوسَار: «هل معك مال؟ تبًّا للشيكات. قد لا يعرفونك. ادفع نقدًا. بالطبع. أين البنك الذي تودع فيه مالك؟ حسنًا. عرِّج عليه في الطريق واجلب أربعين جنيهًا من فئة العملات المعدنية والورقية.»

وبعد لحظة أخرى من التأمُّل قال: «إن تركنا تلك المهمة للمسئولين، سنجد كِنت قد دُمِّرت. الآن هل تبقَّى شيء؟ لا! مهلًا يا هذا!»

ومدَّ يدَه الضخمة إلى سائق عربة أجرة تملَّكت سائقها لهفة عارمة لخدمته إذ قال: «عربة أجرة يا سيدي؟» فأجابه كُوسَار: «بالتأكيد.» وهبط بانزنجتن، وهو ما يزال لا يرتدي قُبعته، درجات السُّلَّم واستعد للصعود على متن العربة، لكنه التفت فجأة إلى نافذة شقته وهو يمسك بحافة العربة ثم قال: «عليَّ أنْ أُخبر ابنة عمي جين ...»

فقاطعه كُوسَار قائلًا وهو يدفعه إلى داخل العربة بكفِّه الكبيرة التي بسطها على ظهره: «سيكون أمامك مُتَّسع من الوقت لتُخبرها عندما تعود.»

ثم علَّق كُوسَار قائلًا: «رجُلان ذكيَّان، لكن روح المبادرة منعدمة لدَيهما. تريد أن تُخبر ابنة العم جين حقًّا! أنا أعرفها. ليذهب أمثالها إلى الجحيم! البلدة تعجُّ بهن. أعتقد أنه سيكون عليَّ أن أُمضي هذه الليلة اللعينة بأكملها لأتأكَّد من أنهما يفعلان ما يعلمان جيدًا أنه كان عليهما فعله منذ البداية. تُرى هل هذا صنيع الأبحاث بهما أم ابنة العم جين أم ماذا؟»

ثم صرف عن ذِهنه هذه المسألة المُعقَّدة، وتأمَّل ساعته لبرهة، ثم ارتأى أن هناك ما يكفي من الوقت للمرور بمطعمٍ وتناوُل الغداء قبل أن يبدأ رحلة البحث عن الجصِّ الباريسي ويذهب به إلى تشارينج كروس.

بدأ القطار رحلته في الساعة الثالثة وخمس دقائق ووصل كُوسَار إلى تشارينج كروس في الساعة الثالثة إلا الربع ليجد بانزنجتن يخوض جدالًا مُحتدمًا مع اثنين من رجال الشرطة وسائق عربة نقل البضائع التي استقلَّها خارج محطة القطار، فيما كان ريدوود في المكتب الخاص بأمتعة السفر مُنخرطًا في مسألة قانونية غامضة تتعلَّق بذخيرته. تظاهر الجميع بالجهل التام والافتقار إلى أي صلاحيات، كما يروق لمسئولي الشرطة في جنوب شرق البلاد أن يتظاهروا عندما يجدونك في عجلةٍ من أمرك.

فقال كُوسَار مُتنهِّدًا: «مِن المؤسف أنهم لا يستطيعون إطلاق الرصاص على كل هؤلاء الضبَّاط وإبدالهم بضباط جُدُد.» لكن قِصَر الوقت الشديد لم يكن يسمح باتخاذ

أي إجراءات مُتطرفة؛ ومن ثم خاض سريعًا هذه المجادلات التافهة، واستعان بشخص، ربما كان ناظر المحطة أو ربما لم يكن، أتى به من مخبأ غامض، وسار في أرجاء المحطة في صحبته وراح يُملي الأوامر باسمه، ثم غادر المحطة والقطار يحمل على متنِه كل الركَّاب وكل الأمتعة قبل أن يتنبَّه ناظر المحطة إلى الانتهاكات التي خرق بها أكثر القواعد واللوائح قُدسية.

قال كبير مسئولي المحطة وهو يُربِّت على ذراعه التي كان كُوسَار مُتشبثًا بها، مبتسمًا وحاجباه مُنعقدان: «من كان هذا؟»

فأجابه أحد العتَّالين: «كان من النبلاء يا سيدي على أي حال. لقد رحل هو وكل من معه على متن الدرجة الأولى.»

فقال كبير مسئولي المحطة وهو على ذراعه شاعرًا بما يُشبه الرضا: «حسنًا. لقد أنزلناه من متن القطار هو وأمتعته بخشونة بالغة — أيًّا من كان.»

وفيما هو يسير ببطءٍ عائدًا إلى مُعتزَله الفخم الذي يحتمي داخله كبار المسئولين في تشارينج كروس من إزعاج السُّوقة ولجاجتهم، وهو يطرف بعينيه تحت ضوء النهار الذي لم يعتدْه، ظلَّت ابتسامته مُرتسمة على وجهه من أثر الطاقة غير المألوفة التي شعر بها؛ كشف له ما حدث عمَّا يتمتع به من إمكانيات، وهو كَشْفٌ أشعرَه بالرضا والسرور، بالرغم من أن ذراعه كانت تُعاني التيبُّس. تمنَّى لو كان بعض هؤلاء الملعونين الذين ينتقدون إدارة السكك الحديدية وهم جالسون على الأرائك؛ حاضرًا ليرى ما أنجز.

٤

بحلول الساعة الخامسة مساءً من ذلك اليوم، كان كُوسَار المُذهِل قد جلب من آرشوت كل الأغراض اللازمة لحربه ضد الكائنات العملاقة، مُتجهًا بها إلى هيكليبراو. وصل من لندن برميلان من الكيروسين وكمية كبيرة من الأغصان الجافة كان قد ابتاعها في آرشوت كما وصل الكثير من جوالات الكبريت وثماني بنادق صيد كبيرة وذخيرتها وثلاث بنادق خفيفة تُملأ من مُؤخرتها مع ذخيرة من الطلقات النارية الصغيرة من أجل الدبابير، وفأس ومنجلان ومِعوَل وثلاثةُ جواريف وبكرتان من الحبال، وبعض زجاجات الجعة والصودا والويسكي ومائة وأربع وأربعون عبوةً تحوي سُمَّ فئران، وبعض الأطعمة الباردة التي تكفي لثلاثة أيام. كل هذه الأشياء بعثها كُوسَار بطريقةٍ عملية منظمة على متن اثنتَين من عربات نقل الفحم والتِّبن، عدا البنادق والذخيرة فقد حشرهما أسفل مقعد عربةٍ صغيرة

تابعة لشركة ريد ليون كُلِّفت بإحضار ريدوود والرجال الخمسة المُختارين الذين قدموا من إيلينج بناءً على استدعاء كُوسَار.

اتَّخذ كُوسَار كل هذه الإجراءات بسلاسةٍ تامَّة وكأنها إجراءات طبيعية، رغم أن آرشوت كانت تعيش في فزَعٍ بسبب الفئران وكان لا بدَّ من دفع مبالغ إضافية للسائقين. جميع محالِّ البلدة كانت مغلقة والشوارع شِبه خالية من المارة. ولَمَّا دقَّ كُوسَار أبواب المنازل، كانت تُفتَح نوافذها، لكن بدا أن كُوسَار اعتبر عقد الصفقات عبر النوافذ وسيلةً مشروعة وبديهية تمامًا. استقلَّ هو وبانزنجتن في نهاية الأمر عربة شركة ريد ليون الصغيرة وانطلقا بها ليلحقا بالأمتعة التي بعثها كُوسَار. نظرًا لأنهما انطلقا بعد تقاطع الطرق بقليل، فقد أمكنهم الوصول إلى هيكليبراو أولًا.

تبلورت في نفس بانزنجتن، وهو يجلس إلى جانب كُوسَار واضعًا بندقية بين ركبتَيه، دهشةٌ طال أمدُها. كان كل ما يفعلانه بلا شكٍّ — كما أكَّد كُوسَار — هو البديهي، ليس إلا! وفي إنجلترا نادرًا ما يفعل المرء ما هو بديهي. تتبَّع بنظراته كُوسَار الجالس إلى جواره، بدءًا من رِجليه إلى كفَّيه القابضتَين بجرأة على زمام الخيل. كان من الواضح أن كُوسَار لم يقُدْ عربةً من قبل؛ لذا آثر السلامة ولزم منتصف الطريق مُستعينًا بضوء مصباحٍ له كان بلا شك واضحًا لكنه قطعًا غير مُعتاد.

فكَّر بانزنجتن: «لماذا لا يفعل جميعنا ما هو بديهي؟ يا لها من نقلة سيمضي إليها العالم لو فعلنا هذا! أتساءل على سبيل المثال لماذا لا أفعل الكثير من تلك الأشياء التي أعلم أنه لا بأس من فعلها — الأشياء التي أودُّ فعلها. هل الجميع كذلك، أم أن تلك هي حالي أنا فقط!» استغرق في تأمُّلات مُحيِّرة عن مفهوم الإرادة وفكر في العبثيَّات المُعقدة والمنظمة التي نُمارسها في حياتنا اليومية، وفي المقابل، الأشياء الواضحة والبديهية، والسارَّة الرائعة التي يمكن فعلها، والتي لن تسمح بفعلها أبدًا بعض المؤثرات المُستعصية على الفهم. ماذا عن ابنة العمِّ جين؟ رأى بانزنجتن أنها تلعب دورًا هامًّا في المسألة، على نحوٍ خفي ومعقد نوعًا ما. لِمَ عليه، برغم كل شيء، أن يأكل وينام ويشرب ويظلَّ أعزب ويذهب إلى مكانٍ ما ويمتنع عن الذهاب إلى آخر مُراعاةً لرغبات ابنة العمِّ جين؟ لقد أصبحَتْ جين رمزًا لشيءٍ ما لم يفهمه قط!

لفت انتباهه مرقًى لعبور سور وممر بين الحقول ذكَّره بذاك اليوم المشرق، القريب زمانًا، البعيد حالًا، عندما سار من آرشوت إلى مزرعة التجارب ليرى الأفراخ العملاقة.

القَدَر يلعب معنا.

قال كُوسَار: «بانزنجتن، بانزنجتن. انهض.»

كان الجوُّ حارًّا عصر هذا اليوم؛ فقد سكنت الرياح تمامًا، وغطت الشوارع طبقةٌ سميكة من الأتربة. لم يكن هناك إلا القليل من الأشخاص بالجوار، فيما كانت الأيائل ترعى خلْف سياج المُتنزَّه في سكينةٍ تامة. رأى بانزنجتن وكُوسَار زوجَين من الدبابير العملاقة خارج هيكليبراو ينزعان عن أجمةٍ مشمشٍ أوراقها، ودبورًا آخر يتسلق واجهة مَتجر بقالة صغير بشارع القرية صعودًا وهبوطًا مُحاولًا العثور على منفذٍ إليه. كان البقَّال ظاهرًا بالكاد للعيان داخل المتجر وهو يُمسك ببندقية صيد طيور عتيقة في يده ويُراقب محاولات الدبور الحثيثة. أوقف سائق عربة الذخيرة الصغيرة عربته خارج نزل جولي دروفرز وأخبر ريدوود بأن دوره في الصفقة قد انتهى. وفي غمرة هذا الجدَل الذي شبَّ انضمَّ إليه على الفور سائق عربة الفحم وسائق عربة التِّبن، ولم يُصرُّوا على موقفهم وحسب، بل رفضوا أيضًا أن يسمحوا لهما باصطحاب الجياد أبعدَ من ذلك.

ظلَّ سائق عربة الفحم يُردد: «هذه الفئران الكبيرة تعشق لحم الجياد.»

فتأمَّل كُوسَار هذا الجدال للحظة.

ثم قال: «أخرجوا ما بالعربة الصغيرة.» فأطاعه واحدٌ من رجاله، وكان مهندسًا طويلًا أشقر رثَّ الهيئة.

قال له كُوسَار: «أعطني هذه البندقية.»

ثم وقف بين السائقين وقال: «لا نريدكم أن تقودوا لنا العربات.»

ثم قال مُسلِّمًا بالأمر: «بإمكانكم أن تقولوا ما تشاءون، لكننا نريد هذه الجياد.»

فأخذوا في التجادُل، لكنه واصل حديثه.

«إنْ حاولتم الاعتداء علينا سأطلق الرصاص على أرجُلكم دفاعًا عن النفس. ستمضي الجياد قدمًا.»

تعامل كُوسَار مع الأمر باعتباره قد حُسِم، فقال لرجلٍ غليظ البِنية مفتول العضلات: «اصعد العربة يا فلاك.» ثم أردف: «خُذ عربة الفحم يا بون.»

صاح السائقان في ريدوود مُتوعِّدَين.

قال ريدوود: «لقد أدَّيْتم واجبكم نحو من استأجرَكم. امكُثُوا بهذه القرية إلى أن نعود. لن يلومكم أحدٌ. بما أننا نحمل الأسلحة، لا ننوي ارتكاب أي فعل جائر أو عنيف، لكن هذه مسألة مُلحَّة. سأتكفَّل بدفع التكاليف إنْ لحِق بالجياد مكروه، فلا تخشَوا شيئًا مُطلقًا.»

فأردفَ كُوسَار الذي كان نادرًا ما يُقدِّم وعودًا: «لا بأس.»

تركوا عربة الذخيرة خلفهم وسار كل من لا يقود عربة على قدميه، وقد حمل كل رجلٍ على كتِفه بندقية. كانت تلك أغرب رحلة استكشافية صغيرة يشهدها طريق وسط الريف الإنجليزي؛ كانت أشبهَ برحلةٍ يقوم بها بعض أبناء الشمال الأمريكي في أيام قبائل الهنود الحمر الخوالي.

ساروا قُدمًا إلى أن بلغوا قمَّة التل بجوار السور ورأَوْا على مرمى البصر مزرعة التجارب، حيث وجدوا مجموعةً صغيرة من الرجال يحملون البنادق أو ما شابهها — ومن بينهم السيد فولتشر الأكبر وفولتشر الأصغر — ورجُلًا غريبًا من ميدستون يقف أمام الباقين وهو يتأمَّل المزرعة عبر منظار.

التفت هؤلاء الرجال وحدَّقوا في مجموعة ريدوود.

سألهم كُوسَار: «هل من جديد؟»

فأجابه فولتشر الأكبر: «ما تزال الدبابير تغدو وتروح. لا يسعُنا أن نرى إن كانت تجلب شيئًا.»

ثم قال الرجل المُمسك بالمنظار: «نبات الكناري الزاحف صار بين الأشجار الصنوبرية الآن. لم يكن هناك هذا الصباح. بإمكانك أن تلحظ نموَّه أثناء مُشاهدته.»

ثم أخرج منديلًا ومسح عدسات منظاره بعنايةٍ شديدة.

غامر سكيلمرزديل قائلًا: «أظنُّكم ستهبطون إلى هناك.»

فقال كُوسَار: «هل ستأتي معنا؟»

فبدا على سكيلمرزديل التردُّد.

فأردف كُوسَار: «إنها مهمة تمتدُّ طوال الليل.»

فقرر سكيلمرزديل ألا يذهب.

تساءل كُوسَار: «هل هناك فئران بالجوار؟»

فأجابته المجموعة: «نعتقد أنَّ أحدها صعد إلى الغابة الصنوبرية هذا الصباح، يصطاد الأرانب حسبما نظن.»

أسرع كُوسَار ليلحق بمجموعته.

لَمَّا نظر بانزنجتن إلى مزرعة التجارب التي يمتلكها، أمكنه أن يُدرك قوة فاعلية طعام الآلهة. كان انطباعه الأول هو أنَّ المنزل بدا أصغر كثيرًا مما كان يحسب. وبعدَها شعَر أن النباتات الواقعة بين المنزل والغابة الصنوبرية قد غدَتْ جميعها في غاية الضخامة، حتى

إن السقيفة القائمة فوق البئر ظهرت على استحياء من بين كُتَلٍ كثيفة من الحشائش بلغ طُولها ثماني أقدام. بالنسبة إلى نبات الكناري الزاحف، فقد التفَّ حول مدخنة المنزل وراح يُلوِّح بمحاليقه القاسية نحو السماء. كانت زهوره تبدو كبُقَع صفراء فاقعة، برزت بوضوحٍ كنقاط مُستقلة على امتداد الميل الذي فصل بينهم وبين المزرعة. لمح بانزنجتن ذراعًا خضراء غليظة تتلوَّى عبر السور الشائك الكبير الذي يُطوِّق حظيرة الدجاج العملاق دافعةً بسيقانٍ مُورِقة مُلتفَّة حول شجرتَي صنوبر عظيمتين. نما أيضًا بُستان من نباتات القراص، لا يقلُّ طولها عن أربع أقدام، وقد امتدَّت مُطوقةً السقيفة التي تُخزَّن بها عربات الخيل. مع اقترابهم من المزرعة، بدا المشهد أكثر فأكثر وكأنه هجوم لمجموعةٍ من الأقزام على بيتٍ للدُّمى تُرِك في ركن مهجور من حديقة شاسعة.

لاحظوا حركة الدبابير الدءوبة جيئةً وذهابًا من عُشِّها وقد تداخلت ظلالها السوداء وهي تطير أسرابًا في الهواء فوق التل البُنِّي الضارب إلى الحمرة خلف أشجار الصنوبر، بينما يندفع بين الفينة والفينة واحد منها في السماء بسرعة رهيبة ليُحلق بعيدًا خلف فريسةٍ ما. تنامى صوت طنينها إلى أن أصبح مسموعًا على بُعد أكثر من نصف ميل من المزرعة. فوجئ كُوسَار ورجاله بدبور ذي خطوطٍ صفراء يهبط دانيًا منهم ثُمَّ يرفرف في الهواء لبرهة وهو يتأمَّلهم بعينَيه الكبيرتين المُركبتَين، لكنه سرعان ما اندفع مبتعدًا لما أطلق كُوسَار طلقة لم تُصبه. في ركن أقصى يمين المزرعة، راحت عدة دبابير تزحف حول بعض العظام البالية التي كانت على الأرجح بقايا لحمَلٍ جلبته الفئران من مزرعة هاكستر. اضطربت الجياد وهي تقترِب من تلك الكائنات. ولَمَّا لم يكن أي من الرجال خبيرًا في ركوب الخيل، اضطروا إلى تكليف رجل بقيادة كل حصان وتشجيعه بصوته.

لم يجدوا أثرًا للفئران وهم يتَّجهون صوب المنزل، وخيَّم السكون تمامًا على كل شيء فلم يُسمع سوى طنين الدبابير من أعشاشها وهو يعلو وينخفض.

قاد الرجال جيادَهم إلى فناء المنزل، ولَمَّا رأى أحد رجال كُوسَار باب المنزل وقد نُخِر الجزء الأوسط منه دلف منه إلى الداخل. لم يلحظ أحد غيابه حينها؛ إذ كانوا مُنشغلين ببراميل الكيروسين، وأول ما نبَّههم إلى غيابه كان صوت بندقيته وأزيز رصاصته. طاخ! طاخ! دوى الرصاص من كلتا ماسورتَي بندقيته واخترقت رصاصته الأولى على ما يبدو برميل الكبريت الخشبي فحطَّمَت إحدى قوائمه من الناحية الأخرى منه وملأت الهواء بغبارٍ أصفر. كان ريدوود بدَوره قد أبقى سلاحه في يده وأطلق الرصاص على شيءٍ رمادي اللون قفز بجواره؛ لمح ساقًا خلفيةً كبيرة، وذيلًا حرشفيًّا طويلًا وباطن قدمَين

خلفيتَين طويلتَين لفأر، فأطلق رصاص ماسورة بندقيته الثانية، ورأى بانزنجتن يهوي والفأر يختفي في إحدى زوايا المكان.

انشغل الجميع لبُرهة ببنادقهم، ولثلاث دقائق بدا ثمن الأرواح بخسًا بمزرعة التجارب، وملأ صوت دويِّ البنادق الهواء. هُرِع ريدوود في غمرة حماسته خلف الفأر غير مُبالٍ بما أصاب بانزنجتن، فارتطم رأسه في كَومةٍ من الطوب المتكسِّر والملاط والجبس وألواح خشبية متكسرة ومتعفنة اندفعت نحوَه مع اختراق رصاصة للجدار.

وجد نفسه يجلس على الأرض والدماء تُغطي يديه وشفتَيه، وقد أطبق صمتٌ شديد على كلِّ ما حوله.

بعدها علا صوتٌ رتيب من داخل المنزل: «يا للهول!»

فنادى ريدوود: «مرحبًا!»

فأجاب الصوت: «مرحبًا بك!»

ثم أردف: «هل نِلتُم منه يا رفاق؟»

هنا تنبَّه ريدوود إلى ما تُحتِّمه عليه صداقته لبانزنجتن، فسأل: «هل تأذَّى السيد بانزنجتن؟»

لم يسمعه الرجل الذي بداخل المنزل جيدًا، لكنه قال: «إن كان هناك مَلوم فهو أنا وحدي.»

اتَّضح لريدوود أنه قد أصاب بانزنجتن بلا شك، فتناسى جراح وجهه ونهض عائدًا إلى بانزنجتن ليجده جالسًا على الأرض يمسح كتِفه، فتطلَّع إليه الأخير من خلف نظارته وقال: «لقد أمطرناه بالرصاص يا ريدوود.» ثم أردف: «لقد حاول أن يقفز عليَّ، وطرَحَني أرضًا، لكنني أصبتُه بكلتا ماسورتَي بندقيتي. يا إلهي! كم آذى هذا كَتِفي حقًّا!»

ظهر رجل عند مدخل المنزل وقال: «لقد أصبتُه مرة في صدره ومرة أخرى في جنبه.»

فسأل كُوسَار وهو يبرُز من وسط دغلٍ من أوراق الكناري الزاحف العملاقة: «أين العربات؟»

اتضح بادئ ذي بدء — وهو ما أدهش ريدوود — أن أحدًا لم يُصَب، وثانيًا أن عربة الفحم وعربة التِّبن قد تحرَّكتا خمسين ياردة، وصارتا تقفان وقد تشابكت عجلاتهما بين متاهات حديقة خضراوات سكينر المُتشابكة. كانت الجياد قد توقَّفت عن الوثْب وأمامهم برميل الكبريت الذي انفجر مطروحًا على الأرض وتعلوه سحابة من الغبار. أشار ريدوود إلى كُوسَار بهذا وسار نحوَ البرميل، فصاح الأخير وهو يتبعه: «هل رأى أحدكم هذا الفأر؟ لقد أصبتُه بين ضلوعه مرة ومرة في وجهه وهو يستدير نحوي.»

انضمَّ إليهما رجلان فيما هما يقفان عند عجلات العربات المتشابكة يُحاولان إصلاحها.

قال أحدهما: «لقد قتلتُ هذا الفأر.»

فسأل كُوسَار: «هل عثروا على جُثَّته؟»

فأجاب الرجل: «جيم بيتس عثر عليه خلف السياج. أرديتُه وهو ينعطف عند الركن بالضبط ... أصبته خلف كَتِفه ...»

عندما صفَتِ الأجواء قليلًا عاد ريدوود وحدَّق في جثة ذلك المسخ الضخمة. كان الفأر مُمددًا على جانبه وجسده مُنحنٍ قليلًا، وأسنانه القارضة التي تبرُز من فكِّه السُّفلي المتراجع إلى الخلف جعلت وجهه يُوحي بالوهن الشديد والفتور. لم يبدُ على الإطلاق متوحشًا أو مُخيفًا. ذكَّرتْ يداه الأماميتان ريدوود بأكُفِّ الفقراء الهزيلة الضاوية. لم يُصَب الفأر إلا بثقبٍ صغير مُستدير ذي حافة مُحترقة على كلا جانبي رقبته. فكَّر ريدوود في هذا لبعض الوقت ثم قال آخِر الأمر وهو ينصرف: «لابد أنه كان هناك فأران.»

فقال أحدهم: «أجل، والفأر الذي أصبناه جميعًا فر.»

فقال آخر: «أنا مُوقن من أن رصاصتي ...»

في الوقت نفسه انحنى نحوَ رقبته أحدُ محاليق نبات الكناري الزاحف، في بحثه الغامض عن شيء يتشبَّث به، مما جعل الرجل يبتعد بسرعة.

وتنامى طنين من عش الدبابير البعيد: «هووززززززز، هووززززززز.»

٥

تركت هذه الواقعة الجمْعَ في حالةٍ من الترقب، لكنهم حافظوا على رَباطة جأشِهم.

أدخلوا أغراضهم إلى المنزل الذي خرَّبتْه الفئران بعد فرار السيدة سكينر، واقتاد أربعةٌ من الرجال الحصانين عائدين إلى هيكليبراو. سحب الرجال الفأر الميِّت عبر السياج إلى موضعٍ تطلُّ عليه نوافذ المنزل، وصادفوا في طريقهم مجموعة من حشرات أبي مقص العملاقة في مصرف المزرعة. انتشرت هذه الحشرات سريعًا لكن كُوسَار أدرك عددًا لا يُحصى منها واستطاع أن يقتل العديد منها بحذائه ومُؤخرة بندقيته. شقَّ بعدَها رجلان طريقهما وهما يبتران العديد من سيقان نبات الكناري الزاحف — سيقان أسطوانية ضخمة يبلغ قطرها قدمَين وقد برزت بالقُرب من البالوعة في الخلف. وفيما كان كُوسَار يُهيئ المنزل للمبيت به ليلًا، جال بانزنجتن وريدوود وأحد مساعدي الكهربائي بحذَرٍ بالقرب من حظائر الدجاج بحثًا عن جحور الفئران.

داروا عن بُعد حول نباتات القراص العملاقة، فقد كانوا عرضةً للوَخْز بأشواكها السامَّة التي بلغ طول الواحدة منها بوصة كاملة. وما إن عبروا المرقى المنخور والمُحطَّم حتى فوجئوا بمنفذٍ كبير عميق يؤدي إلى جُحر للفئران العملاقة واقع أقصى غرب المزرعة. انبعثت من جوفه السحيق رائحة نتنة دفعتهم إلى الاصطفاف معًا.

قال ريدوود وهو ينظر إلى السقيفة التي تعلو بئر المزرعة: «آمل أن تخرج.»

فقال بانزنجتن وقد بدا عليه الاستغراق في التفكير: «إن لم تفعل ...»

فاستغرق الجميع في التفكير لبرهة.

فبادر ريدوود قائلًا: «سيتعيَّن علينا أن نصنع وهَجًا إذا دخلنا.»

سلكوا طريقًا قصيرًا تفترشه الرمال البيضاء عبر الغابة الصنوبرية، ثم سرعان ما توقَّفوا وجحور الدبابير على مرمى أبصارهم.

كانت الشمس بحلول هذا الوقت تغرُب، وطفقت الدبابير تعود إلى أعشاشها لتمكُث بها وأجنحتها ترفرف تحت ضوء الشمس الذهبي صانعة هالات دوارة حولها. أمعن الرجال الثلاثة النظر من تحت الأشجار— إذ لم يريدوا التوجُّه مباشرة إلى أطراف الغابة — وشاهدوا تلك الحشرات الهائلة تهبط وتزحف لبرهة ثم تدخل إلى أعشاشها وتختفي داخلها. قال ريدوود: «ستسكُن الدبابير في غضون ساعتَين من الآن ... وكأنَّني عُدت إلى الصبا من جديد.»

قال بانزنجتن: «علينا ألَّا نفقد أثر تلك الجحور، حتى إنْ حلَّ الظلام، بالمناسبة، فيما يتعلق بهذا الضوء.»

فقال الكهربائي: «القمر مُكتمل الليلة. لقد تحرَّيتُ الأمر.»

عادوا وتشاوروا في الأمر مع كُوسَار.

قال كُوسَار إنه من البديهي أنَّ عليهم جلب الكبريت ونترات البوتاسيوم والجص الباريسي عبر الغابة قبل مَغيب الشمس؛ ومن ثمَّ أنزلوا حمولاتهم على دفعاتٍ وحملوا الجوالات. بعد أن تصايَحوا ليُخبروا بعضهم بخطِّ سيرهم، لم ينبسوا بكلمة، وبعدما خفَتَ صوت الدبابير، بدا العالم مُغرقًا في سكونٍ تامٍّ لم يقطعه إلا وقْع أقدامهم، وأنفاسهم اللاهثة، وصوت ارتطام أحمالهم. تناوبوا الأدوار في حمل تلك الجوالات عدا بانزنجتن الذي كان من الواضح أنه غير مُلائم لهذه المهمة؛ لذا فقد اتَّخذ موقعه في غرفة نوم آل سكينر حاملًا بندقية ليراقِب جثة الفأر الميت. أما الباقون فتناوبوا الأدوار في حمل الأحمال ومراقبة جحور الفئران أزواجًا من خلف دغل نباتات القراص. كانت أكياس لقاح نبات القراص

قد نضِجَت، وكان القائمون على الحراسة الليلية يفاجَئُون بين الفينة والأخرى بصوتِ تفجُّر هذه الأكياس، والذي يُشبه بالضبط صوت فرقعة الرصاص، وتساقُط حبَّات لقاح بحجم طلقات الرصاص مُطقطِقة على الأرض من حولهم.

جلس السيد بانزنجتن قُرب النافذة على مقعدٍ ذي ذراعين مَحشوٍّ بشَعر الخيل، يُغطي ظهره غطاءٌ مُتسخ أضفى لسنواتٍ لمسةً من الرُّقي الاجتماعي على غرفة جلوس آل سكينر. ظلت بندقيته غير المألوفة بالنسبة إليه مُستندةً إلى النافذة وراح يتأمَّل بنظارته جثة الفأر الميت الداكنة تحت ضوء الغسَق الداكن حينًا ويجُول بنظره متأملًا ما حوله في فضول حينًا آخر. انبعثت من الخارج رائحة كيروسين خفيفة؛ إذ تسرَّب بعضٌ منه من أحد البراميل، واختلطت برائحة ليست كريهة بالقدْر نفسه انبعثت من أجزاءٍ مَبتورة ومُهشمة من نبات الكناري الزاحف.

عندما أدار بانزنجتن رأسه داعبَ أنفَه خليط من الروائح المنزلية الخافتة؛ جعة وجبن وتفاح مُتعفن وحذاء قديم، كلها تفوح بذكريات آل سكينر المُختفين. تأمَّل الغرفة المعتمة بحثًا عن فراغ. كانت قِطَع الأثاث مُبعثرةً تمامًا — ربما بفعل فأر فضولي — لكنَّ معطفًا على شماعة فوق الباب وموسًى وبعض قصاصات الورق المُهترئة وقطعة من الصابون التي تحجَّرت بفعل سنوات من عدم الاستعمال فتحولت إلى مُكعب صُلب، تفوح جميعها بشخصية سكينر المميزة. خطر ببال بانزنجتن خاطر لم يُساوِره من قبل قط؛ لقد قُتِلَ الرجل وأُكِل على الأرجح، بعضه على الأقل، على يد الوحْش الذي يرقد الآن ميتًا في الظلام.

وفكَّر في كل تلك التَّبِعات التي قد يُسفر عنها اكتشافٌ كيميائي يبدو في ظاهره غير ضار!

فقد كان في وطنه إنجلترا لكن يُحدِق به خطر لا يعلم مداه، يجلس وحيدًا مُمسكًا ببندقية في منزلٍ مُظلم مُحطَّم، بعيدًا عن كل أسباب الراحة، وكتفه مُتورمة بشدَّة بسبب ارتداد البندقية فجأة و... يا إلهي!

استوعب الآن كيف تغيَّر نظام الكون تغيرًا جذريًّا بالنسبة إليه. وها قد أتي من فَوره ليشهدَ هذه التجربة العجيبة دون أن يتفوَّه بكلمة لابنةِ عمِّه جين!

ماذا عساها أن تظنَّ به؟

حاول بانزنجتن أن يتصوَّر لكن لم يستطع. لقد استولى عليه إحساس غريب بأنهما قد افترقا إلى الأبد ولن يلتقِيا ثانية أبدًا. شعر أنه اتَّخذ خطوة أدخلته إلى عالمٍ ذي أبعادٍ

جسيمة لا عهد له بها. أيُّ وحوش أخرى قد تتكشَّف عنها هذه الظلال المُوغلة في الظلمة؟ برزت أطراف نبات القراص العملاق بِحدَّتها ولونها الأسود في مقابل سماء الغروب بلونَيها الأخضر والكهرماني الباهتَين. كان كلُّ شيء ساكنًا تمامًا؛ ساكنًا تمامًا بالفعل. تساءَل بانزنجتن لِمَ لَا يسمع أصوات رفاقه في الناحية الأخرى من المنزل؟ استحالت الظلال داخل سقيفة العربات ظلمةً حالكة الآن.

طاخ ... طاخ ... طاخ.

سُمِع دويٌّ وصراخ.

ثم ساد صمتٌ طويل.

ثم دويٌّ وأصداء خفتَتْ تدريجيًّا.

ثم سكون.

بعدها، ولحُسن الحظ، خرج ريدوود وكُوسَار من الظلام الدامس بينما كان ريدوود يصيح: «بانزنجتن!»

«بانزنجتن! لقد أوقعْنا بفأرٍ آخر!»

«لقد قَتل كُوسَار فأرًا آخر!»

٦

عندما انتهت الحَملة من أخْذ قسطها من الراحة، كان الليل قد أرخى سُدوله كاملةً. كانت النجوم في ألمع حالاتها، وتنامى شحوبٌ في السماء صَوب بلدةِ هانكي إيذانًا بقُرب سطوع القمر. ظل الرجال يراقبون جُحور الفئران، لكنهم انتقلوا إلى مُنحدر التلِّ الذي يعلو الجحور باعتباره مَوقعًا أكثر أمانًا لإطلاق النار. جلسَ القائمون على الحراسة القرفصاء وسط الندى الكثيف، يُقاومون الرطوبة بشُرب الويسكي، أما الباقون فمكثوا داخل المنزل، وناقش القادةُ الثلاثُ المهامَّ الليلية مع الرجال. ارتفع القمر بحلول منتصف الليل، وما إن علا مُبتعدًا عن التلال حتى انطلقوا، عدا حرَّاس جحور الفئران، في صفٍّ واحد بقيادة كُوسَار مُتوجِّهين نحو وكر الدبابير.

فيما يتعلق بوكر الدبابير، وجدت المجموعة مهمتها سهلةً بصورة استثنائية — سهلة على نحوٍ مدهش. فبِخلاف أنَّ الأمر تطلب وقتًا أطول، لم يكن الوكر يفُوق في خطورته أيَّ وكرٍ عادي آخر. كان ثَمَّ خطرٌ يهدد الحياة بلا شك، لكنه لم يُطلِل برأسه أبدًا من

جانب ذلك التل الضخم. شرع الرجال في حشوِ الوكر بالكبريت والنترات وسدُّوا الفتحات تمامًا، وأشعلوا فتيل البارود، ثم استدار الجميع عدا كُوسَار وركضوا مُتجاوزين ظلال أشجار الصنوبر الطويلة، وبعد أن وجدوا كُوسَار واقفًا لم يتحرك توقفوا جميعًا على بُعد مائة ياردة، قُرب خندق يوفر الحماية. عجَّت الليلة القمرية المضيئة، التي سادها اللونان الأبيض والأسود، لدقيقةٍ أو اثنتَين بأزيز الدبابير المُختنقة الذي تعالى ليتحوَّل إلى زئيرٍ عميق بلغ ذُروته ثُم تلاشى، ثم عادت الليلة ساكنة وكأنَّ شيئًا لم يكن.

قال بانزنجتن فيما يُشبه الهمس: «يا إلهي! لقد تم الأمر!»

وقف الجميع في ترقُّب. وبدا جانب التلِّ أعلى ظلال أشجار الصنوبر مُضيئًا كما النهار وشاحبًا كما الجليد. ولمع الجصُّ الموضوع في الفتحات بشدة. رأوا ظلَّ كُوسَار مُقبلًا نحوَهم.

ابتدر كُوسَار قائلًا: «إلى الآن ...»

كراك ... طاخ!

سُمِع دويُّ طلقٍ ناري من مكانٍ قريب من المنزل ثم عاد الهدوء.

تساءل بانزنجتن: «ما هذا؟»

ردَّ أحد الرجال مقترحًا: «أخرج أحد الفئران رأسه.»

قال ريدوود: «بالمناسبة لقد تركْنا بنادقنا هناك.»

«بجانب الجِوالات.»

بدأ الجميع يسيرون باتجاه التلِّ من جديد.

قال بانزنجتن: «إنها الفئران بالتأكيد.»

قال كُوسَار وهو يعَضُّ أظافره: «على ما يبدو.»

طاخ!

قال أحد الرجال «مرحبًا!»

وفجأة سُمعت صيحة، وطلقتان ناريَّتان؛ صيحة عالية تكاد تكون صراخًا، وثلاث طلقات في تتابُعٍ سريع وتحطم لوح خشبي. كل هذه الأصوات كانت واضحةً تمامًا وصغيرة جدًّا بالنسبة إلى هدوء الليل. ثم مرَّت بضع لحظات لم يُسمع خلالها إلا ضجيجٌ مكتوم ناحية جُحور الفئران، ثم سُمعت صيحة هائجة مرة أخرى ... لم يشعر الرجال بأنفسهم إلا وهم يُهرعون نحوَ بنادقهم.

سُمعت طلقتان ناريَّتان.

ووجد بانزنجتن نفسه مُمسكًا بالبندقية يجري مُسرعًا عبر أشجار الصنوبر بعد التقهقُر عدَّة مرات. الغريب أن الفكرة التي سيطرت على عقله حينها هي الرغبة في أن تراه ابنة عمِّه جين. انطلق حذاؤه المشقوق المُنتفخ في خطواتٍ جامحة، وكان وجهه قد ارتسمتْ عليه بسمة دائمة؛ إذ ساعدت هذه الابتسامة على تجعُّد أنفه وثَبات نظارته في مكانها. وجَّه بانزنجتن فوهة بندقيته إلى الأمام وهو يركض تحت ضوء القمر. بينما هم يركضون قابلَهم الرجل الذي هرب وهو يُهرع بأقصى سرعة، وكان قد ألقى بندقيته.

بادَرَه كُوسَار وهو يتلقَّاه بين ذراعَيه: «مرحبًا. ما هذا؟»

ردَّ الرجل: «لقد خرجت معًا.»

«الفئران؟»

«نعم، ستَّة منها.»

«أين فلاك؟»

«أُصيب.»

أقبل بانزنجتن لاهثًا وسأل كُوسَار: «ماذا قال؟»

«أُصيب فلاك؟»

«لقد سقط.»

«لقد خرجت واحدًا تلوَ الآخر.»

«ماذا؟»

«لقد أقبلت مُسرِعة. أطلقتُ كلتا الطلقتَين أولًا.»

«تركتَ فلاك؟»

«لقد هاجمتنا.»

ردَّ كُوسَار: «تعال. تعال معنا. أين فلاك؟ أرِنا.»

تقدَّمَت المجموعة كلها إلى الأمام، وأخذ الرجل الهارب يقصُّ المزيد من تفاصيل الهجوم، فتجمَّع الآخرون حوله إلا كُوسَار، فقد مضى قُدمًا.

«أين هي؟»

«ربما عادت إلى جُحورها. لقد هربتُ في البداية، ثم انطلقتُ نحو جحورها.»

«ماذا تعني؟ هل تعقَّبتمُوها؟»

«لقد دَنَونا من جُحورها ورأيناها تخرج فحاولنا مُحاصرتها. كانت تثب كالأرانب، فركضْنا وأطلقنا عليها نيران بنادقنا، فهاجت وماجت وراحت تركض في كل مكانٍ بعد أول طلقة، ثم توجَّهت نحوَنا فجأة. لقد حملت علينا حملةً شرسة.»

«كم عددها؟»

«ستَّة أو سبعة.»

قاد كُوسَار المسير إلى حدود غابة الصنوبر وتوقَّف.

سأل أحدهم: «أتعني أنها قتلت فلاك؟»

«كان أحدُها يُطارده.»

«ألم تُطلق النار؟»

«وكيف عساني أن أفعل ذلك؟»

ردَّ كُوسَار مُلتفتًا إليهم: «كلُّ الأسلحة مُعمَّرة؟»

سرَتْ بينهم إيماءة دالَّة على الإيجاب.

قال أحدهم: «لكن فلاك ...»

وقال آخر: «أتعني أن ... فلاك ...»

قال كُوسَار مُقاطعًا: «لا وقتَ لنُضيعه.» ثم صاح مُناديًا: «فلاك!» وهو يقود المسير. تقدَّمَت القوة كلها باتجاه الجُحور، وبقِيَ الرجل الهارب قرب المؤخرة بقليل. تقدَّموا عبر الحشائش الكريهة الرائحة المُفرطة الضخامة مارِّين بجسد فأرٍ نافق آخر. اصطفَّ الرجال في صفٍّ مُنحنٍ، وكل منهم يُصوِّب بندقيته إلى الأمام، وبحثوا حولهم في ضوء القمر الساطع عن أيِّ جسدٍ مُكوَّم ينذر بالشؤم، عن أي جسد جاثم. لم يجدوا إلا بندقية الرجل الذي هرب إليهم سريعًا.

صاح كُوسَار مُناديًا: «فلاك! فلاك!»

تطوَّع الرجل الهارب قائلًا: «لقد ركض مُتجاوزًا نبات القراص ثم سقط.»

«أين؟»

«هناك تقريبًا.»

«أين سقط؟»

تردَّد ثم قادهم عبر الظلال لبرهة ثم التفتَ وقال مُخمِّنًا: «هنا على ما أظن.»

«حسنًا، إنه ليس هنا الآن.»

«لكن بندقيته ...؟»

ردَّ كُوسَار: «اللعنة! ما الذي حدث؟» وسار بضع خطوات باتجاه الظلال التي تُغطي الجحور على جانب التلِّ ووقف مُحدِّقًا، ثم تفوَّه بالسباب ثانيةً وقال: «إن كانت قد سحبته إلى الداخل ...»

وقف الجمع يتبادلون أفكارًا غير مُكتملة، وراحت نظَّارة بانزنجتن تُومض كالألماس وهو ينتقِل بنظره من رجلٍ إلى آخر. تبدَّلت وجوه الرجال من الوضوح الجافِّ إلى الغموض المُبهَم وهي تلتفتُ باتجاه القمر أو تتحوَّل عنه. تحدَّث الجميع، لكن لم يُكمل أحدهم جملة واحدة. ثم قطع كُوسَار هذه الحيرة وحسم أمره. راح يلوِّح بكفَّيه ويصدر أوامره. كان من الواضح أنه يحتاج إلى مصابيح. تحرَّك الجميع عدا كُوسَار نحو المنزل.

سأل ريدوود: «أستدخل إلى الجحور؟»

ردَّ كُوسَار: «بالطبع.»

كرَّر كُوسَار أوامره مرة أخرى بأن يُؤتى إليه بمصابيح عربة الخيل وعربة الفحم.

استوعبَ بانزنجتن ما قيل ثم انطلق على الطريق المُجاور للبئر. التفتَ ونظر خلفه فرأى كُوسَار بهيئته الضخمة يقف كما لو كان يتأمل الجحور بإمعان. توقف بانزنجتن لَمَّا رأى ذلك لبرهة والتفتَ نصف التفافة. لقد كانوا جميعًا يتركون كُوسَار.

كان كُوسَار قادرًا على الاعتناء بنفسه، بالطبع!

عندَها لمح بانزنجتن شيئًا جعله يصيح: «انتبه!» وخلال ثانية ظهر ثلاثة فئران من بين أجمة الكناري الزاحف واتجهت صَوب كُوسَار. وقف كُوسَار لثلاث ثوانٍ غير مُدرك لوجودها، ثم انتبه بعدَها وانتابته فَورة من النشاط حتى يُخيَّل إليك أنه أنشط رجل في العالم. لم يطلق النار من بندقيته. من الواضح أنَّ الوقت لم يسمح له بالتصويب أو التفكير في التصويب؛ رآه بانزنجتن وهو يتفادى فأرًا مُنقضًّا ثم يضرب مُؤخرة رأسه بعَقِب بندقيته. قفز الوحش قفزةً واحدة وسقط صريعًا.

هوى جسد كُوسَار مُختفيًا عن الأنظار بين الحشائش الكثيفة، ثم نهض ثانيةً وجرى باتجاه فأرٍ آخر رافعًا بندقيته إلى الأعلى. التقطت أُذنا بانزنجتن صرخةً خافتة، ثم رأى الفأرين الباقِيَين يفرُّ كلٌّ منهما في اتجاه وكُوسَار يُطاردهما صوبَ الجحور.

كان الأمر كله يجري بين الظلال الضبابية؛ كان حجم الوحوش الثلاثة مُفرطًا وزائدًا عن الحجم الحقيقي نظرًا لخداع الضوء الساطع. بدا كُوسَار في بعض اللحظات عملاقًا وفي بعضها الآخر غيرَ مرئي، وكانت الفئران تمرُق أمام الناظر بقفزاتٍ غير متوقعة، أو تركض بسرعة فائقة وكأنها تجري على عجلات. انتهى الأمر في نصف دقيقة، ولم يشهدْه أحد سوى بانزنجتن. استطاع أن يسمع الآخرين من ورائه وهم يتقهقرون نحوَ المنزل، فصاح بشيءٍ غير مفهوم ثم جرى عائدًا إلى كُوسَار، بينما اختفَتِ الفئران.

وصل بانزنجتن إلى كُوسَار خارج الجحور، وكانت الظلال المُوزَّعة على وجه كُوسَار تحت ضوء القمر مُوحيةً بالسَّكينة. قال كُوسَار: «أهلًا. عدت بالفعل؟ أين المصابيح؟ لقد عادت جميعًا الآن إلى جحورها. كسرتُ عنق أحدها وهو يمرُّ بي ... أترى؟ هناك!» وأشار بإصبع نحيلة.

أعجزَتِ الدهشة بانزنجتن عن الحديث.

بدا أن المصابيح استغرقت دهورًا لتصِل، وأخيرًا ظهرت؛ أولها كان مصباحًا مُضيئًا ذا وهَجٍ أصفر متقطع ثم ثبَتَ ضياؤه، تبِعه مصباحان يسطَعان بين الحين والآخر قبل أن يشتدَّ وهَجُهما ويثبُت. ومن حول المصابيح برزت أطياف ضئيلة خفيضة الصوت سرعان ما تحوَّلت إلى ظلالٍ ضخمة. ظهرت هذه المجموعة كما لو كانت جذوةً من نار فوق أرض الأحلام الشاسعة المُمتدَّة تحت نور القمر.

نادت الأصوات: «فلاك، فلاك.»

وجاء الردُّ معلنًا: «لقد حبس نفسه في العلية.»

أتى كُوسَار بما زاد من دهشة بانزنجتن؛ فقد أعدَّ كميات كبيرة من قِطع القطن وسدَّ بها أُذنيه — فتعجَّب بانزنجتن مُتسائلًا عن السبب — ثم عمَّر بندقيته برُبع كمية البارود. من كان سيفكر في هذا؟ بلغ العجب ذُروته مع اختفاء نعلَي كُوسَار داخل الجُحر الأوسط.

زحف كُوسَار ومعه بندقيتان، تتدلَّى كلٌّ منهما على كل جانبٍ برباطٍ تحت ذقنه، وتبِعَه أخلص مُساعديه، وكان رجلًا ضئيلًا أسمر البشرة جادَّ الملامح، مُنحنيًا ومُمسكًا بمصباحٍ فوق رأسه. مضى كل شيء على نحوٍ منطقي ومُرتَّب وواضح كما لو كانت وقائع حلم مجنون. كان القطن على ما يبدو بغرَض امتصاص ارتجاج البندقية، وكان المساعد يحمل بعضًا منه أيضًا. بديهي! إن أدارت الفئران ظهرها لكُوسَار فلا يمكنها أن تؤذيه، وإن واجهته فسيرى عينَيها ويُطلق النار بينهما، وبما أنها ستضطرُّ إلى أن تهبط الجُحر، فمن الصعب أن يُخطئها كُوسَار. أصرَّ كُوسَار أن تلك هي الطريقة البديهية، ربما شاقَّةٌ بعض الشيء، لكنها مؤكَّدة النتائج. بينما مساعِد كُوسَار ينحني ليدخل الجُحر، رأى بانزنجتن نهاية كُرَة من الحِبال المجدولة مربوطة إلى ذَيل معطفه، فمن المفترض أن يستخدِم الحبال إن احتاج إلى سحب جثث الفئران خارج الجُحر.

اكتشف بانزنجتن أنَّ الشيء الذي تُمسِك به يداه هو قبعة كُوسَار الحريرية.

كيف وصلت إلى يديه؟

ستكون شيئًا يُذكِّره به على الأقل.

ووقفَ على كلِّ فتحة جُحر مجاور مجموعة من الرجال يحملون مصباحًا ليضيء الجُحر ورجلٌ مُصوِّب سلاحه على الفتحة أمامه في انتظار أي شيءٍ قد يخرج.

وسادت حالة من الترقُّب الطويل.

ثم سمعوا أولى طلقات كُوسَار كما لو كانت انفجارَ مَنْجم.

انقبضتْ أعصاب الجميع وعضلاتهم لدى سماعهم ذلك، وتلا ذلك صوتُ رصاصاتٍ أخرى. حاولت الفئران الفرار، وقُتِل منها اثنان. عندها هزَّ مساعد كُوسَار الحبل، وقال بانزنجتن: «لقد قتَلَ واحدًا بالداخل ويريد الحبل.»

شاهد بانزنجتن الحبل وهو يُسحَب إلى داخل الجُحر وكأنه حيَّةٌ تسعى، حيث أخفى الظلام الجديلة. وأخيرًا توقَّف الحبل وساد صمتٌ طويل، ثم خرج ببطءٍ من الجُحر ما بدا لبانزنجتن أنه أغرب وحشٍ رآه على الإطلاق، فتراجع المهندس الضئيل، ثم خرج حذاءا كُوسَار مُخلِّفَيْن آثارًا عميقةً في الأرض، ومن بعدهما برز ظهرُه الذي أضاءته المصابيح.

لم يتبقَّ سوى فأرٍ واحد الآن، وهذا البائس آل به الأمر إلى الانكماش داخل أقاصي الجُحر إلى أن دخل إليه كُوسَار بمصباحه وقتلَه. وأخيرًا، مسحَ كُوسَار، ذلك القطُّ البشري الماكِر، كل الجُحور ليتأكَّد من أنه قضى على تلك المخلوقات.

توجَّه إلى رفاقه الذين كاد الرُّعب ينال منهم وقال لهم أخيرًا: «لقد نِلنا منهم. ولو كنت أبلَهَ وقحًا لخلعتُ ملابسي حتى الوسط. تحسَّسْ أكمامي يا بانزنجتن! إني أتصبَّب عرقًا. من الصعب التفكير في كل شيء. لن يُنقذني من البرْد إلا نصف قدحٍ من الويسكي.»

٧

مرَّت لحظاتٌ في هذه الليلة الرائعة بدا فيها لبانزنجتن أنه قد قُدِّر له أن يعيش حياة مليئةً بالمُغامرات المدهشة، وقد سيطر عليه هذا الشعور لساعةٍ أو نحو ذلك بعدما احتسى بعض الويسكي المُركَّز، فأسرَّ إلى المهندس الطويل الأشقر الرثِّ الهيئة قائلًا: «لن أعود إلى شارع سلون ستريت.»

«لن تفعل بالفعل؟»

أومأ بانزنجتن بغموضٍ قائلًا: «بالطبع لن أفعل.»

غرق بانزنجتن في العرَق بعد الجُهد الذي بذَلَه في سحْب الفئران السبعة الميِّتة إلى محرقة الجُثث بالقُرب من أجمة القراص، وأشار كُوسَار إلى مفعول الويسكي كعلاج يَقِيه

من البرد المُحتَّم. عُقدت مائدة عشاء كموائد قُطَّاع الطرق في المطبخ القديم المطوَّب، بينما اصطفَّت الفئران الميتة تحت ضوء القمر أمام أعشاش الدواجن بالخارج، وبعد حوالي ثلاثين دقيقةً من الراحة، وجَّههم كُوسَار إلى الأعمال التي لم يزل ينبغي إتمامها.

وقال إن عليهم «بالتأكيد تنظيف المكان. لا فضلات ولا أدلَّة، مفهوم؟» ثم غيَّر رأيه، ووجَّههم لفكرة تدمير المكان تمامًا؛ فحطموا ودمَّروا كل قطعة خشبية في المنزل، وأنشئوا صفوفًا من الأخشاب المُحطمة حيثما وُجِدت النباتات الكبيرة، وصنعوا محرقةً لجثث الفئران وأغرقوها في الكيروسين.

عمل بانزنجتن كعامل حفرٍ همام، وبلغ الانتشاء والنشاط منه مبلغهما في حوالي الساعة الثانية؛ وعندما ضربَ بفأسه أثناء عمليات التدمير تجنَّب أشجع الرجال جواره ثُم تراجع نشاطه قليلًا نتيجةً لفقدانه المؤقَّت لنظارته التي وُجدت في النهاية في جيب مِعطفه الجانبي.

مرَّ الرجال جيئةً وذهابًا من حوله — رجال شُعث مُفعمون بالنشاط — وتحرَّك كُوسَار وسطهم كالسيِّد.

ذاق بانزنجتن لذَّة هذه الرفقة التي تحلُّ على أفراد الجيوش والحملات الباسلة، لا على الذين يعيشون حياة سكَّان المدن المُتعقلين. بعد أن أخذ كُوسَار فأسَه وكلَّفه بحمل الخشب صار يروح ويجيء قائلًا إنهم جميعًا «خير صحبة.» واستمرَّ في عمله طويلًا حتى بعد أن أحسَّ بالإجهاد.

في النهاية كان كلُّ شيءٍ جاهزًا، وبدأت عملية التغطية بالكيروسين. علا القمر لامعًا مع بزوغ الفجر، بعدما تجرَّد من حاشيته الهزيلة من النجوم.

قال كُوسَار وهو يروح ويجيء بينهم: «أحرِقوا كل شيء، أحرقوا الأرض ولا تتركوا أيَّ أثر. مفهوم؟»

استطاع بانزنجتن تبيُّن ملامح كُوسَار مع بزوغ خيوط الصبح الأولى، فبدا مروِّعًا شديد النحافة، يمرُّ مسرعًا بفكِّه السُّفلي البارز وشُعلته المُلتهبة في يدِه.

قال أحدهم وهو يسحَب يدَ بانزنجتن: «ابتعد!»

وفجأة امتلأ الفجر الهادئ — إذ خلا من الطيور المُغردة — بقرقعة الأخشاب المُحترقة وسرى اللهَب الأحمر الخافت عبر قاعدة المَحرقة مُتحوِّلًا إلى اللون الأزرق فوق الأرض وصاعدًا رويدًا رويدًا من جُذور نباتات القراص الضخمة، مُلتهمًا أوراقها ورقةً ورقة. وتداخل مع صوت القرقعة صوتُ غناء.

سارع الرجال بالتقاط بنادقهم من رُكن حجرة معيشة آل سكينر، وخرج الجميع يَجْرُون، وتَبِعهم كُوسَار بخطواتٍ واسعة صاخبة …

بعدها وقفوا والتفتوا ليُلقوا نظرةً على مزرعة التجارب. كانت تغلي وتتطايَر منها ألسنة اللهب والدخان، كحشدٍ من المفزوعين، من الأبواب والنوافذ وآلاف الشقوق والفتحات في السقف. ثِق بكُوسَار ليصنع نارًا! انطلقَ نحوَ السماء عمودٌ عظيم من الدخان مُمتزج بألسنة اللهب القانية والوميض المُندفع. كان المشهد أشبهَ بعملاقٍ جبَّار نهض فجأةً وتقدَّم ناشرًا ذراعَيه العظيمتَين على حين غِرة مُحتضنًا السماء، حاجبًا وهَج الشمس ومُحيلًا النهار ليلًا موحشًا. سرعان ما رأى سكان هيكليبراو كلهم عمودَ الدخان الهائل، فخرجوا عن بكرة أبيهم بملابسهم المنزلية إلى ذُرى التل ليشاهدوا المَحرقة.

بدا في خلفية المشهد عمود الدخان كأنه يتراقَص ويتموَّج، كفطر خيالي، ويعلو أكثر فأكثر في عنان السماء، حتى تضاءلت بجانبه تلال داونز الطباشيرية وتقزَّمَت سائر الأشياء، أما في مقدمته، فقد شقَّ صانعو هذا الدمار، بقيادة كُوسَار، طريقهم، فخرجوا كأطيافٍ ثُمانية قاتمة مُتثاقلين عبر المرْج حامِلين بنادقهم.

لَمَّا نظر بانزنجتن خلفه، خطر على باله المُنهك قولٌ مأثور وراح يتردد صداه في أذنه. ما هو؟ «لقد أشعلتُ اليوم …؟ لقد أشعلت اليوم …؟» ثم تذكَّر كلمات لاتيمر: «لقد أشعلنا اليوم شمعةً في إنجلترا لن يُطفئها أحدٌ أبدًا …»

ما أعظم كُوسَار، حقًّا! لقد أُعجِبَ بانزنجتن بمنظره الخلفي لوهلة، وكان فخورًا بإمساكه تلك القُبعة. فخورًا! على الرغم من أنه كان باحثًا مرموقًا، أما كُوسَار فليس إلا مُشتغلًا بالعلوم التطبيقية.

فجأة انتابته رجفةٌ شديدة وتثاءب مُتمنِّيًا لو أنه مُتدثِّر في دفء سرير شقته الصغيرة المُطلة على شارع سلون ستريت (لم يُفكر حتى في ابنة عمِّه جين) أصبحت ساقاه كخيوط القطن، وقدَماه كالرصاص. تساءل إذا كان هناك من قد يجلب لهم بعض القهوة في هيكليبراو. لم يسبق له طوال ثلاثةٍ وثلاثين عامًا أن ظلَّ مُستيقظًا طوال الليل.

٨

وبينما كان هؤلاء المُغامرون الثمانية يقاتلون الفئران في محيط مزرعة التجارب، كانت في قرية تشيزينج آيبرايت، على بُعد تسعة أميال، سيدة عجوز ذات أنفٍ طويل تلقى صعابًا جمَّةً على وهَج شمعة مُتراقص. أمسكت بفتَّاحة عُلَب السردين في إحدى يديها الخَشِنتين،

وفي اليد الأخرى أمسكت بعلبة من الهرقليوفوربيا كانت قد قرَّرت إما أن تفتحها وإما أن تموت. كانت تُكافح بلا هوادة، تشهَق مع كل محاولة جديدة، بينما يتعالى نحيب الطفل كادلز.

قالت السيدة سكينر: «فليبارك الربُّ قلبه الصغير.» ثم قالت وهي تعَضُّ بسِنَّتها الوحيدة على شفتِها في نشوة الإصرار: «هيا انفتحي!»

«تاك!» سرعان ما انفتح مَدَدٌ جديد من طعام الآلهة ليبسُط قوته المُعَمِلِقة على العالَم.

الفصل الرابع

الأطفال العمالقة

١

يجِب أن تغيب السلسلة المُمتدَّة من تبِعات حريق مزرعة التجارب عن سردِنا ولو لبُرهة على الأقل، وكيف تسللت هذه القوة المُعمِلقة من هذا المركز المُتفخِّم، لكن غير المُدمَّر تمامًا، لتصِل إلى الفطر والحشائش والأعشاب، ولا يمكن أن يتَّسع المجال هنا مهما طالت السطور لنصِف كيف تسنَّى لهاتَين الدجاجتَين الناجيتين أن تقضِيا ما تبقى من حياتهما عقيمتَين، رغم تمتُّعِهما بالشُّهرة. بالنسبة إلى القارئ المُتعطش للتفاصيل، فنردُّه إلى صحف تلك الفترة — التي تُعدُّ سجلات ضخمة وعشوائية لوقائع تلك الحقبة — أما تركيزنا فهو منصبٌّ على السيد بانزنجتن الذي يقع في مركز هذه الاضطرابات.

كان قد عاد إلى لندن ليجد نفسه رجلًا مشهورًا غاية الشهرة. تغيَّر العالم كله بالنسبة إليه بين عشيةٍ وضُحاها. لقد أدرك الجميع الأمر. ابنة العمِّ جين، على ما يبدو، عرفتْ كل شيء؛ والناس في الشوارع عرفوا كلَّ شيء؛ والصحف عرفت كل شيء وأكثر. كان لقاء ابنة العم جين مُروِّعًا بطبيعة الحال، لكن عندما انتهى الأمر لم يكن اللقاء فظيعًا للغاية على كلِّ حال؛ فالمرأة الصالحة أدركتْ أن سلطانها على الحقائق مُقيَّد بحدود، وكان من الواضح أنها قد حدَّثت نفسها وتقبَّلت طعام الآلهة باعتباره جزءًا من طبيعة الأشياء.

سلكت جين سبيل الطاعة الساخطة. كانت رافضةً بشدَّة ما حدث، كما كان واضحًا، لكنها لم تعتبِره مُحرمًا. ربما زلزلها هروب بانزنجتن، فهكذا اعتبرتْهُ بلا شك، وكان أسوأ ما في الأمر محاولتها بإصرارٍ مريرٍ مُعالجته من نزلة برْد لم تُصبه وإرهاق نسيَهُ منذ أمدٍ وإصرارها على أن تشتريَ له نوعًا جديدًا من الملابس الداخلية الصُّوفية النظيفة التي يُواجِه صعوبةً كبيرة في ارتدائها، صعوبة تُضاهي تلك التي يلقاها شخصٌ شارد الذهن مثله في سبيل الاندماج في مُجتمعه؛ لذا واصل بانزنجتن لفترة، وبقدر ما أتاح له هذا

الوضع من الراحة، إسهامَه في إنتاج هذا الاختراع الذي يُشكِّل لبِنةً جديدة في صرح التاريخ البشري: طعام الآلهة.

كان العقل الجَمْعي، بقوانينه الانتقائية الغامضة، قد اختاره باعتباره المُخترِع والمروِّج الوحيد المسئول عن هذه العجيبة الجديدة؛ إذ لم يُسمَع شيءٌ عن ريدوود، وسمح ذلك لكُوسَار باتِّباع ميوله الطبيعية الجانحة إلى الغموض المُفرط. وقبل أن يدرك الاتجاه السائد في هذه الأمور، أصبحَ ذِكر السيد بانزنجتن منتشرًا على لوحات الإعلانات، وأضحى صلعه واحمرار بشرتِه الغريب ونظارته ذات الإطار الذهبي مِلكيَّةً وطنية، بل واحتلَّ شقَّته شبابٌ ذوو عزم وكاميرات غالية تُحيط بهم هالة من السلطة المُطلقة لفتراتٍ قصيرة ولكن مُثمرة، وملَئُوها بومضات الكاميرات حتى إنها أُترِعت لأيام ببخار كثيف لا يُحتمل، وعادوا إلى مقارِّ عملهم ليملئوا صفحات المجلات بما التقطوه من صورٍ رائعة للسيد بانزنجتن في هيئته الكاملة داخل منزله مُرتديًا ثاني أفضل سُترة لدَيه وحذاءه المشقوق. زارتْه مجموعة أخرى من الأشخاص أصحاب السَّمتِ الحازم من مُختلف الأعمار والأجناس وأخبروه أشياء عن الطعام المُكبِّر — لقد كانت صحيفة بانش أول من أطلق على المادة اسم «الطعام المُكبِّر» — وبعدها ردَّدوا ما سبق أن قالوه وكأنه ورد على لسانه هو أثناء المقابلات. صارت القضية هوسًا لدى برودبيم، الكوميديان الساخر المشهور. أدرك الرجل أن القضية ما هي إلا مسألة أُخرى تستعصي على فهمه فبذل قصارى جهده للتهكُّم عليها والاستهانة بها لمُواراة جهله بالتهكُّم والاستهزاء؛ فشوهد في الأندية بمظهره الأخرق ووجهه المُزعج مُحدِّثًا كل من استطاع الإمساك به قائلًا: «هؤلاء العلماء، كما تعلم، لا يتمتَّعون بروح الدعابة، كما تعلم. هذا العلم … يقتلها.» وتحوَّلت مزحةٌ عن بانزنجتن إلى تشهيرٍ خبيث …

أقدمتْ وكالةٌ إعلامية جريئة متخصصة في القصاصات الصحفية على إرسال مقالٍ طويل إلى بانزنجتن عن نفسه من صحيفة أسبوعية تُباع بستَّةِ قروش، يحمل عنوان «رُعب جديد» وعرضت إرسال مائةٍ من أمثاله مقابل جنيهٍ واحد، بل اتَّصلت به شابَّتان بالِغتا الجمال لا يعرفهما نهائيًّا وتناولتا الشاي معه — وهو ما أثار استياء ابنة العم جين وسُخطها الصامت — وبعدها طلبتا توقيعه على دفتر تهاني عيد ميلاديهما. سرعان ما اعتاد بانزنجتن على رؤية اسمه مُقترنًا بأكثر الأفكار تضاربًا في الصحافة العامَّة واكتشاف مقالات تدور حول طعام العمالقة وحولَه هو شخصيًّا كتبَها أشخاص بنبرةٍ حميمية تُوحي بأنهم من أقرب المُقرَّبين إليه، بينما هو لم يسمع عنهم قط. ومهما كانت

الأوهام التي استولَتْ عليه وقتَ أن كان مغمورًا بشأن مسرَّات الشهرة فقد تبدَّدت تمامًا وإلى الأبد.

في البداية، بدا الرأي العام، باستثناء برودبيم، خاليًا تمامًا من أي نبرةٍ عدائية، ولم يخطُر للعقل الجمعي أنَّ المزيد من مادة الهرقليوفوربيا سيتسرَّب من جديد، ولم يخطُر ببال الجماهير أن تلك المجموعة الضئيلة من الأطفال الآخذين في النموِّ جرَّاء تناولهم لطعام الآلهة سرعان ما سينمون بمُعدَّلٍ يفُوق معدلات نموٍّ أغلبنا. إنَّ ما أسعدَ العامَّة هو الرسوم الهزلية للساسة بعد إخضاعهم لبرنامجٍ غذائي مُعتمِد على الطعام المُكبِّر، وتمثيل هذه الفكرة على اللوحات الإعلانية، ومثل هذه المعروضات التثقيفية كالدبابير الميتة التي فرَّت من النيران والدجاجتَين المُتبقيتَين.

فيما عدا هذا لم يهتم العامة بإمعان النظر، إلى أن بُذِلت جهودٌ حثيثة للَفْتِ انتباههم إلى النتائج الأبعد أثرًا، وحتى حينئذٍ ظلَّ حماسُهم لاتخاذ تحرُّكٍ ما منقوصًا فترةً من الزمن، وراحَ العوام يُردِّدون: «هناك دائمًا شيءٌ جديد.» هؤلاء العوام الذين تشبَّعوا بالخرافات والغرائب حتى إن الدهشة لن تساورهم لو سمعوا أنَّ الأرض قد شُقَّت كما تُشقُّ ثمرة التفاح بل سيقولون: «مَنْ يعش طويلًا يرَ كثيرًا.»

لكن كان ثمَّة شخص أو اثنان بخلاف العامة، إن جاز التعبير، قد ألقى نظرةً أبعد على تبِعات هذا الأمر، وبدا خائفًا مما رأى. كان هناك كاترام الصغير، مثلًا، وهو ابن عمِّ إيرل بيترستون وواحد من أبرز الساسة الإنجليز الواعِدين، والذي كتبَ، مُخاطرًا بأن يُعتبَر من المُبتدِعين التافِهين، مقالًا طويلًا في صحيفة القرن التاسع عشر وما بعده ليقترح حظْر المادة كليًّا. وكان من بينهم بانزنجتن، في بعض حالاته المزاجية.

قال مُخاطبًا كُوسَار: «يبدو أنهم لا يدركون ...»

«لا، إنهم لا يدركون.»

«وهل نُدرك نحن؟ أحيانًا أفكِّر فيما يعنيه طفل ريدوود المسكين، وبالطبع أطفالك الثلاثة الذين بلغ طولهم أربعين قدمًا ربما! على كل حال، هل يجدُر بنا أن نُتابع ما بدأناه؟»

صاح كُوسَار: «تابِع العمل!» وقد انتفض بدهشةٍ غير لائقة وارتفعت نبرة صوته لأقصى درجاتها. «بالطبع ستُتابع العمل! ما الذي خُلِقتَ لأجله بظنِّك؟ أَلِتتسكَّع فيما بين وجبات الطعام؟!»

وتابع صارخًا: «تبعاتٌ خطيرة ... بالطبع! جسيمة. بديهي. هذا بديهي. يا رجل، إنها فرصتك الوحيدة لخلق تبعاتٍ خطيرة! وتريد أن تضيعها!» ثم توقَّف عن الحديث لبرهة في حنَقٍ صامت، وختم الحوار قائلًا: «ذلك شرٌّ محض ... شر!»

لكن بانزنجتن صار يعمل في مُختبَره مدفوعًا بالعاطفة أكثر منه بالحماس. لم يعُد يستطيع أن يُميِّز ما إذا كان يرغب في وجود تبعاتٍ خطيرة في حياته أم لا؛ فقد كان رجلًا ذا ذَوق هادئ. كان اكتشافًا مُدهشًا بالطبع، مدهشًا للغاية، لكنه أصبح بالفعل مالكًا عددًا من الأفدنة المحروقة السيئة السُّمعة بالقُرب من هيكليبراو، يقارب سعر الفدان الواحد منها ٩٠ جنيهًا، وفي بعض الأحيان كان يميل إلى التفكير في هذه النتيجة باعتبارها أخطر تبعات الكيمياء التي قد يتمنَّاها أي رجل يعوزه الطموح. أضحى مشهورًا بالطبع، فاحِش الشهرة. وكانت الشهرة التي نالها أكثر مما تمنَّى، أكثر منه بكثير.

لكن عادة البحث العلمي كانت قوية بداخله.

كان بانزنجتن يجد أحيانًا، أحيانًا نادرة أثناء عمله في المُختبَر بصفة رئيسية، شيئًا أبعدَ من مجرَّد عادة البحث العلمي وحُجج كُوسَار يدفعه إلى عمله. كان هذا الرجل الضئيل ذو النظارة، الذي ربما يحفظ توازُنه بلفِّ رباط حذائه المشقوق حول ساقَي مقعده العالي، الحامل في يدِه مِلقاط أثقال ميزانه؛ تُراوِده ومضاتٌ من حلم مُراهقته، ويمرُّ به تصوُّر عابر أن تنتابه نظرة عابرة للتجلِّي الخالد لتلك البذرة التي زُرعت في جِنانه، أن يراها وقد بلغتْ عنان السماء من وراء كل الصور والأحداث العجيبة الراهنة، ذلك العالم الوشيك للعمالقة وسائر الأشياء الهائلة التي يُخبئها المُستقبل ... بدا كل شيء كطَيفٍ غامض رائع، مثل قصرٍ متلألئ شُوهد فجأة تحت شعاع شمس عابر ... لكن سرعان ما سيتبدَّل الحال وكأنَّ هذا المجد البعيد لم يطُف قطُّ بخياله، ولن يرى أمامه إلا ظلالًا مشئومة وظلامًا سحيقًا وفضاءات مُقفرة وأمورًا مروعةً باردةً موحشة.

٢

وسط هذه الأحداث المُعقَّدة والمُضطربة وتلك الآثار التي شكَّلت شُهرة بانزنجتن، سرعان ما برزتْ شخصيةٌ لامعة نشطة حتى كادت تصير في نظر السيد بانزنجتن مُتزعِّمة لهذه التبعات غير المُتوقعة لاختراعه الجديد؛ كانت هذه الشخصية هي الدكتور وينكلز، ذلك المُمارس العام الشاب صاحب مهارات الإقناع، والذي ظهر في قصتنا باعتباره الوسيط الذي استطاع من خلاله ريدوود أن يوصِّل طعام الآلهة إلى ابنه. كان من الواضح، حتى

قبل اندلاع الأحداث الأخيرة، أن المسحوق العجيب الذي أعطاه إيَّاه ريدوود قد أشعل جَذوة اهتمام الرجل كثيرًا. وما إن وصلت طلائع الدبابير حتى كان وينكلز يدرس المسألة ويحسم أمره بشأنها.

لقد كان طبيبًا أصدق ما يصِف سلوكياته وأخلاقه وأساليبه ومظهره هو وصف «صاعد». كان ضخم البِنية أشقر، ذا عينَين رماديَّتَين لهما نظرة حادَّة يقِظة وشَعْر فضي. بالنسبة إلى وجهه، فكان حليقًا ذا ملامح مُتناسبة قوية العضلات، أما بِنيته فكانت مُنتصبة. اتَّسمت حركاته بالنشاط وخطواته بالسرعة. اعتاد الدكتور وينكلز أن يرتدي معاطف طويلة وأربطة عنق حريرية سوداء وأزرارًا وسلاسل ذهبية للزينة وقُبَّعات حريرية مميزة الشكل والحواف؛ بحيث تجعله يبدو أشدَّ حكمةً وأكثر وسامةً من نُظرائه. لا يبدو عليه أثرٌ للسن، فلا هو بالشاب ولا هو بالكهل، وإنما هو بالغ ناضِج. بدأ الدكتور وينكلز، عقب الظهور الأول لهذا الاختراع الجديد، يتعامل مع بانزنجتن وريدوود وطعام الآلهة باعتباره أحد مالكي هذا الاختراع لدرجة أن بانزنجتن كان ينزِع أحيانًا إلى اعتباره المُبتكِر الأصلي للاختراع برمته، رغم إقرار الصحافة بنقيض ذلك.

عندما أشار بانزنجتن إلى مخاطر وقوع مزيد من حالات الهرب، أجابه وينكلز: «هذه الحوادث لا قيمة لها. لا قيمة لها. الاكتشاف هو كل شيء. لدينا شيء عجيب فعلًا في هذا الطعام الذي أُعد بعناية وجرى التعامل معه بشكل لائق والسيطرة عليه بصورة معقولة ... يجب أن نوجه إليه تركيزنا ... علينا ألَّا ندعه يفلت من سيطرتنا مجددًا، وعلينا ألَّا ندع الأمر يتوقف.»

بالتأكيد لم يكن وينكلز يريد لهذا الأمر أن يتوقف؛ لذا صار متواجدًا في شقة بانزنجتن بصفة شبه يومية، فإذا نظر الأخير عبر نافذته رأى المعدات المحكمة وهي تُنقل عبر شارع سلون ستريت يعقبها مباشرةً مقدم وينكلز إلى غرفة بانزنجتن في خطوات رشيقة قوية وتجوله في أنحائها عارضًا على بانزنجتن بعض الصحف ومُمدًّا إياه ببعض المعلومات ومبديًا بعض الملاحظات.

ثم يقول وهو يفرك يديه: «حسنًا، كيف يسير مشروعنا؟» وهكذا ينتقل إلى النقاشات الجارية حول الاختراع.

قال وينكلز ذات مرة: «أتعلم أن كاترام كان يتحدث عن اختراعنا أمام الجمعية الكنسية؟»

فرد بانزنجتن: «يا للهول! إنه ابن عم رئيس الوزراء، صحيح؟»

فأجاب وينكلز: «أجل، إنه شابٌّ كفء للغاية ... كفء للغاية. إنه يفتقر تمامًا إلى سداد الرأي؛ فهو كما تعلم رجعي متعصب، لكنه كفء تمامًا. من الواضح أنه يميل إلى استغلال مسألة اختراعنا لصالحه. إنه يتخذ موقفًا حاسمًا حياله. ويتحدث عن اقتراحنا لاستخدام المادة في المدارس الابتدائية ...»

«عن اقتراحنا لاستخدام المادة في المدارس الابتدائية!»

«قلت شيئًا عن ذلك منذ بضعة أيام — بطريقة عابرة تمامًا — في أحد معاهد العلوم التطبيقية. كنت أحاول التأكيد على أن المادة ذات فائدة كبيرة حقًّا، ولا تمثل أدنى خطورة، على الرغم من تلك الحوادث الأولى الثانوية، والتي لا يمكن أن تحدث مرة أخرى ... أنت تعرف أنها ستكون مادة جيدة نوعًا ما، لكنه استغل الموقف وبالغ في تناول المسألة.»

«ماذا قلت؟»

«مجرد أشياء بديهية، ولكن كما تعلم ... يتناول الموضوع بجدية تامة، ويتعامل مع القضية بأسلوب هجومي. قال إن هناك بالفعل إهدارًا كافيًا من المال العام في المدارس الابتدائية دون تقديم هذا الطعام، وراح يردِّد القصص القديمة حول دروس البيانو مرة أخرى — كما تعلم. إنه يقول إنَّه لا أحد يرغب في منع الأطفال من الطبقات الدنيا من الحصول على التعليم المناسب لحالتهم، ولكن منحهم غذاءً من هذا النوع سوف يدمر قدرتهم على تقدير الأمور. إنه يتوسع في مناقشة القضية، ويتساءل ما الخير المترتب على جعل الفقراء بطول ستٍّ وثلاثين قدمًا؟ إنه يعتقد حقًّا أنهم سيكونون بطول ستٍّ وثلاثين قدمًا.»

قال بانزنجتن: «سيبلغون هذا الطول إن أعطيناهم طعامنا على نحو منتظم. ولكن لم يقل أحدٌ شيئًا ...»

«لقد قلت.»

«ولكن، يا عزيزي وينكلز ...»

قاطعه وينكلز قائلًا: «سوف يكونون أكبر، بطبيعة الحال.» قالها مثبطًا أفكار بانزنجتن القاسية بنبرة من يحيط بالأمر برمته، ثم أضاف: «أكبر بلا جدال، ولكن استمع إلى ما يقوله! هل سوف يجعلهم أكثر سعادة؟ هذا هو المهم. غريبٌ، أليس كذلك؟ هل سيجعلهم أفضل؟ وهل سيكونون أكثر احترامًا للسلطة الشرعية؟ هل سيكون ذلك عادلًا بالنسبة إلى الأطفال أنفسهم؟ غريب حرص أمثاله على العدالة فيما يتعلق بأي إجراءاتٍ مستقبلية. أشار إلى أنه حتى في الوقت الحاضر تفوق تكلفة تغذية الأطفال وملابسهم قدرة كثير من ذويهم، وإن كانت هذه المادة ستُتاح ... ها؟

إنه، كما ترى، يجعل اقتراحي العابر طلبًا فعليًّا، ثم يحسب تكلفة السروال لفتى يافع طوله عشرون قدمًا أو نحو ذلك. يعتقد حقًّا أنه سيكلف عشرة جنيهات على أقل تقدير. غريبٌ كاترام هذا! ما أشدَّ اهتمامه بالتفاصيل المادية! وسيتعين على دافعي الضرائب الشرفاء المكافحين المساهمة في ذلك، كما يقول. يقول أيضًا إنه يتعين علينا أن ننظر في حقوق الآباء. كلُّ شيء في الصحيفة هنا. عمودان. كلُّ والد له الحق في ألَّا يتجاوز أطفاله طوله هو نفسه ...

ثم تأتي مسألة تجهيز المدارس وتكلفة المقاعد المكبَّرة من أجل مدارسنا الحكومية المثقلة بما يفوق طاقاتها أصلًا. وفي سبيل ماذا؟ إنتاج طبقة عاملة من العمالقة الجوعى. ويختم مقاله بفقرة جد خطيرة، يقول فيها إنه حتى لو لم يسفر هذا الاقتراح الجامح بشأن المدارس عن شيء — ولم يكن اقتراحًا بل كان تصورًا عابرًا طرحتُه ساء تفسيره — فهذا لن ينهي المسألة؛ فهذا الغذاء غريب، غريب لدرجة تجعله يبدو لكاترام وكأنه مصدر للشرور. إنه يرى أنه قد انتشر بطريقة مستهترة وربما ينتشر مرة أخرى، وأنه بمجرد تناوله يصير سُمًّا ما لم تُواظِب على تعاطيه ...»

قاطعه بانزنجتن: «هو كذلك.»

«وباختصار يقترح تشكيل جمعية وطنية للحفاظ على النسب السليمة للأشياء. غريب! صحيح؟ والناس متشبثون بالفكرة مثلما يتشبثون بأي شيء.»

«ولكن ما الذي يقترحون فعله؟»

هزَّ وينكلز كتفيه وألقى يديه، وقال: «تشكيل جمعية وإحداث لغط. إنهم يريدون تجريم تصنيع مادة الهرقليوفوربيا — أو نشر كيفية تصنيعها تحت أي ظرف. لقد كتبت القليل لإظهار أن فكرة كاترام عن المادة مبالغ فيها جدًّا ... مبالغ فيها جدًّا بالفعل، ولكن يبدو أن هذا لم يضع حدًّا للأمر. من الغريب كيف انقلب الناس ضد الطعام. بالمناسبة، جمعية الاعتدال الوطنية قد أسست فرعًا لاعتدال النمو.»

قال بانزنجتن وهو يحك أنفه: «مم.»

«بعد كل ما حدث هناك لا بد أن تحدث مثل تلك الضجة. الأمر يبدو في ظاهره مخيفًا.»

جابَ وينكلز الغرفة لبرهة مترددًا ثم غادرها.

أصبح من الواضح أن هناك شيئًا يدور في خلفية عقله، شيئًا ذا أهمية بالغة بالنسبة إليه، وأنه ينتظر ليكشف عنه. يومًا ما، عندما كان ريدوود وبانزنجتن في الشقة معًا، أعطى لهما لمحة عن سره.

ابتدرهما قائلًا وهو يفرك كفيه: «كيف الحال؟»

«إننا نعد تقريرًا ما.»

«للجمعية الملكية؟»

«أجل.»

«هممم» قالها وينكلز بعمق شديد وسار إلى المدفأة. «همم، ولكن — النقطة هي: أينبغي عليكما؟»

«ينبغي علينا ... ماذا؟»

«أينبغي عليكما أن تنشرا البحث؟»

«نحن لسنا في العصور الوسطى.»

«أعرف.»

«كما يقول كُوسَار، تبادل المعرفة — هذا هو المنهج العلمي الحقيقي.»

«في معظم الحالات، نعم بالتأكيد، ولكن ... هذا أمر استثنائي.»

ردَّ عليه ريدوود: «سنضع الأمر برمته بين يدي الجمعية الملكية بالطريقة اللائقة.»

ناقض وينكلز هذا الموضوع في وقتٍ لاحق.

«إنه اكتشافٌ استثنائي من أوجه كثيرة.»

فقال ريدوود: «هذا لا يهم.»

«إنه نوعٌ من المعرفة يسهُل أن يكون عرضةً لسوء الاستغلال الجسيم — مخاطر جسيمة كما يقول كاترام.»

لم يقل ريدوود أي شيء.

«حتى الإهمال، كما تعرف ...»

«إذا كنا سنشكِّل لجنة من الثقات للرقابة على تصنيع الطعام المكبِّر، الهرقليوفوربيا، فلعلنا ...»

توقف عن الحديث، وتظاهر ريدوود، مع بعض الانزعاج الداخلي، بأنه لم يرَ أي نوع من الاستجواب.

في خارج محل سكن ريدوود وبانزنجتن، أصبح وينكلز، على الرغم من نقص معلوماته، مرجعًا بارزًا عن طعام العمالقة، بل وكتب رسائل تدافع عن استخدامه وقدَّم تعليقاتٍ ومقالاتٍ تشرح إمكانياته، وتطفَّل على اجتماعات الجمعيات العلمية والطبية للحديث عنه وصار اسمه مقترنًا به. علاوةً على كل ما سبق، نشر وينكلز كتيبًا بعنوان «حقيقة حول طعام العمالقة» قلَّل فيه من شأن ما حدث في هيكليبراو مشيرًا إلى أنه من

السخف القول إن الطعام المكبِّر من شأنه أن يجعل الناس بطول سبع وثلاثين قدمًا، واصفًا هذا القول بأنه «مبالغة سافرة.» فالطعام سيجعلهم أكبر، بالطبع، ولكن هذا كل ما في الأمر.

كان من الواضح لكلا الصديقين الحميمين، ريدوود وبانزنجتن، أن وينكلز كان حريصًا كلَّ الحرص على المساعدة في صنع الهرقليوفوربيا وفي تصحيح براهين أي ورقة علمية يعدانها حول هذه المادة — والإسهام بأي شيء قد يؤدي به إلى المشاركة في تفاصيل إعداد الهرقليوفوربيا. كان يقول لهما باستمرار إنه يشعر أن هذا الاختراع أمرٌ جلل وأنه ينطوي على إمكانياتٍ هائلة، شريطة «حمايته بطريقة ما.» وفي يوم من الأيام طلب منهما صراحة أن يعرف كيفية تصنيع المادة.

أجابه ريدوود: «كنت أفكر فيما قلته.»

ردَّ وينكلز وقد تهلَّل وجهه: «حسنا، وما رأيك؟»

فقال ريدوود: «إنه نوعٌ من المعرفة يسهُل أن يكون عرضةً لسوء الاستغلال الجسيم.»

ردَّ وينكلز: «لكنني لا أرى كيف ينطبق ذلك عليَّ.»

فردَّ ريدوود: «بل ينطبق.»

فكر وينكلز في الأمر ليوم تقريبًا ثم جاء إلى ريدوود وقال إنه يشعر بالريبة من إعطاء ابن ريدوود الصغير مساحيق لا يعرف عنها شيئًا؛ بدا له أنه كان يتحمل مسئولية أمر يجهله. دفع هذا ريدوود إلى الاستغراق في التفكير.

قال وينكلز، مغيرًا الموضوع: «لقد رأيت أن جمعية المكافحة التامة لطعام العمالقة تدعي أن لديها عدة آلاف من الأعضاء. لقد أعدوا مشروع قانون. وولوا كاترام مهمة مناقشته، وهو متحمس للأمر بما يكفي. إنهم جادون. يشكِّلون لجانًا محلية للتأثير على المرشحين. إنهم يريدون تجريم إعداد هرقليوفوربيا وتخزينها دون ترخيص، وجعل إعطائها لأي شخص دون الحادية والعشرين من عمره جناية، وهي تهمة تستدعي السجن قطعًا. ولكن هناك جمعيات داعمة لهذا الموقف أيضًا. جمعيات تضم طوائف شتى. جمعية الحفاظ على القوانين القديمة ستضم السيد فريدريك هاريسون في المجلس، كما يقولون. أنت تعرف أنه كتب مقالًا عن الطعام المكبِّر؛ وصفه فيه بأنه مثيرٌ للاشمئزاز ومناقضٌ تمامًا لدين الإنسانية المنصوص عليه في تعاليم كونت، وأنه شيء لم يكن للقرن الثامن عشر أن يتمخض عنه تحت أسوأ الظروف، وأن فكرة هذا الطعام لم تخطر قط

على بال كونتن وهو ما يظهر مدى خبث هذه الفكرة. وأضاف أنه ما من أحدٍ فَهِمَ تعاليمَ كونت حقًّا ...»

فزع ريدوود وقال مزدريًا وينكلز: «لكنك لا تقصد أن تقول ...»

قال وينكلز: «لن يفعلوا كل ذلك، لكن الرأي العام يظل هو الرأي العام، والأصوات هي الأصوات. الجميع يمكن أن يرى أنك تخطط لأمر مثير للقلق، والغريزة البشرية ضد إثارة القلق تمامًا، كما تعرف. لا يبدو أن أحدًا يصدق فكرة كاترام عن بلوغ الناس سبعًا وثلاثين قدمًا وعجزهم عن الدخول إلى الكنيسة أو مقار الاجتماعات أو أي مؤسسات اجتماعية أو إنسانية. وبالرغم من كل ذلك، فإن عقولهم غير مستسيغة تمامًا لهذا الاكتشاف. ويرون أن هناك شيئًا — شيئًا أبعد من مجرد اكتشاف عادي.»

فقال ريدوود معلقًا: «هناك شيءٌ كهذا في كل اكتشاف.»

«على أي حال، إنهم يزدادون اضطرابًا؛ فكاترام لا يكف عن الحديث عما قد يحدث إذا تسربت المادة من جديد. أقول مرارًا وتكرارًا: إن ذلك لن يحدث مجددًا، ولا يمكن أن يحدث. ولكن، هذا هو واقع الحال!»

تحرك في الغرفة لبعض الوقت كما لو كان يعتزم إعادة فتح موضوع السر، ثم أعاد النظر وغادر.

نظر العالمان أحدهما إلى الآخر. أمضيا برهة لا تتحدث إلا عيونهما.

قال ريدوود أخيرًا بنبرة هادئة مفعمة بالإصرار: «تحت أسوأ الظروف، سوف أعطي الطعام لابني تيدي بيدي.»

٣

بعد أيام قليلة من هذه الواقعة، فتح ريدوود صحيفته ليجد أن رئيس الوزراء قد وعد بإنشاء لجنة ملكية حول الطعام المكبِّر، وهو ما دفعه إلى زيارة شقة بانزنجتن حاملًا الصحيفة في يده.

«أعتقد أن وينكلز يفسد الأمر. إنه أداة في يد كاترام. لا يكف عن الحديث عن الطعام وتأثيره وعن إفزاع الناس. إذا استمر على المنوال نفسه، فإني أعتقد حقًّا أنه سوف يعوق أبحاثنا. وفي الوقت ذاته، هذه المشكلة المتعلقة بابني الصغير.»

تمنَّى بانزنجتن ألَّا يجلب لهم وينكلز المتاعب.

«هل تلاحظ كيف انساق إلى تسمية المادة الطعام المكبِّر؟»

ردَّ بانزنجتن وهو يرمقه من فوق نظارته: «لا أحبُّ ذلك الاسم.»

«لكن وينكلز لا يراه إلا كذلك.»

«لماذا لا يكف عن الحديث عنه؟ إنه ليس اختراعه!»

قال ريدوود «إنه نوعٌ من الفرقعة وتسليط الأضواء. لا أفهم. إن لم يكن الاختراع ملكه، فكيف يظن الجميع أنه كذلك، لكن ليس هذا ما يهم.»

قال بانزنجتن: «في حالة هذا الجاهل، يصير هذا اللغط السخيف خطرًا.»

قال ريدوود: «لا يستطيع طفلي الصغير الاستغناء عن المادة. لا أدري ما المَخرج الآن. إذا حدث الأسوأ ...»

أعلنت ضجةٌ خفيفة عن قدوم وينكلز، وسرعان ما ظهر في منتصف الغرفة وهو يفرك يديه.

قال بانزنجتن وهو ينظر إليه بقسوة من فوق حواف نظارته المُذهَّبة: «ليتك طرقت الباب.»

اعتذر وينكلز ثم التفت إلى ريدوود قائلًا: «سعيدٌ أني وجدتك هنا. الحقيقة أن ...»

قاطعه ريدوود: «هل عرفت بأمر هذه اللجنة الملكية؟»

أجاب وينكلز: «أجل، أجل.»

«ما رأيك فيها؟»

أجابَ وينكلز: «شيءٌ ممتاز. لا بد منها لوقف معظم هذا الصخب. سوف تناقش القضية علنًا، وتُسْكِت كاترام، ولكن ليس هذا ما جئت لأجله يا ريدوود. الحقيقة هي ...»

قال بانزنجتن: «أنا لا أحبُّ هذه اللجنة الملكية.»

«أؤكِّد لكما أنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يرام، اسمحا لي أن أقول — ولا أظنه انتهاكًا للثقة — إنه من المحتمَل جدًّا أن أكون ضمن اللجنة ...»

هَمهَم ريدوود وهو ينظر إلى المدفأة: «أووم.»

«يمكنني أن أضع كلَّ شيء في نِصابه الصحيح. يمكنني أن أوضح، أولًا، أنَّ المادة يمكن السيطرة عليها، وثانيًا، أنه لا يمكن أن تتكرر كارثة هيكليبراو مرة أخرى اللَّهم إلا إذا وقعت معجزة. هذا هو المطلوب بالضبط، طمأنة من مصدرٍ مَحل ثقة. بالطبع، أستطيع أن أتحدَّث بثقةٍ أكبر إذا كنت أعرف، لكن في الوقت الحاضر هناك شيءٌ آخر، مسألةٌ صغيرة أخرى، أريد مشورتكما بشأنها. اِحِمْ. الحقيقة هي — حسنًا — أني واقعٌ في مأزق بسيط ويمكنكما مساعدتي.»

رفع ريدوود حاجبيه، وكان سعيدًا في قرارة نفسه.

«المسألة سريَّة للغاية.»

قال ريدوود: «تحدَّث. لا تقلق.»

«لقد عُهِدَ إليَّ مؤخرًا برعاية طفل؛ طفل قريب لشخصية رفيعة المستوى.»

سَعَل وينكلز.

قال ريدوود: «تابِع حديثك.»

«يجب أن أعترف أنَّ الفضل يعود في أغلبه إلى مسحوقك وإلى ما أحرزه نجاحي مع طفلك من شهرة. لا أستطيع أن أُخفي عنكما أنَّ ثَمَّ شعورًا قويًّا ضد استخدامه، ولكني أجدُّ بين مَن يحظون بنصيبٍ أوفر من الذكاء ... يجب على المرء أن يخوض بحذر وهدوء في مثل هذه الأمور ... شيئًا فشيئًا. ومع ذلك، ففي حالة سُموِّها ... أعني مريضتي الجديدة الصغيرة. في الواقع ... جاء الاقتراحُ من والِدِها، وإلا لما وافقتُ البتة.»

قاطعه ريدوود مُحرِجًا إياه: «اعتقدتُ أنَّ لديك شكًّا في صحة استخدام هذه المساحيق.»

«كان مجرَّد شكٍّ عابِر.»

«أنت لا تقترح التوقف!»

«في حالة ولدِك الصغير؟ بالتأكيد لا!»

«أرى أن التوقف عن إعطائه هذا الطعام سيفضي إلى قتله.»

«لن أفعل ذلك مهما كان المقابل.»

قال ريدوود: «سأعطيك المساحيق.»

«أعتقد أنك لا تستطيع ...»

قال ريدوود: «بالطبع لا. ليس هناك وصفة لإعدادها. لا فائدة من ذلك يا وينكلز، ولا تؤاخذني لصراحتي. سأعدُّ لك المساحيق بنفسي.»

قال وينكلز بعد لحظة من التحديق في ريدوود: «لا مشكلة، لا مشكلة.» ثم أردفَ: «أؤكِّد لك أن الأمر لا يزعجني على الإطلاق.»

٤

بعدما رحلَ وينكلز جاء بانزنجتن ووقف على سجادة الموقد ناظرًا إلى ريدوود.

استهل الحديث قائلًا: «صاحبة السمو!»

فكرَّر ريدوود متعجبًا: «صاحبة السمو!»

«إنها أميرة ويزر درايبرج!»

«حفيدة ابنة عمه.»

قال بانزنجتن: «ريدوود، أعلم أنه من الغريب أن أقول ذلك، ولكن، هل تعتقد أن وينكلز يفهم؟»

«ماذا؟»

«ما صنعناه.»

قال بانزنجتن خافضًا صوته ومديرًا بصره ناحية الباب: «هل يفهم حقًّا أن في الأسرة — أسرة مريضه الجديد.»

قال ريدوود: «أكمل.»

«مَنْ كانوا دائمًا أقل من؛ أقل من ...»

«المتوسط؟»

«نعم. وها هو يعمل بهدوء ودون أن يشعر به أحدٌ على إنتاج شخصية ملكية — شخصية ملكية عملاقة. لست متأكدًا، يا ريدوود، من أن الأمر يخلو من شيء أقرب إلى ... الخيانة.»

ونقل عينيه من الباب إلى ريدوود.

أشار ريدوود بسبابته للحظة إلى النار ثم قال: «يا إلهي! إنه لا يعرف!»

أردفَ ريدوود قائلًا: «هذا الرجل لا يعرف أي شيء. وكانت تلك أسوأ صفاته كطالِب. لا يعرف أي شيء. لقد اجتاز كل اختباراته، وحاز كلَّ الحقائق العلمية — كان يحمل قدرًا من المعرفة يُضاهي ما يحمله رفٌّ دوار يضمُّ موسوعة التايمز. والآن لا يعرف شيئًا. إنه وينكلز، عاجز عن استيعاب أيِّ شيء غير ذي علاقة مباشرة وفورية بذاته التافِهة. إنه مفتقرٌ تمامًا إلى الخيال؛ ومن ثَمَّ غير قادر على تحصيل المعرفة. لا يمكن لأحدٍ أن يتخطى هذا الكم من الاختبارات ويظل مع ذلك أنيقَ الملابس، حسنَ المظهر، ناجحًا في مهنته كطبيب دون أن يتحلَّى بهذا القصور تحديدًا. هذا هو كلُّ ما في الأمر. وعلى الرغم من كل ما رأى وسمعَ وقيل له، ها هو ليس لديه أدنى فكرة عما هو بصدد فعله. لقد أحدث ضجة بشأن الطعام المكبِّر، وشخص ما قد سمح له بالوصول إلى هذه الطفلة الملكية، وهذا سيحدث ضجة أكبر! ولم تخطر بباله مسألة أن ويزر درايبرج سرعان ما سيضطر إلى التعامل مع المشكلة الجسيمة المتمثلة في أميرة يتجاوز طولها ثلاثين قدمًا، بل ولا يمكن أن تخطر بباله — لا يمكن!»

قال بانزنجتن: «سيكون هناك لغط مروِّع.»

«في غضون عام أو نحو ذلك.»

«بمجرد أن يروا أنها آخذة في النمو.»

«إلا إذا أخفوا الأمر كعادتهم.»

«الأمر أكبر من أن يُخفى.»

«بالفعل!»

«ماذا سيفعلون يا تُرى؟»

«إنهم لا يفعلون أي شيء؛ الأسلوب الملكي.»

«عليهم أن يفعلوا شيئًا.»

«ربما هي مَنْ سيفعل.»

«يا إلهي! أجل.»

«سيمنعونها. مثل هذه الأمور معروفة.»

انفجر ريدوود في ضحك يائس، ثم قال: «صاحبة السمو الملكي العملاقة — الطفلة المكتنزة ذات القناع الحديدي! سيكون عليهم وضعها في أطول برج في قلعة ويزر درايبرج القديمة، وإحداث ثقوب في الأسقف بينما تنمو متجاوزةً طابقًا تلو طابق! أنا واقع في الورطة ذاتها. وكُوسَار وأولاده الثلاثة، و... حسنًا، حسنًا.»

كرَّر بانزنجتن قوله دون أن يشارك ريدوود الضحك: «سيكون هناك لغط مروِّع؛ لغط مروِّع.»

ثم أضاف: «أعتقد أنك أمعنت التفكير في الأمر يا ريدوود. ألَا تظن أن من الأفضل تحذير وينكلز وفطام طفلك تدريجيًّا والاكتفاء بالانتصار النظري؟»

قال ريدوود بنبرة حانقة: «أتمنى لو تقضي نصف ساعة في حضانة الطفل عندما يتأخر الطعام قليلًا، ولا أظنُّك ستتحدث هكذا يا بانزنجتن. أضف إلى ذلك: تخيَّل لو أني حذَّرت وينكلز ... لا! لقد جرفنا هذا الطوفان على حين غِرَّة؛ وليس أمامنا إلا السباحة، سواءٌ أكنا خائفين أم لا!»

قال بانزنجتن وهو يحدِّق في أصابع قدميه: «أعتقد ذلك. أجل. ليس أمامنا إلا السباحة. وسوف يكون على صَبيِّك أن يسبح، وأبناء كُوسَار — لقد أعطاه لأولاده الثلاثة. لا يعرف كُوسَار أنصاف الحلول — الكل أو لا شيء! وصاحبة السمو، وكل شيء. سنستمر في صنع الطعام. وكُوسَار أيضًا. نحن فقط في البداية، يا ريدوود. ومن المؤكَّد أن الكثير

سوف يحدث تباعًا. الكثير من الأمور الجسام الرهيبة. ولكني لا أستطيع أن أتخيَّلها يا ريدوود. إلا ...»

فحص بانزنجتن أظافره، ثم تطلع إلى ريدوود من خلال نظارته بنظراتٍ جامدة.

غامر بانزنجتن قائلًا: «أميلُ إلى الاعتقاد بأنَّ كاترام على حقٍّ في بعض الأحيان. هذا الاختراع سوف يدمر تناسب الأشياء. سيخل باستقرار كل شيء. ما الذي سيبقى على حاله؟»

أجابَ ريدوود: «أيًّا كان ما سيفعله، يجب أن يتناول طفلي الطعام.»

سمعا شخصًا يصعد الدرج بخطواتٍ سريعة، ثم رأيَا كُوسَار مطلًّا برأسه من الباب قائلًا: «مَرحبًا!» ثم دخل.

«حسنًا!»

أخبراه عن الأميرة.

عقَّب قائلًا: «مسألةٌ صعبة! ليس فيها شيء من الصعوبة. ستنمو. وسوف ينمو طفلك. وجميع الآخرين ممن أعطيناهم الطعام سينمون. كل شيء. كأي شيء. ما الصعوبة في ذلك؟ لا بأسَ في ذلك. يمكن لطفل أن يخبركما بذلك. أين المشكلة؟»

حاولا أن يوضِّحا له.

صاح: «توقَّفا! لكن ليس بأيديكما شيءٌ الآن. لقد خُلِقتما لهذا الأمر. وله خُلِق وينكلز. كل شيء على ما يرام. كثيرًا ما تساءلت لِمَ خُلِق وينكلز. الآن عرفت الإجابة. ما المشكلة؟ الفوضى؟ بالتأكيد. اضطراب الأشياء؟ فليضطرب كلُّ شيء. وأخيرًا: فلتضطرب كل شئون البشر. الأمر واضح وضوح الشمس. سيحاولون منعه، ولكن الأوان فات. هكذا هم دائمًا. واصلا عملكما كيفما بدا لكما. حمدًا لله أن أوجد لكما دورًا في هذه الحياة!»

ردَّ بانزنجتن: «لكن الصدامات! التوتر! لا أدري إن كنت قد تصورت ...»

قاطعه كُوسَار: «كان يجب أن تكون نوعًا من الخضراوات، يا بانزنجتن. هذا ما كان يجب أن تكونه. شيء ينمو في حديقة صخرية. ها أنت ذا، خائفٌ ومذهول، وتعتقد أن دورك ينحصر في مجرد الجلوس وتناول الطعام. أتظنُّ أن هذا العالَم خُلِق للعجائز كي يتجولوا في أنحائه؟ حسنًا، على أية حال، لا يسعكما شيءٌ الآن؛ عليكما المضي قدمًا.»

قال ريدوود: «أعتقد أنه علينا ذلك. ببطء ...»

أطلق كُوسَار صرخة هائلة وهو يقول: «لا! لا! اصنعا منه بقدر ما يمكن وبأسرع ما يمكن. انشراه في كل مكان!»

وخطر بباله أداء حركة ذكية، فقلَّدَ أحد منحنيات ريدوود بثني ذراعه إلى أعلى مشكلًا قوسًا واسعًا في الهواء.

وقال لريدوود وهو يشير إلى ما رسمه في الهواء: «ريدوود! اجعله مثل ذلك!»

٥

يبدو أنَّ ثَمَّ حَدًّا لفخر الأمومة، وقد بَلَغَتْه السيدة ريدوود عندما أتمَّ ابنها الشهر السادس من عمره وكسَرَ عربته النقَّالة الفاخرة وأُحضِر إلى المنزل في عربة بائع اللبن اليدوية وهو يصرُخ. بلغ وزن الصغير في ذلك الوقت تسعة وخمسين رطلًا ونصف رطل، وطوله ثمانيًا وأربعين بوصة، وكاد يبلغ ستين رطلًا. كان يصعد على الدرج إلى حضانته محمولًا على أكتاف الطاهي والخادمة. عقب هذه الوقائع، لم يستغرق انتشار الخبر إلا بضعة أيام؛ رجع ريدوود بعد ظهر أحد الأيام إلى المنزل عائدًا من مختبره ليجد زوجته البائسة منغمسة في الاطلاع على صفحات كتاب «الذرة العملاقة» وما إن رأته حتى وضعت الكتاب جانبًا وهرولتْ نحوه منفجرةً في البكاء على كتفه.

قالت منتحبةً: «قل لي ماذا فعلتَ به. أخبرني ماذا فعلتَ به.»

أمسك ريدوود بيدِها وقادها إلى الأريكة، مُحاولًا التفكير في وسيلةٍ دفاعية ناجِعة.

«كلُّ شيءٍ على ما يرام، يا عزيزتي؛ كلُّ شيءٍ على ما يرام. أنتِ فقط متوترة قليلًا. إنها مجرد عربة رخيصة. لقد اتَّفقتُ مع نجَّار الكراسي المُتحرِّكة ليصنع شيئًا أقوى يوم غدٍ ...»

نظرت إليه السيدة ريدوود بعينَين مُغرورِقَتَين بالدموع.

وقالت وهي تجهش بالبكاء: «طفلٌ في كرسي مُتحرك؟»

«حسنًا، ولِمَ لا؟»

«إنه كالمُقعدين.»

«إنه كعملاق صغير يا عزيزتي، وليس لديكِ أي سبب لتخجلي منه.»

ردَّت: «لقد فعلت شيئًا به يا داندي. أستطيع أن أرى ذلك في وجهك.»

قال ريدوود ببرود: «حسنًا، لم يتوقَّف نموُّه على أية حال.»

قالت السيدة ريدوود وقد كوَّرت منديلها في يدٍ واحدة: «عرفتُ ذلك.» صارت نظراتُها إلى زوجها حادَّةً فجأة: «ماذا فعلتَ بطفلنا يا داندي؟»

«ما مشكلته؟»

«إنه كبير جدًّا. إنه وحش.»

«هُراء. إنه طفل طبيعي كأيِّ طفلٍ أنجبتْهُ امرأة. ما مشكلته؟»

«انظر إلى حجمه.»

«لا بأس في ذلك. انظري إلى كلِّ الأطفال الضعيفة من حَولنا! إنه أفضل طفل ...»

قالت السيدة ريدوود: «إنَّه جيدٌ بدرجةٍ زائدة عن الحَدِّ.»

فأجابها ريدوود مطمئنًا إيَّاها: «لن يستمرَّ ذلك. إنها مجرد بداية يمرُّ بها.»

لكنه كان يعلم جيدًا أنه سيستمرُّ في النمو. وقد كان؛ فببلوغ هذا الطفل اثني عشر شهرًا من عمره، كان طوله أقل من خمس أقدام ببوصة واحدة فقط ووزنه ... لك أن تتخيَّل؛ كان في الواقع بحجم أحد تماثيل الملائكة التي تعلو كنيسة القدِّيس بُطرس في الفاتيكان، وصار تشبُّثه الحنون بشَعْر الزائرين ووجوههم حديث ويست كنزنجتون. أُعِدَّ له كرسي ككراسي المُقعَدين لحَملِه من حضانته وإليها، واختيرت له جليسة شابَّة مفتولة العضلات اعتادت اصطحابه في نُزهاته داخل عربة لتسلق المرتفعات من طراز بانهارد صُنعت خِصِّيصَى له. إنه لمن حُسن الحظ أنَّ ريدوود كان مُؤهَّلًا لأداء دور الشاهِد الخبير علاوةً على وظيفته كأستاذٍ جامعي.

بعد أن يتجاوز المرءُ الصدمة الأولى عند رؤية الحجم الهائل لصغير ريدوود، وهكذا كان بالفعل، يمكن أن يراه طفلًا وضيئًا جميلًا على نحو لافت للنظر. هكذا أخبرني من اعتادوا رؤيته بصفة شبه يومية وهو يتجول داخل عربته على مهل في أنحاء هايد بارك. كان نادرًا ما يبكي أو يحتاج إلى من يهدئ من روعه. اعتاد أن يُمسك بخرخاشة كبيرة وأحيانًا كان يمضي مُوجِّهًا التحية إلى سائقي الحافلات ورجال الشرطة مُناديًا «دادا!» و«بابا!» بطريقةٍ ودودة وحضارية.

اعتاد سائق الحافلة أن يهتف قائلًا: «ها هو طفل طعام العمالقة الضخم.»

فيعلِّق الراكب في المقعد الأمامي: «يبدو في صحة جيدة.»

فيرد سائق الحافلة موضحًا: «يتناول الطعام من زجاجة. يقولون إنها بسعة جالون كامل وأنها صُنعت خِصِّيصَى له.»

فيختتم الراكب في المقعد الأمامي المحادثة قائلًا: «طفل في صحة جيدة للغاية على أي حال.»

عندما أدركت السيدة ريدوود أن نمو طفلها كان يستمر بالفعل إلى أجل غير مُسمًّى وعلى نحو غير منطقي — وقد أدركت ذلك حقًّا لأول مرة عندما وصلت العربة المتحركة

المُزوَّدة بمُحرك — غَلَبَها الحزنُ والأسى. وأعلنت أنها لا ترغب أبدًا في دخول حضانتها مرة أخرى، وتمنَّت لو أنها ماتت، ولو أنَّ الطفل قد مات، ولو أن الجميع قد ماتوا، بل وتمنَّت لو لم تتزوَّج ريدوود قط، ولو لم يتزوَّج أي رجل أي امرأة، ثم انزوت إلى غرفتها الخاصَّة، حيث ظلَّتْ لا تذُوق إلا مرَق الدجاج تقريبًا لمدَّة ثلاثةِ أيام. عندما جاء ريدوود ليُعاتبها، ضربت الوسائد ببعضها بعضًا وعقدت شعرَها.

قال ريدوود: «إنه على ما يُرام. من الأفضل أن يكون كبيرًا. لن تُحبِّيه وهو أصغر من الأطفال الآخرين.»

«أريده أن يكون مثل الأطفال الآخرين، لا أصغر ولا أكبر. أردته أن يكون صبيًّا صغيرًا لطيفًا، تمامًا مثلما جورجينا فيليس فتاة صغيرة لطيفة، وأردت أن أربيه كطفل لطيف بطريقة لطيفة، وها هو ذا.» ثم انقطع صوت المرأة المسكينة «يرتدي مقاس رقم أربعة في الأحذية كالبالغين ويُدفَع في عربة تعمل ... بالبنزين!»

ثم بدأت السيدة ريدوود تنوح قائلةً: «لا أستطيع أبدًا أن أحبه، أبدًا! لا يمكنني تحمله! لا يمكن أن أكون أمًّا له، كما أردت أن أكون!»

ولكن في النهاية دبَّروا خطةً لإدخالها إلى الحضانة، حيث يتأرجح إدوارد مونسون ريدوود («بانتاجرويل» لم يكن إلا لقبًا لاحقًا) في كرسي هزَّاز مقوًّى خِصِّيصَى لأجله ويبتسم وهو يقول «جوو.» و«واو.» فَلانَ قلبُ السيدة ريدوود تجاه طفلها من جديد، وأقبلت نحوه لتحتَضِنَه بين ذراعَيها وبكَت.

خاطبتْهُ وهي تجهش بالبكاء: «لقد فعلوا شيئا بك، وسوف تنمو وتنمو، يا عزيزي؛ ولكن أيًّا كان ما يُمكنني فعله لتربيتك تربيةً صحيحة فسأفعله لك، مهما قال والدك.»

أمَّا ريدوود، الذي ساعد على جلبها إلى الباب، فقد عبر الردهة شاعرًا بارتياحٍ كبير. (إيه! لكنه عملٌ مهين أن يكون المرء رجُلًا ... وسط نساءٍ تلك طبيعتُهُنَّ!)

٦

قبل أن ينصرِم العامُ كان هناك، إضافةً إلى مَركبة ريدوود الرائدة، عددٌ كبير من العربات ذات المُحرك في شوارع غرب لندن. قيل لي إنَّ عددها وصلَ إلى إحدى عشرة عربة؛ ولكنَّ الاستقصاءات الأكثر دقَّةً تعطي أدلَّة جديرة بالثقة عن وجود ستٍّ فقط داخل مدينة لندن الكبرى. يبدو أن مفعول مادة هرقليوفوربيا كان مُختلفًا باختلاف البِنى الجسدية. لم تكن المادة في بادئ الأمر مهيأة للحقن، وما من شكٍّ أن نسبةً مُعتبَرة من البشر غير

قادرين على امتصاص هذه المادة عن طريق مسار الهضم الطبيعي. فقد أُعطيَت، على سبيل المثال، إلى أصغر أبناء وينكلز، ولكن يبدو أنه كان عاجزًا عن النمو، لو كان ريدوود محقًّا، تمامًا كما كان والده عاجزًا عن الفهم. في المُقابل، تضرَّر آخرون، وفقًا لجمعية المكافحة التامَّة للطعام المُكبِّر، على نحوٍ غير مفهوم من هذه المادة وتدهورت حالتهم جراء الإصابة ببعض أمراض الأطفال. أمَّا أبناء كُوسَار فقد اعتادوا تناول الطعام المُكبِّر بنهمٍ مُذهل.

لا شكَّ أن اختراعًا من هذا القبيل لا يُمكِن تطبيقُه ببساطةٍ تامَّة في حياة البشر؛ فالنموُّ بوجهٍ خاصٍّ عملية مُعقدة ولا بدَّ أن يعتري التعميمات بعضٌ من انعدام الدقَّة، لكن يبدو أن القانون العام للطعام المكبِّر هو كالتالي: عند إدخاله بأيِّ طريقةٍ إلى جِسم الإنسان فإنه يُحفِّزه بالدرجة ذاتها تقريبًا في جميع الحالات. يزيد هذا الطعام من نسبة النموِّ بمقدار ستٍّ إلى سبعِ مرَّات، ولم تزْدَد النسبة عن ذلك، مهما زادت كميَّة الطعام المُتناوَلَة. تبيَّن أن تناوُل مادة الهرقليوفوربيا بكمياتٍ تفُوق الحدَّ الأدنى اللازم أدَّى إلى اضطراباتٍ مَرضيَّة ذات صلة بالتغذية وتكوُّن العظام بالإضافة إلى الإصابة بالسرطان والأورام وما شابَه، كما سرعان ما اتَّضح أنه ما إن يبدأ النموُّ بهذه النسبة الكبيرة حتى يستمر بتلك النسبة، وأنَّ التعاطي المستمِرَّ للمادة في جرعاتٍ صغيرة لكن كافية أمرٌ حَتْمي.

في حال التوقف عن تناول الطعام أثناء استمرار النمو، فإن الكائن يتملكه أولًا إحساسٌ غامضٌ بالارتباك والقلق ثم يمرُّ بفترة من الشراهة — كما هو الحال بالنسبة إلى الفئران الصغيرة في هانكي — يُعاني بعدها نوعًا من فقر الدم الشديد ثم يمرض ويموت. عانت النباتات بطريقةٍ مُشابهة. غير أنَّ هذا لم ينطبق إلا على فترة النمو فقط؛ فبُمجرَّد أن يبلغ الكائن مرحلة البلوغ — تَمثَّل هذا في النباتات بتشكُّل أول براعم الزهور — تتراجع الحاجة والشهيَّة للهرقليوفوربيا، وما إن يصير النبات أو الحيوان بالغًا تمامًا حتى يُصبح في استغناءٍ كامل عن أي جرعاتٍ إضافية من هذه المادة. إن الكائن يُضحَى كما لو كان قد خُلِق خلقًا جديدًا بهذه المقاييس الجديدة. هذا ما أثبتتْه الأشواك المُحيطة بهيكليبراو والحشائش النامية على المنحدر؛ فقد أنتجت بذرةُ كلٍّ منها براعمَ عملاقة.

سرعان ما بدأ ريدوود الصغير، طليعة هذا النوع الجديد وأولُ طفلٍ على الإطلاق يتناول الطعام المُكبِّر، في الزحف في أنحاء حضانته وتحطيم الأثاث والعضِّ كالحصان

والقرْص كالكلَّابات والصياح بكلماتٍ طفولية عملاقة مُخاطبًا بها مُربيته ووالدته ووالدَه المُروَّع الفَزِع والذي كان مصدر هذا البلاء.

كان الطفلُ مُحمَّلًا بالنوايا الحسنة؛ فقد اعتاد أن يُردِّد «بادا كن مُهذَّبًا، كن مُهذَّبًا.» بينما الأشياء تتطاير من حوله، كان «بادا» هو نطقُه لاسم بانتاجرويل، وهو اللقب الذي أطلقه عليه ريدوود. نجح كُوسَار، مُتجاهلًا قانون الأضواء القديمة الذي سرعان ما أدَّى إلى بعض المتاعب، في إنشاء مبنى يقع فوق قطعة أرض فضاء متاخمة لمنزل ريدوود، وذلك بعد خوضه صراعًا مع لوائح المباني المحلية. تكوَّن هذا المبنى من غرفة للألعاب والدراسة والنوم من أجل أبنائهم الأربعة. كانت هذه الغرفة مُريحة وجيدة الإضاءة وتقارب مساحتها ستِّين قدمًا مربعًا ويبلغ ارتفاع سقفها أربعين قدمًا.

افتُتن ريدوود بتلك الحضانة العملاقة بينما انهمك في بنائها مع كُوسَار، وسرعان ما تلاشى شغَفُه بالمنحنيات أمام احتياجات ابنه المُلحَّة، وهو الذي لم يتخيَّل قطُّ أنه سيكفُّ عن وَلَعِه بها. قال ريدوود لكُوسَار ذات مرة: «إنَّ إعداد حضانةٍ يتضمَّن كثيرًا من التفاصيل. الكثير؛ جُدرانها وكل الأشياء داخلها سوف تُخاطب تلك العقول الجديدة وتُعلِّمها آلافَ الأشياء.»

ردَّ كُوسَار وهو يسارع بالتقاط قُبعته: «بالتأكيد.»

تعاوَنَ الرجُلان في انسجام، لكن ريدوود ساهم بأغلب النظريات التعليمية والتربوية المطلوبة …

حَرَصا على تلوين الجدران والألعاب الخشبية بألوانٍ زاهية؛ غلب اللون الأبيض المُريح على الغرفة، لكن كانت هناك أيضًا درجاتٌ من الألوان الزاهية لدعم خطوط الإنشاء البسيطة؛ فقد قال ريدوود: «لا بدَّ أن تكون الألوان زاهية.» فأضافا في موضعٍ من الغرفة حلقةً من المربعات ذات الألوان القرمزية والبنفسجية والبرتقالية والفسفورية والزرقاء والخضراء، من مُختلف الدرجات والظلال، وكان على هؤلاء الأطفال العمالقة ترتيب هذه المربعات وإعادة ترتيبها كيفما يشاءون. أضافَ ريدوود: «يجب أن تتبع الديكورات المنوالَ نفسه. دعهم يتعرَّضون في البداية لشتَّى تدرُّجات الألوان. لا أجدُ سببًا يجعلنا ندفعهم إلى تفضيل لونٍ أو تصميمٍ مُعين.»

ثم «إنَّ المكان يجب أن يكون مفعمًا بالتسلية؛ فالتسلية بمنزلة الغذاء للأطفال، أما الفراغ فهو من ضروب التعذيب والتجويع. يجِب أن يكون حول الأطفال كميةٌ هائلة من الصور والرسوم.» بالرغم من ذلك، لم تحمِل الجدران أيَّ صورٍ بصفة مستمرة، لكنهما

زوَّدا الأطفال بإطاراتٍ فارغة توضَع فيها صور جديدة ثم تُنقَل إلى ملفٍّ متى زال شغفُهم بها. احتوت الحضانة على نافذةٍ واحدة تطلُّ على الشارع، وفي سبيل مزيدٍ من التسلية، أنشأ ريدوود فوق سطحها قُمرة مُظلمة تطلُّ على شارع كنزنجتون الرئيسي وجزء غير قليل من حدائقه.

في إحدى زوايا الحضانة كانت تقبع الأداة الأهم، إطار العَدِّ، وهو قطعة معدنية متينة ذات زوايا مُدوَّرة تبلغ مساحتها أربع أقدام مربعة، في انتظار شحذِ المهارات الحسابية الناشئة لدى الأطفال العمالقة. تضمَّنت الحضانة أيضًا القليل من مُجسَّمات الخِراف الصوفية وما شابهها من تلك الدُّمى، لكن كُوسَار فاجأ ريدوود يومًا ما، ودون تفسير، بإحضار عددٍ كبير جدًّا من الدُّمى (كانت جميعها ذات حجم كبير للغاية بحيث لا يمكن للأطفال ابتلاعُها) داخل ثلاث عرباتٍ، بحيث يمكن تكديسها فوقَ بعضها البعض ورصُّها في صفوفٍ ودحرجتُها وعضُّها وهزُّها وخشخشتُها وضربُها ببعضها البعض والسقوطُ فوقَها وشدُّها وفَتْحُها وإغلاقُها وتجربتُها إلى ما لا نهاية. إلى جانب ذلك، تضمَّنَت الحضانة الكثيرَ من القوالب الخشبية المستطيلة الشكل المتنوعة الألوان وقوالب من الخزف المصقول وقوالب من الزجاج الشفاف وقوالب من المطاط الطبيعي، وألواحًا للكتابة، ومخاريط عادية ومخاريط مقطوعة وأسطوانات، وأشكالًا كروية مفلطحة ومتطاولة، وكرات مصنوعة من شتَّى الخامات، مُصمتة ومجوَّفة، والكثير من الصناديق المختلفة الأحجام والأشكال، ذات أغطية بمُفصَّلاتٍ وأغطية دوَّارة وأغطية بالكبس، وأطواقًا من المطاط والجلد، وعددًا من القطع الخشنة القوية التي تُضَم إلى بعضها البعض فتُشكِّل هيئة إنسان. قال كُوسَار لريدوود: «أعطِهم هذه القطع. واحدةً تِلوَ الأخرى.»

رتَّب ريدوود هذه الأشياء داخل خزانة قائمة في إحدى الزوايا. حمل أحد جدران الغرفة سبورةً مُثبَّتة على ارتفاعٍ مناسب لطفل يتراوح طوله من ست إلى ثماني أقدام، بحيث يتسنَّى للأطفال الكتابة عليها بالطباشير الأبيض والمُلوَّن، وإلى جوارها دفتر للرسم مُتعدِّد الأوراق يمكن أن يرسموا عليها بأقلام الفحم، ومكتب صغير مُزوَّد بأقلام رصاص وكمية كبيرة من الأوراق ليتعلَّم عليها الأطفالُ الرسمَ. علاوةً على كل ما سبق، طلب ريدوود، وكان واسع الخيال، شحنةً من الأنابيب الضخمة لحَمْل الألوان السائلة وصناديق من ألوان الباستيل بحيث تصل على وجه السرعة وتكون جاهزةً متى دعَت الحاجة إليها. لم يَفُتْ ريدوود أن يضع صندوقًا أو نحو ذلك من مادة البلاستيسين والصلصال، واقترح قائلًا: «في البداية، سوف يُساعده مُعلمه على صُنع الأشكال، وعندما يزداد مهارةً سوف يُقلِّد نماذج الحيوانات. هذا يُذكِّرني بأنه كان عليَّ أن أعدَّ له صندوقًا للعُدَّة!

أما بالنسبة إلى الكتب، فلا بدَّ أن أتخيَّر له عددًا كبيرًا من الكتب ليُطالعها، ويجب أن تكون كبيرة الحجم. ما نوعية الكتب التي سيحتاجها؟ يجب أن تُغذي خياله وتُنمِّيه؛ فالخيالُ هو تاج كل عملية تعليمية، والعادات العقلية والسلوكية السديدة عرشها. إنَّ الإنسان العديم الخيال لهوَ أقرب إلى الهمجية، وصاحب الخيال الوضيع هو مثال للشهوانية والجُبن. أما ذو الخيال النبيل فهو مسيح يسير على الأرض من جديد. لا بدَّ أن يحلم، في الوقت المناسب، بعوالم سحرية بهيجة وغيرها من أحلام الطفولة الغريبة الماتعة، لكن ينبغي أن يستمدَّ غذاءه العقلي بصورةٍ أساسية من الواقع البديع. سوف أجلب له قصصًا عن أسفار الإنسان ومُغامراته حول العالم وكيف غزا هذا الكوكب، وقصصًا عن الحيوانات، وكُتبًا عملاقة ذات صورٍ رائعة وواضحة للحيوانات والطيور والنباتات والمخلوقات العجيبة، وكتبًا عملاقة عن أعماق البحار وأسرار السماوات؛ ولن يفوتني أن أمدَّه بكتبٍ عن تاريخ جميع إمبراطوريات العالم وجغرافيتها وأن أطلعه على صور وحكايات جميع القبائل البشرية وعادات البشر وتقاليدهم. لا بدَّ أن يقتني كتبًا وصورًا تشحذ حسه الجمالي؛ صورًا يابانية رقيقة تزرع في قلبه حبَّ محاسن الطير ومحاليق النباتات والأزهار المتساقطة، وصورًا من الثقافة الغربية أيضًا لرجال لَبِقين ونساء أنيقات وتجمُّعات لطيفة ورحاب البحار واليابسة الفسيحة. أضِفْ إلى ما سبق الكتبَ التي تتناول مِعمار البيوت والقصور؛ فلسوف يصمِّم غرفًا ويبتكر مُدنًا.

أظنُّ أن عليَّ أن أعرِّفه على قليلٍ من الفنون المسرحية.

ثم إن هناك فنَّ الموسيقى!»

أمعن ريدوود التفكير في الأمر ثم قرَّر أنه ربما من الأفضل لابنه أن يبدأ بالعزف على آلة هارمونيكا عذبة الصوت ذات جوابٍ واحد، على أن يزيد من عدد الجوابات فيما بعد. قال مُتحدثًا إلى نفسه ذات يوم: «سوف يعزف على هذه أولًا ويتعلم الغناء وأسماء النغمات، ثم بعد ذلك ...؟»

تطلَّع إلى حافة النافذة فوق رأسه وحاول أن يقيس بعينِه حجم الغرفة.

ثم قال: «سوف يكون عليهم بناء البيانو الخاص به هنا. سيُحضرونه قِطَعًا منفصلة.»

راحَ ريدوود يتنقَّل هنا وهناك وسط هذه الترتيبات، مثل طيفٍ صغير قاتم مُغرقٍ في التأمُّل. لو كان بوسعكم رؤيته هناك لبدا لكم كرجلٍ لا يتجاوز طوله عشر بوصات وسط أغراض الحضانة المُعتادة. فوق أرض الحضانة وُضِعَ بساط ضخم — كان في الواقع

سجادة تركية — بلغت مساحته أربعمائة قدم مربع ليَحبُوَ فوقه ريدوود الصغير — وقد امتد حتى وصل إلى المُشعِّ الكهربائي المحوط بشبكة أمانٍ والمُعد لتدفئة المكان كاملًا. استعان كُوسَار بأحد رجاله لتثبيت الإطار العملاق الذي من المُقرر أن يحمل الصور التي تتبدَّل. استند إلى الحائط كتابٌ ضخم بحجم باب المنزل يضمُّ صفحاتٍ سميكة لتثبيت عينات النباتات عليها، وتبرُز من هذا الكتاب ساقُ أحد النباتات وحافة إحدى أوراقه وإحدى أزهار حشيشة القزاز. تتميَّز جميعها بالحجم العملاق الذي سرعان ما سيجعل شُهرة آرشوت تطبق آفاق عالَم النباتات …

ساور ريدوود شيءٌ من الرِّيبة بينما هو واقفٌ وسط كل هذه الأشياء.

قال ريدوود وهو يُحدِّق في السقف البعيد: «إذا استمرَّ الأمرُ بالفعل …»

نما إلى سَمعه من بعيدٍ صوتٌ يُشبِه خوار ثَور صاخِب، وكأنه يُجيبه.

أتمَّ ريدوود قوله: «فسوف يستمرُّ كما ينبغي. أمرٌ بديهي.»

تَبِعَ ذلك طرقاتٌ رنَّانة فوق طاولة، تلاها صرخةٌ مجلجِلة: «جوولوو! بووزوو! بزز …»

تبلورت فكرة مختلفة في ذِهنه عبَّر عنها قائلًا: «أفضل ما يُمكنني فِعله هو أن أعلِّمه بنفسي.»

ازداد ذلك الطرْق إصرارًا. خُيِّل إلى ريدوود لوهلة وكأنَّ هذا الصوت يُشبه في إيقاعه اضطراب مُحركٍ ما — مُحرك تخيَّله لقطار الخطوب التي تتوالى عليه. قطع هذه الخيالات صوتُ طرقاتٍ حادَّة تكررَتْ على الباب.

أدرك ريدوود أنَّ شخصًا كان يقرَع الباب، فصاح قائلًا: «تفضَّل.» فانفتح الباب، الذي كان بضخامة أبواب الكاتدرائيات، قليلًا ببطء. انقطع صرير الباب وظهر بانزنجتن من الفُرجَة وعليه سَمْت ودود يُطلُّ من تحت صلعته البارزة ونظارته.

همس بانزنجتن وكأنه يَشِي بِسِرٍّ: «لقد غامرتُ بالمجيء لأستطلِع المكان.»

فأجابه ريدوود: «أقبِل.» فاستجاب بانزنجتن مُغلقًا الباب من خلفه.

أقبَلَ بانزنجتن عاقدًا يدَيه خلفَ ظهره. تقدَّم خطواتٍ معدودة مُتلفتًا مثل الطيور ومُحدِّقًا فيما حولَه من أبعاد، ثم حكَّ ذقنه مُتأمِّلًا.

بادر بانزنجتن قائلًا بصوتٍ خافت: «كلما جئتُ إلى هذا المكان، أدهشني بضخامته.»

ردَّ ريدوود وهو يدير نظره في المكان أيضًا وكأنه يحاول ألَّا يفلت هذا الانطباع البادي: «أجل. فسوف يكونون ضخامًا كذلك، كما تعلم.»

علَّق بانزنجتن بنبرة يشوبُها الخوف: «أعلم. ضخامًا جدًّا.»

تبادلا نظراتٍ تكاد تنطق بالقلق.

ثم أضافَ بانزنجتن وهو يفرُك أرنبة أنفه ويرمُق ريدوود بنظرة مُرتابة وكأنه يطلبُ تأكيدًا: «ضخامًا جدًّا بالفعل. جميعهم كما تعلم سيكونون ضخامًا على نحوٍ مُخيف. لا يَسعُني أن أتخيَّل — حتى وسط هذه الحضانة العملاقة — مدى ما سيكونون عليه من الضخامة.»

الفصل الخامس

شفوف السيد بانزنجتن

١

بينما كانت اللجنة الملكية المَعنيَّة بالطعام المُكبِّر تُعدُّ تقريرها، بدأت مادة الهرقليوفوربيا تثبت قُدرتها على التَّسَرُّب. كان التوقيت المُبكِّر لهذا التسريب الثاني هو أسوأ ما يمكن أن يحدُث من وجهة نظر كُوسَار؛ حيث كانت مُسوَّدة التقرير المُعدَّة تُشير إلى أنَّ اللجنة، تحت وصاية الدكتور ستيفن وينكلز، العضو الأكثر نفوذًا وأستاذ الطب البشري والحاصل على زمالة الجمعية الملكية وزمالة كلية الأطباء الملكية وغيرها الكثير من الألقاب، كانت قد أقرَّت بالفعل بأن حدوث مثل تلك التسريبات العَارِضة هو ضربٌ من الخيال يستحيل أن يحدث، وكانت قاب قوسين أو أدنى من التَّوصية بأن تُعهَد عملية تصنيع طعام العمالقة إلى لجنة ذات كفاءةٍ (تتكوَّن من الدكتور وينكلز بصورة رئيسية) تكون لها السلطة الكاملة على بيع المُنتج، الأمر الذي كان ليُطمئن جميع الاعتراضات المنطقية الرَّافضةِ لإتاحته مجانًا. كان من المُقرَّر لهذه اللجنة أن تحظى باحتكارٍ مُطلَق. وإنه لمن المفارقات المثيرة للسخرية أن تحدُث بَاكورة الموجة الثانية من التسريبات وأشدُّها إثارةً للفزع على بُعد خمسين ياردة من كوخ صغير في قرية كستون يُقيم فيه الدكتور وينكلز أثناء شهور الصيف.

لم يعد هناك الآن أيُّ مَدعاة للشك أنَّ رفض ريدوود لإطلاع الدكتور وينكلز على تفاصيل تركيبة هرقليوفوربيا ٤ قد أثار في نفسه رغبة مُلِحَّة لم يعهدها في خَوض بحور الكيمياء التحليلية. لم يكن الدكتور وينكلز يمتلك مهارات الكيميائي المُحنَّك، وربما لهذا رأى ألَّا يُجريَ تجاربه في أحد مختبرات لندن المُجهَّزة تجهيزًا فائقًا والتي كانت تحت تصرُّفه، بل حبَّذ العمل منفردًا في جوٍّ من السِّرية دون استشارة أحد بداخل معملٍ صغيرٍ مُتواضع ذي حديقة بمؤسسة كستون. ولَّما لم يكن مُفعمًا بالحماس ولا بالمهارات اللازمة

للوصول إلى مَسعاه، فيُمكن لأي شخص أن يستنتج أنَّ عزمه قد وهَن وتوقَّف عن جهوده البحثية بعد قُرابة شهرٍ من العمل المُتقطِّع.

كان المعمل ذو الحديقة الذي أجرى فيه تجاربه مُجهَّزًا تجهيزًا بسيطًا ومزوَّدًا بصنبور مياهٍ على رأس ماسورة رأسية تُصرَف فضلته إلى أنبوبٍ يَصبُّ في بركةٍ نَمَا العُشب على حوافها أسفل شجرةٍ من أشجار جَار الماء التي تقِفُ في ركنٍ منزوٍ من أرض الكلأ خارج سياج الحديقة. كان بالأنبوب شرخٌ تسرَّبت منه بقايا طعام الآلهة إلى بِركَةٍ صغيرةٍ وسط أجمات كثيفة من العُشب في توقيتٍ موافقٍ تمامًا لمُستهل الربيع.

دَبَّت الحياة في كل ما كان في هذا الرُّكن الصغير المُغطَّى بالنفايات؛ بيوض الضفادع هَائمَة على سطح المُستنقع تضطرب بشراغِفِها التي تحاول شقَّ أغلفتها الهُلامِية، ومجموعة من حلزونات المياه العذبة تَشقُّ طريقها إلى الحياة ببطءٍ، وتحت السطح الأخضر لسيقان العشب كانت يرقاتُ خنفساء الماء تكافح لتَخرُج من أكياس بيضها. أشكُّ في أن القارئ يعرف أنَّ يرقات تلك الخُنفساء تُسمَّى، ولا أعلم لماذا، نمور الماء. إذا نظرتَ إليها تَراها كائناتٍ غريبةَ الهيئةِ ذوات مفاصل، قوية البِنية وسريعةً في حركاتِها وتسبح عادةً مُيمِّمةً رأسها إلى أسفل وذيلها خارج الماء. يبلغ طول اليرقة كطول أول فقرة من إبهام رجلٍ وزِدْ عليها بوصتين. وهذا طولُ تلك الكائنات التي لم يدخل طعام الآلهة في سلسلة غذائها بعد، ولها فَكَّان حادَّان أنبوبيَّان يلتقيان في مُقدَّم رأسها مُزوَّدان بأسنانٍ حادة تستعملهما عادةً لِمَصِّ الدم من ضحاياها …

كان أولُ ما حَظِي بتذوق حبيبات طعام الآلهة هو تلك الشَّراغِف الصغيرة وحلزونات المياه العذبة الصغيرة. ما إن ذَاقت تلك الشَّراغِف الصغيرة المُتمَعِّجة، على وجه الخصوص، الطعام حتى أقبلت على التهامه بنَهَمٍ شديد، ولكن ما إن نَمَا أحدُ هذه الشراغف وبرَزَ في عالَم الشَّراغِف الصغير هذا بمحاولته التهام أحد إخوانه الصغار كطعام مُساعِد بجانب حميته النباتية، حتى طعنَتْه إحدى يرقات الخنافس بشوكتها المعقوفة الماصَّة للدماء، فنفذت الشوكة إلى قلبه، ومع تدفق الدَّم عَبر اليرقة انتقلت مادة الهرقليوفوربيا ٤ في صورة محلولٍ إلى ثنايَا كائن جديد. بجانب تلك الوحوش، لم يكن لأي كائن فرصة لمُزاحمتها في حِصَّتها من طعام الآلهة سوى العُشب النَّامي على أطراف البركة والطحالب الخضراء المُخاطِية وبعض شَتلات العُشب وسط طِين القاع. سرعان ما حَمَلت فضلات تنظيف إحدى التجارب دفقة طازجة من الطعام إلى البركة التي فَاضت وأخذت تشقُّ

طريقها نحو المستنقع القريب أسفل جذور شجرة جارِ الماءِ حاملةً معها كفاح هذه المخلوقات المشئوم في سبيل البقاء ...

كان أول شخصٍ يكتشف ما يَدُور هو السيد لوكي كارِنجتن، مُدرس العلوم الخاصة بمجلس التعليم اللَّندني، ويعمل في وقت فراغِه خبيرًا في طحالب المياه العذبة. ولا شكَّ أنه لا يُحسَد على اكتشافه. أتى السيد كارِنجتن إلى مُتنزَّهِ كستون العامِّ ذاك اليوم ليملأ عددًا من أنابيب العينات ليفحصها في وقتٍ لاحق. أقبل كارِنجتن ومعه ما يقرب من اثني عشر أنبوبًا مسدودًا بقِطع الفِلِّين، تصطَكُّ معًا في جيبه مُصدِّرةً قعقعةً خافتة، واعتلى قمَّة التل الرملي مُتكئًا على عصًا مُدبَّبة، وانحدر باتجاه المُستنقع حيث لمحه بستانيٌّ شابٌّ، كان يعتَلِي سُلَّم مطبخٍ ويُقلِّم سِياج حديقة الدكتور وينكلز، وهو يَطرُق هذا الركن المهجور فرآه وما يفعله غامضًا ومُسلِّيًا في الوقت ذاته حتى إنه انشغل بمشاهدته عن كثَب.

رآه البُستاني يَدنُو من حافة المُستنقع مُتشبثًا بجذر شجرة جارِ الماءِ المُعمِّرة ثم يُمعِن النظر في الماء، لكنه بالتأكيد لم يقدِّر دهشة السيد كارِنجتن وبهجته عندما حطَّ ناظريه على تلك الكتل والخيوط الكبيرة الغريبة المنظر للطحالب اللزِجة الجاثمة في القاع. لم يعُد هناك أي شَرَاغف باقية في ذلك الوقت — فكلها كانت قد قُتلت — وبدا أن السيد كارِنجتن لم يرَ أيَّ شيءٍ لم يعتده إلا تلك النباتات المُفرطة الحجم. شَمَّر عن ساعِده حتى المرفق ومال للأمام وغَمَس ساعِده في الماء يَنشُد عيِّنة من تلك الطحالب. غاصت يدُه للأسفل وإذا بشيءٍ ينبثِق فجأةً مُعكرًا صفو الظلِّ الظليلِ المُمتدِّ أسفل جذور الشجرة.

في لمح البصر، كان ذلك الشيء قد أنشبَ أنيابه في ذراع السيد كارِنجتن. كان مخلوقًا غريبًا، طوله قدَم أو يزيد، بُنِّيَّ اللون، ذا مفاصل، ويُشبه العقرب.

كان مظهره القبيح بجانب ألم عضَّتِهِ الحادِّ المبرِّح كافيَين ليُخلَّا بتوازن السيد كارِنجتن الذي ما إن شعَرَ بأنه سيسقط حتى صاح صياحًا عاليًا، ولكن لم يلبث أن طَاح في المُستنقع على وجهه.

رآه الصَّبيُّ يختفي وسَمِعَ تلاطُم الماء من حوله بينما يحاول الإفلات من الموت. ظهر هذا الرجل التَّعيس مُجددًا في مرمى بصر الصبي، ولكن هذه المرة بدون قبَّعته وهو يصرُخ بينما يحمله تيَّار الماء!

لم يسمع هذا الصبيُّ رجلًا يصرخ قطُّ قبل ذلك.

بَدا هذا السيد الغريب كما لو أنه يُصارع شيئًا ما على جانب وجهه الذي كان مُلطَّخًا بالدماء. لَوَّح بيديه تَلويح قانطٍ ووَثَب في الهواء ككائنٍ مذعور ثم شَرَع يَعدو عَدْوَ من

يخشى الهَلاك لمسافةٍ ما بين عشر إلى اثنتي عشرة ياردة، ثم سقط على الأرض وظَلَّ يتَدَحرَج حتى غاب عن نظر الفتى الذي نزل من فوق السُّلم ومَرَق من السياج في لمح البصر مُمسكًا، لحُسن الحظ، بمقصِّ العشب في يدَيه. قال إنه تحيَّر أثناء اندفاعه وسط شُجيرات الجَوْلَق الشوكية وكان على وشك أن يعود أدراجه مُتوجسًا من أن يكون ذلك الرجل مجنونًا، ولكن طمأنه مقصُّ العُشب الذي كان معه، وأوضح قائلًا: «كان يُمكنني أن أفقأ عينيه على أي حال.» رآه السيد كارِنجتن، ومن فوره عدَّل من سُلوكه ليبدو كرجلٍ عاقل ولكنه يائس. استجمع قُواه لينتصِب واقفًا على قدمَيه بعد عدة عثراتٍ، وقَدِمَ ليُقابل الصبي.

صرخ وقال: «انظر! لا أستطيع أن أنزِعها.»

وبنظراتٍ مُلئت رُعبًا تَطلَّع الصبي إلى هذا الشيء المُلتصق بوَجْنة السيد كارِنجتن وبذراعه العارية وبفخذه؛ ثلاثٌ من تلك البَرقات الرَّهيبة تضرب بأجسادها البُنيَّة الرَّخوة القوية العضلات وتنهَل من دمه بفكُوكها الكبيرة الناشبة بعمق في جلده. كانت لفُكوكها قبضة كقبضة كلاب البُلدُج، ولم تؤدِّ مُحاولات السيد كارِنجتن لنزع تلك الوحوش عن وجهه إلا إلى تمزيق جلده الذي تشبَّثت به، وصبْغِ وجهه ورقبته ومعطفه بلون الدم القِرْمِزي.

صرخ الفتى: «اثبت يا سيدي؛ سأجُزُّهم جزًّا.»

وبعُنفوان الصِّبْية في مثل سِنِّه في مثل تلك المواقف، بدأ يجُزُّ تلك الكائنات واحدةً واحدة، فاصلًا رءوسها عن أجسادها. «أجل!» راح يردد الفتى مقطبًا كلما سقطت إحداها أمامه. رُغم ذلك، كانت قبضاتُ هذه المخلوقات من الشدَّة والثبات حتى إن الرءوس المقطوعة ظلت لبرهة عالقة تعضُّ بوحشية وتمصُّ غذاءها، والدم ينهمر خارجًا من رقابها المبتورة، لكن الصبيَّ أجهَز عليها ببضع ضرباتٍ بمقصِّه أصابت إحداها السيد كارِنجتن نفسه.

راح كارِنجتن يردِّد: «لم أستطع أن أنتزعها!» ووقفَ هنيهةً يترنَّح وينزف بغزارة. أراحَ يدَيه الواهِنتَين على جُروحه يتحسَّسها، ثم نظر إلى راحة يديه يستطلع ما حصل. خَرَّ على رُكبتيه ثم سقط مَغشيًّا عليه عند قدَمي الصبي ووسط أعدائه المدحورين الذين ما زالت تتراقص أجسادهم. لحُسن الحظ، لم يخطر ببال الصبي أن يمسح وجهه بالماء، فالمُستنقع كان ما يزال يَعجُّ بتلك الكائنات المُروِّعة أسفل جذور شجرة جار الماء، بل رجع إلى البُستان طلبًا للمساعدة، وهُناك قابَل سائقُ عربة البستانيَّ وأخبره بما حدث تفصيلًا.

وعندما رجعا إلى مكان السيد كارِنجتن، وجداه جالسًا مَشدُوهًا يبدو عليه الوَهَن، ولكن كان بمقدوره تحذيرهم من الخطر الموجود بالمستنقع.

٢

وسط تلك المُلابسات، تنبَّه العالَم لأول مرة إلى أن طعام الآلهة قد تسرَّب مُجددًا، وفي غُضُون أسبوع واحد، كان مُتنزَّه كستون العَامُّ في أوْج نشاطه؛ فقد كان، كما يُسمِّيه علماءُ التاريخ الطبيعي، مركز توزيع. هذه المرة كانت مختلفة؛ فلا دبابير ولا فئران ولا حشرات أبي مقص ولا حتَّى نباتات القُراص، ولكن كان هُناك ما لا يقلُّ عن ثلاثة من عناكب الماء، والعديد من يرقات اليعاسيب التي سرعان ما نضجت وصارت يعاسيب بالغة أبهَرتْ أنظار سُكان كِنت بأجسامها الحوَّامة ذات اللون الأزرق الياقوتي، وتلك الطحالب الهلامية اللزجة التي نَمَت حتى بَلَغت حافة المستنقع ومدَّت رُقعتها الخضراء اللزجة مُندفعةً باتجاه بيت الدكتور وينكلز حتى وصلتْ إلى منتصف ممرِّ بُستانه. هُناك بدأ العُشب ينمو إلى جانب نبات الكُنبَاث وجار النهر ولم تتوقَّف عملية النمو حتى جفَّت مياه المُستنقع.

سُرعان ما أدركت أذهان النَّاس أنه لا يُوجد هذه المرة مركز توزيعٍ واحدٍ فقط، بل عدة مراكز؛ فبدون أدنى شكٍّ، هناك مركز توزيع في إيلينج، ومنه أتتْ أسرابُ الذُّباب والعناكب الحمراء، وهُناك واحدٌ في سنْبِري، حيث ثعابين الماء الضَّارية والتي يمكن أن تصِل إلى الشاطئ وتقتُل الخراف، وآخرُ في بلومزبِري حيث كان هناك بيت قديم تسكنه أجناسٌ عدَّة من الكائنات البغيضة، كما انطلقت منه سلالةٌ جديدة ومُروِّعة من الصراصير لتغزو العالَم؛ العالَم الذي أصبح فجأةً في مواجهةٍ مع أحداث هيكليبراو مرة أخرى، ولكنه يُواجِه هذه المرة جميع أنواع المسُوخ العملاقة من الحيوانات والحشرات المعروفة بدلًا من عمالقة الدَّجاج والفئران والدبابير. فكلُّ مركزٍ نَضَح بما يُميزه من حيواناتٍ ونباتاتٍ محلية …

نحن نعرف الآن أنَّ كلَّ واحدٍ من تلك المراكز يرتبط بصلةٍ بأحد مَرضى الدكتور وينكلز، ولكن لم يكن هذا واضحًا على الإطلاق في ذلك الوقت. كان وينكلز هو آخر من وُجِّهت إليه أصابع الاتهام فيما يخصُّ هذا الأمر. كانت هناك موجة طبيعية من الذُّعر والهلع والسُّخط، لكن ليس تجاه الدكتور وينكلز، بل تجاه طعام الآلهة؛ لكن سُخط الناس لم يكن مُوجَّهًا نحو طعام الآلهة بقدْر ما هو موجه نحو بانزنجتن، الذي أصرت

مُخيِّلة العامَّة منذ بداية الأمر على تحميله، مُنفردًا، المسئولية كاملة عن هذا الاختراع الجديد.

لَم تكن المُحاولة التي تَلتْ هذه الأحداث وَدَعت إلى قتله شنقًا دون مُحاكمة إلَّا واحدة من تلك الحوادث الرنانة التي تملأ صحف التاريخ بتفاصيلها، لكنها في الحقيقة أقلُّ الأحداث شأنًا وأهونها خطرًا.

إنَّ بداية تلك الانتفاضة هي أحد الألغاز المُحيِّرة، ولكن المؤكَّد هو أن نَوَاتها كانت أحد الاجتماعات المُعارضة للطعام المُكبِّر الذي عقده المتطرفون من حِزب كاترام في هايد بارك، ولكن ما من أحدٍ يُنسَب إليه طرحُ الفكرة أول مرة أو حتى التلميح بإطلاق مثل هذه الانتفاضة التي انضمَّ إليها نفرٌ كثيرٌ من الناس. إنها ظاهرة تُشكِّل مسألة عويصة أمام جوستاف لوبون: لغز سيكولوجية الجماهير. تُظهِر الحقائق أن جيشًا جرَّارًا وبغيضًا من الجماهير اللندنية تحرَّك، عصر يومٍ من أيام الآحاد قُرابة الساعة الثالثة، في هَرجٍ ومَرجٍ مالئين شارع ثرسداي ستريت ومُبَيِّتين نواياهم بقتل بانزنجتن ليصير عبرةً لغيره من الباحثين العلميِّين. دَنت الانتفاضة بجماهيرها من تحقيق مسعاها، في سابقةٍ لم تشهدها الشوارع اللندنية منذ انتفاضة سِياج هايد بارك التي اندلعت في مُنتصف الحقبة الفيكتورية السَّحيقة. دَنت الانتفاضة من هدفها دنوًّا شديدًا بالفعل حتى إنَّ مصير الرجل المسكين ظلَّ لساعة أو أكثر مرهونًا بكلمة تُطلقها هذه الحشود.

كان أولُ ما أدرك بانزنجتن من نُذُر تلك الانتفاضة هي جَلَبة النَّاس وضجَّتهم خارج منزله، فسَارَع إلى النَّافذة يستطلع الأمر جاهلًا بما هو على وشك الوقوع. لعلَّه أمضى وهلةً يُرَاقِب تلك الجماهير المُجتمعة عند مدخل المنزل وهم يُحاولون المرور من بين نفرٍ من رجال الشرطة حاولوا سدَّ طريقهم بلا جدوى، قبل أن يُدرك تمامًا دوره الهام في تلك الانتفاضة. سُرعان ما تنبَّه في لحظةٍ خاطفةٍ إلى أن هذه الحشود الهادرة الهائجة إنما تريده هو. كان بمفرده في الشقة حينها — ربما لحُسن حظه — فقد ذهبت ابنة عمِّه جين لاحتِساء الشَّاي مع إحدى قريباتها من جِهة أمِّها، وكان تصوُّره عن كيفية التصرُّف في ظلِّ هذه الظروف لا يفُوق معرفته بآداب يوم القيامة. أخذ يقطع الشقة جيئةً وذهابًا يستنصِحُ أثَاثَها عمَّا يفعله، تَارةً يُعمِل مفاتِحه في الأقفال فيُوصِدها ثم يُعمِلها تَارةً أخرى فيفتحُها؛ وتارةً يُهرع مسرعًا نحو الباب ثم يندفع باتجاه النافذة ثم يَدلف إلى غُرفة النَّوم وهكذا حتَّى أتاه بَوَّابُ الطابق.

ابتدره قائلًا: «أسرِع يا سيدي! عرفوا رقم شقتك من اللوحة في الرُّواق! وهم صعودٌ إليك الآن!»

قَاد البوَّابُ السيد بانزنجتن إلى الممر، الذي كان يُسمَع خلاله دويٌّ لضجيج آتٍ من الدَّرَج الرئيسي ويقترب شيئًا فشيئًا، وأغلقا الباب خلفهما وهُرِعا إلى الشقة المُقابلة التي فتحها البوَّاب بمفتاحٍ احتياطيٍّ يملكه، وقال:

«هذه هي فرصتنا الوحيدة.»

ثم دَفع إحدى النوافذ بعنفٍ فكشفت عن إحدى فتحات التهوية وأظهرت الجِدار الذي ثُبِّتَت فيه دعاماتٌ حديدية كوَّنت سُلَّمًا هو أخطر السلالم الجدارية وأشدُّها بدائية، ليستخدمه سكان الطوابق العُليا كمخرج في حالات الطوارئ. دَفع البَّوابُ السيد بانزنجتن خارج النافذة وأراه كيف يتشبَّث بالسُّلَّم ثم تَبِعه متسلقًا إلى أعلى. كان يستحثُّه وينكز قدميه بحلقة مفاتيح كلَّما تباطأ وكفَّ عن التسلق. بَدا لبانزنجتن كأن عليه أن يتسلق هذا السُّلَّم العمودي للأبد. نظر أعلى رأسه فرأى سور السطح بعيدًا جدًّا كأنه على بُعد ميل، أما أسفله ... فلم يشغل باله بما هو أسفله.

قال البوَّاب بصوتٍ عالٍ: «على رِسْلك!» وأمسك بكاحل السيد بانزنجتن مسكةً أفزعتْه وجعلته يُحكِم قبضته على الدعامة الحديدية من فوقه متعلقًا بها تعلُّق غريقٍ، وصاح صيحة المفزوع.

بَات جليًّا أن البَّوابَ قد كسر إحدى النوافذ وبدا أنه وَثَبَ مسافةً عظيمة جانبيًّا، ثم صَدَر صوتُ نافذةٍ تنزلق لأعلى في إطارها. كان يُعامل الأشياءَ بعنفٍ.

حرَّك السيد بانزنجتن رأسَه مُستديرًا بحرصٍ حتى تمكَّن من رؤية البوَّاب الذي أمره قائلًا: «انزل ستَّ درجات.»

بَدت تلك التنقُّلات ضربًا من الحماقة، ولكن على الرغم من ذلك أنزل السيد بانزنجتن قدمه ببطءٍ وحرصٍ شديدَين.

وعندما هَمَّ البوَّاب أن يُساعده من داخل النَّافذة المفتوحة، صرخ بانزنجتن: «لا تجذبني!»

خُيِّل إليه أنَّ الوصول إلى النَّافذة من مكانه على السُّلَّم سيكون عملًا بطوليًّا بالنسبة إلى ثعلبٍ طائر. في النهاية، لم يكن رجاؤه في أن ينجح الأمر هو ما شجَّعه على أن يخطو تلك الخطوة، بل ما جَال بخاطره أنه لو كان ليقتل نفسه مُنتحرًا فليكن انتحارًا لائقًا. جذبه البوَّاب إلى الداخل بقسوةٍ وقال: «يجب أن تنتظر هنا! فلن تُجدِي مفاتيحي نفعًا؛ فهذا قفلٌ أمريكي. سأخرج وأُغلق البابَ خلفي لأبحث عن بوَّاب هذا الطابق؛ لذلك

ستُحبَس هنا. لا تقترب من النَّافذة، هذا كل ما لديَّ لأقوله لك. هذا أشرس حشدٍ شهدتُه في حياتي. حتى إذا أيقنوا أنك قد هربت، فسيُطفئون غضبهم بتدمير أشيائك ...»

قال بانزنجتن: «لكن اللوحة في الرُّواق أخبرتهم أنني موجود.»

ردَّ عليه البوَّاب: «نعم، لسُوء حظك! حسنًا على أي حال، الأفضل ألَّا يجدوني.»

واختفى بعدما صفَق البابَ خلفه.

ومرةً أخرى تُرِك بانزنجتن ليتصرَّف بمفرده.

قاده تفكيره إلى الاختباء تحت السرير.

وهناك، سرعان ما وجده كُوسَار.

كاد بانزنجتن يُغشى عليه فزعًا عندما وجده كُوسَار؛ فقد هَجَم على الباب بكتِفِه كاسِرًا له بعد أن اندفع بعُرْض الممر.

قال كُوسَار: «اخرج يا بانزنجتن! لا بأس عليك، إنه أنا! علينا أن نُسرع خارجين من هُنا؛ سيُضرِمون النَّار في المكان، والبوَّابون يُخلون المبنى من السُّكان وقد رحل الخَدَم. يا له من حظٍّ أني وجدتُ الرجل الذي يعرف مكانك!»

ثم قال: «انظر هنا!»

نظر بانزنجتن من تحت السرير ورأى بعض الملابس الغريبة تحمِلها ذراع كُوسَار، ومن بينها لَمَح قَلنْسُوة سوداء نسائية في يده!

قال كُوسَار: «إنهم يُخلون المكان. إن لم يُضرموا النَّار فيه، فسيأتون إلى هنا. ربما لن تصل قوات النجدة قبل ساعةٍ من الآن. هذا وارد بنسبة خمسين بالمائة. في هذه الحشود مُثيرو شَغب، وكلما حَسُنَ أثاث الشقق التي يدهمونها، راق لهم سلبُها. من الواضح أنَّهم ينوون إخلاء المكان. هيَّا يا بانزنجتن! ارتدِ هذه التَّنورة واعتمر تلك القَلنسوة واخرج معي من هُنا.»

ردَّ عليه بانزنجتن: «أتقصد ...؟!» رافعًا رأسه في تعجُّب كسلحفاة.

قال كُوسَار: «أنا أعني ما قُلته بالضبط. ارتدِ التَّنورة واعتمر القلنسوة وهيَّا بنا!»

ثم سَحَب بانزنجتن فجأة بعنفٍ من تحت السرير وبدأ يُلبِسه لِبَاس شخصيته الجديدة كامرأةٍ عجوز من عامَّة الشَّعب.

شمر كُوسَار سروال بانزنجتن وجعله يخلع نعليه ثم خَلع ياقته فربطة عنقه فمِعطفه ثم صدريَّته، وأسْدل تنُّورة سوداء من أعلى رأسه ثم ألبسه صدريةً نسائية حمراء من الصُّوف تبعها بثوبٍ فوقها. أمره بخلع نظارته المُمَيِّزة لشخصيته، ثم وضع القَلنسوة

على رأسه وقال وهو يُحكم شدَّ خيوط القلنسوة: «رُبما ولدتَ لتكون امرأةً عجوزًا!» ثم جاء دور الوشاح والحذاء العالي السَّاق الذي يَلوي ثآليل القدم ليًّا فظيعًا حتى يكتمل التَّنكُّر. قال له كُوسَار: «هيا قِف وانزل إلى الطريق!» وأطاعه بانزنجتن.

قال له كُوسَار مُشجعًا: «سوف تنجح.»

وفي هيئته التَّنكُّرية هذه كَان يتعثَّر في مشيته بارتباكٍ مرتديًا تلك التَّنورة التي لم يعتدْها من قبل، ويُطلق لسانه بالدعاء على نفسه بتلك اللعنات التي اعتادتها النساء بصوتٍ رفيعٍ نشاز لكي يُتقن تنكره كامرأةٍ عجوز. وفي وسط زمجرة الجماهير عاقدي العزْم على شَنقِه، مَرَّ مُكتشفُ الهرقليوفوربيا ٤ عبر رواق عِمارة تشسترفيلد السَّكنِية واختلط مع الجُمُوع الغاضبة والمُضطربة ليختفيَ تمامًا من سلسلة الأحداث التي تتألَّف منها قصَّتُنا.

بعد ذلك الهُروب، لم يخطر لبانزنجتن ولو لوهلة أن يتدخَّل مرة أخرى في التَّطوير الرهيب لطعام الآلهة، وهو الذي بذل كلَّ ما في وسعه ليبدأه.

٣

انمَحَى من القصة كلُّ أثرٍ لهذا الرجل الضئيل الحجم الذي أطلق شرارتها الأولى، وبعد فترة اختفى كُلِّيةً من دُنيا الأشياء المرئية والمسموعة، ولكن لأنه مَنْ بدأ هذا الأمر برُمَّته، فمن اللائق أن نُفْرِد لرحيله قدرًا مُناسبًا من الاهتمام. قد يتصوَّره المرءُ في أواخر أيامه بالهيئة التي عرفتْهُ بها قرية تَنبِردج ويلز حيث ظهر ثانيةً بعد فترةٍ مؤقتةٍ من الاختفاء، حَالَما أدرك أن تلك الانتفاضة كانت مجرد زوبعةٍ عابرة لا معنى لها. ظهر ثانيةً تحت رعاية ابنة عمِّه جين، وأخذ يُعالج نفسه من صدمةٍ عصبية مُستبعِدًا كلَّ الاهتمامات الأخرى، وغير مكترثٍ — وهكذا بدا عليه — بالمعارك المُستعِرة بشأن مراكز التوزيع الجديدة والأطفال الذين يقتاتون على الطعام المُكبِّر.

اتَّخذ بانزنجتن من فندق ماونت جلوري للعلاج بالماء مقرًّا له حيث توجد مجموعةٌ فريدةٌ من الحمَّامَات؛ مثل حمَّام الفقاقيع الكربونية، وحمَّام سائل الكريُوزوت، والعلاج بالنَّبضات الكهربية، والتَّدليك، وحمَّام نبات الصَّنَوبَر، والحمَّام الإشعاعي، وحمَّام الضوء، والحمَّام الحراري، وحمَّام النِّشاء والشَّوْكَران، وحمَّام نخالة القمح والمنافث الإبرية، وحمَّام القَطران والزغب، وكُل ما يُمكن تخيُّله من أنواع الحمَّامَات. كرَّس خلاصة تفكيره لتطوير نظام العلاج الاستشفائي ذاك والذي حالَ الموت دون أن يُكمِله. كان في بعض الأحايين

يخرج في سيارة مُستَأجَرة مرتديًا معطفًا ذا أطراف مصنوعة من جلد الفُقمَة، وفي أحايين أخرى كان يمشي، إذا مكَّنته قدماه من ذلك، إلى ساحة البَنتَايلز حيث يرشف الماءَ المَعدنِي بصُحبة ابنة عمِّه جين.

أصبحت كتفاه المُعوجَّتان ولون جلده الوَردِي ونظَّارته اللامعة أحد مَعالم قرية تَنبِردج ويلز. لم يُعامله أحدٌ بجفاءٍ مُطلقًا، بل كان المكان والفُندق مُمتنَّين لوجوده المُميَّز بينهم؛ هذا التَّميُّز الذي لم يكن لأحدٍ على وجه الأرض أن يَسلُبه إياه. وعلى الرغم من رغبته في تَجاهل أخبار تطورات اختراعه العظيم في الصحف اليومية، كان إذا مَرَّ في بهو الفُندق أو خرج إلى البَنتَايلز وسَمِع أحدًا يهمس: «انظر! هذا هو!» لم تكن الابتسامةُ المرتسمة على ثَغره والبريقُ المتألق في عينيه يوحيان بأدنى شعور بالسُّخط.

هذا الجسد الضئيل؛ هذا الجسد المُتناهي الضَّآلة، كان من قَدَّم طعام الآلهة إلى العالَم! لا أدري أيُّهما أعْجَب؛ عَظَمة هؤلاء العُلماء والفلاسفة أم ضآلة أجسادهم. تَراه هُناك عند البَنتَايلز في معطفه المؤطر بالفراء واقفًا تحت النافذة الخَزفية تلك، حيث تَبَاشيرُ الرَّبيع بادية، ويرتشفُ المياه المعدنية من كأسٍ في يده، وإحدى عينيه تحدق من فوق إطار نظَّارته الذهبي في صرامةٍ غامضة إلى ابنة عمِّه جين، ثم يُهمهِم «ممم» ويرتشف رشفةً من المياه.

وهكذا نُخلد ذكرى مُكتشفنا ونرسُم صورةً أخيرة له في أذهاننا، ثم نتركه كمجرَّد نقطةٍ في طليعة الصورة، وننتقل إلى الصورة الأكبر التي تبلورت حوله، إلى قصة طَعامه، وكيف نما الأطفال العمالقة المُشتَّتون في الأرض يومًا بعدَ يومٍ في عالمٍ لم يسَعْهم، وكيف ضيَّقت قوانينُ الطَّعام المُكبِّر ومعاهداتُ الطعام المُكبِّر — التي كانت تُعدُّها اللجنة آنذاك — الخِنَاقَ عليهم أكثر فأكثر كلَّما كَبِروا عامًا فعامًا، حتَّى ...

الكتاب الثاني

الطعام في القرية

الفصل الأول

مجيء الطعام

١

لقد تشعَّب بالفعل محورُ قصتنا، الذي بدأ في مكتب السيد بانزنجتن، وراح يتفرَّع في اتجاهاتٍ عدَّة؛ لذا فإنَّ قصتنا من الآن فصاعدًا ستتعلق بمسألة التوزيع. إن تتبُّع طعام الآلهة يعني تتبُّع أفرُع شجرة تنمو بلا توقُّف؛ ففي غضون فترة قصيرة — عشرون عامًا تقريبًا — انتشر الطعام وزاد من أول نبتةٍ له في المزرعة الصغيرة بالقرب من هيكليبراو حتى وصل — ووصلت شُهرته وأثره — إلى جميع ربوع العالم. انتشر الطعام خارج حدود إنجلترا بسرعة كبيرة وسرعان ما وصل إلى أمريكا وجميع دول القارة الأوروبية واليابان وأستراليا ثم العالم أجمع، في خطواتٍ حثيثة نحو تحقيق هدفه الموعود. شقَّ الطعام طريقَه ببطءٍ سالكًا طرقًا غير مباشرة ومتحديًا ما لَقِيَه من مقاومة. لقد كان نموذجًا للضخامة الثائرة. على الرغم من التحيُّز ضدَّه، وعلى الرغم من القوانين واللوائح، وعلى الرغم من التحفُّظ العنيد الذي يُشكِّل أساسَ النظام البشري الرسمي، مضى طعام الآلهة، منذ لحظة انطلاقه، في تقدُّمه الخفي الذي لا يُقهَر.

نما أطفال طعام الآلهة نموًّا مطردًا على مدار كل هذه السنوات؛ كانت هذه أهم حقائق الزمن؛ لكن التسريبات هي ما صنعت تاريخه. لقد كبر الأطفال الذين تناولوا الطعام وسرعان ما أصبح هناك أطفال آخرون آخِذون في النمو، ولم تُفلح كلُّ النوايا الحسَنة في العالم في إيقاف المزيد والمزيد من التسريبات. أصرَّ الطعام على التفلُّت بإلحاحٍ لا يُوجَد إلا عند الكائنات الحية؛ فالدقيق المُعالج بمادة الهرقليوفوربيا كان يتفتت في المناخ الجافِّ مُتحوِّلًا، كما لو كان عَمدًا، إلى مسحوق لا يُرى ولا يُدرَك، وكانت أرق النسائم تحمله وتنقله لأماكنَ بعيدة. ظهر أثر ذلك فيما شهدتْهُ بعض الحشرات الجديدة

من نموٍّ جديدٍ مؤقَّت وخروج أفواج جديدة من الفئران وما شابهها من الهَوام المؤذية من البالوعات. أمضى سُكَّان قرية بانجبورن في بيركشير أيامًا يُحاربون نملًا عملاقًا لدغ ثلاثة رجال ليلقَوا حتفَهم. كثيرًا ما عمَّ الهلع وبرز الصراع بين الناس وبين هذا الطعام، وتكررت محاولاتٌ مُضنية لقمع هذا الشر المُستطير، الذي دائمًا ما كان يُخلِّف مظهرًا خفيًّا من مظاهر الحياة وقد تغيَّر إلى الأبد. ثم وقع مرة أخرى تفشٍّ شديدٌ ومروِّع؛ نموٌّ سريع لأجمات عُشبية هائلة وانتشارٍ جارفٍ للنباتات الشائكة العملاقة وظهور مُخيف لصراصير ضخمة يُحاربها البشر بالبنادق وغزو لذُبابٍ جبَّار.

شهدَ العالَمُ بعضَ المواجهات الغريبة واليائسة في بعض المواقع الغامضة، وأدَّى طعامُ الآلهة إلى ظهور أبطالٍ يدافعون عن قضية الضآلة.

تقبَّل الناس مثل هذه الوقائع في حياتهم وواجهوها بكلِّ الحيل المُواتية وأخبروا بعضهم البعض أنه «لم يحدُث أيُّ تغييرٍ في النظام الجوهري للأمور.» بعد موجة الهلع الكُبرى الأولى، وعلى الرغم من بلاغة كاترام، تدهورت منزلته في عالَم السياسة ليصبح رمزًا سياسيًّا ثانويًّا وظلَّ في عقول الناس نصيرًا لفكرة متطرفة.

لم ينجح كاترام في الفوز بمكانةٍ محورية في الأحداث إلا ببطء. كان الدكتور وينكلز، القائد الشهير ذو الفِكر الحديث، واضحًا للغاية بشأن أنه «لم يحدُث تغيُّر في النظام الجوهري للأمور.» كما أن مناصري ما كان يُسمَّى في ذلك الوقت الليبرالية التقدُّمية زاد إحساسهم بزيف دعوتهم التقدُّمية. بدا أنَّ أحلامهم كانت قائمة بالكامل على الأمم الصغيرة واللُّغات الصغيرة والبيوت الصغيرة التي يقتات كلٌّ منها من مزرعته الصغيرة. شاع توجُّهٌ نحو كل ما هو صغير وأنيق. كانت الضخامة مرادفًا للسُّوقية، وأصبحت كلماتٌ مثل «دقيق» و«رقيق» و«منمنم» كلمات محورية على ألسنة أنصار الضآلة.

في غضون ذلك، ورويدًا رويدًا، وكما يأخذ الأطفال وقتهم في النمو، نما أطفال طعام الآلهة وخرجوا إلى عالَمٍ تغيَّر ليستقبلهم. خرجوا وقد حِيزَ لهم طولُ القامة والقوة والمعرفة، وأصبحوا مُتفرِّدين وذوي عَزم، ونهضوا ببطءٍ مُتجهين نحو مصائرهم المُقدَّرة. سرعان ما صار هؤلاء الأطفال جزءًا طبيعيًّا من العالم، وبدت كل وقائع الضخامة جزءًا طبيعيًّا منه أيضًا، وتساءَل الناسُ كيف كانت الأمور تسير قبل ظهورهم. تنامَى إلى أسماع الناس قصصٌ عن أمور يمكن للأطفال العمالقة أداؤها، فكانوا يُردِّدون دون أي اندهاش «رائع!» تناقلت الصحف الشهيرة أمر أبناء كُوسَار الثلاثة وكيف يمكن لهؤلاء الأطفال المُدهشين حمْل مدافع عملاقة وقذف كُتل من الحديد لمئات الياردات والقفز لمسافة

مائتي قدم دفعة واحدة. رُويَ أنهم كانوا يحفرون بئرًا أعمق من أي بئرٍ حفرها البشر بحثًا عن كنوزٍ مُخبَّأة تحت الأرض منذ بدءِ الخليقة.

من المُتوقَّع لهؤلاء الأطفال، كما تُردِّد المجلاتُ الشهيرة، أن يُسَوُّوا الجبال ويعبروا البحار ويشقُّوا الأنفاق في الأرض. كان البشر الضئيلو الحجم يردُّون على هذه التوقعات: «رائعٌ، أليس كذلك؟ سنمتلك الكثير من وسائل الراحة إذن!» ثم يلتفتون لشئونهم وكأنه ليس هناك ما يُسمَّى طعام الآلهة على وجه الأرض. وبالفعل لم تكن هذه التوقعات أكثر من مجرَّد إرهاصاتٍ ووعودٍ أولى بقُدرات هؤلاء الأطفال. لم يكن استعمال الأطفال لقواهم في البداية إلا من قبيل عبث الأطفال الذي لا هدفَ من ورائه. لم يعرف أطفال طعام الآلهة أنفسهم الهدف من وجودهم. كانوا مجرد أطفال من جنسٍ جديد ينمون ببطء. نمَت قوتُهم الهائلة يومًا بعد يوم؛ وكان لا بدَّ لإرادتهم الهائلة أن تتبلور مُتَّخذةً غرضًا وهدفًا.

بالنظر للأمر من منظورٍ زمني مُختصر، فإنَّ سِنين التحوُّل تلك تبدو كسلسلة واحدة من الأحداث المُتعاقبة، لكن لم يرَ أحدٌ قط ظهور الضخامة في هذا العالم، تمامًا مثلما لم يشهد أحد قط، إلى أن انقضَتْ قرون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وانهيارها في واقعةٍ واحدة بعينها. من عاشوا تلك الأيام كانوا جُزءًا من تطوراتها حتى إنهم لم يَرَوْها كحدثٍ واحد. بدا حتى للعقلاء من الناس أنَّ طعام الآلهة لم يكن يُقدِّم للعالَم إلا أشتاتًا من أمور مُنفصلة يصعب السيطرة عليها والتي ربما بالفعل تُحدِث مشكلاتٍ واضطرابات، لكنها لن تضرَّ النظام الراسخ للجنس البشري وبِنيَته الثابتة بأكثر من ذلك.

بالنسبة إلى مُشاهِدٍ واحد على الأقل، فإنَّ أعجبَ ما في تلك الفترة التي شهدت تراكُم الضغوطات هو التبلُّد الشديد لعامة الناس وإصرارهم الصامت رغم كل هذا على تجاهل كل هذه الموجودات العملاقة واحتمال ظهور المزيد منها بينهم. ومثل مجرى النهر الذي يبدو أهدأ ما يكون عند وصوله إلى حافة الشلال، هكذا يبدو أن كل ما يتسم به البشر من نزعةٍ مُحافظة قد نما في هدوءٍ وأربى حتى صار له الغلبة خلال تلك الأيام الأخيرة. أصبحت الرجعية أمرًا شائعًا: بدأ الناس يتحدثون عن إفلاس العلم وفناء التقدم وقدوم الصفوة أصحاب النفوذ، وما شابه من أمور بينما يتردَّد صدى خطوات أطفال طعام الآلهة. اندثرت بالفعل أمورٌ مثل ثَورات الماضي الساخطة التي لا هدفَ من ورائها إلَّا مطاردة الجماهير العريضة من الحمقى الضئيلي الحجم لهذا الملك أو ذاك، لكن التغيير لم يندثر. كان التغيير هو مظهر الحياة الوحيد الذي تغيَّر. كان الجديد مقبلًا بطريقته الخاصة، متجاوزًا الفهمَ العام للبشر العاديين.

سيتطلب سرْد قصة مجيء الطعام كاملةً تأليفَ مُجلداتٍ ضخمة في التاريخ، لكن في كل بقعة من تلك الأرض وقعت سلسلةٌ موازية من الأحداث؛ لذا فإن سرد طريقة حلول الطعام في مكانٍ ما سيكون بمنزلة سرد جُزءٍ من الكل. تصادفَ يومًا أنْ سقطت بذرة طائشة من بذور العملقة في قرية جميلة صغيرة تُسمَّى تشيزينج آيبرايت، ومن خلال قصة نُموِّها الغريبة هناك وما تلا ذلك من عبثٍ مَأساوي، يمكن — من خلال تتبُّع خيطٍ واحد من خيوط القصة — إظهار الاتجاه الذي انفرطت فيه هذه الكتلة المُتشابكة من الأحداث من مَنْسَج الزمان.

٢

كان لقرية تشيزينج آيبرايت قَسٌّ بالطبع. هناك أنواعٌ عديدة من القساوسة، لكني دائمًا ما أحبُّ النوعَ المجدِّد أو مَن يَمزج ما بين التقدميِّ والعمليِّ والرجعيِّ على الأقل. لكن قَسَّ تشيزينج آيبرايت كان من أقل رجال الدين تجديدًا؛ حيث كان رجلًا وقورًا سمينًا متقدمًا في العمر ذا فكر مُتحفظ. يتطلب الأمر أن نرجع للوراء قليلًا في قصتنا لنتحدث عنه. كان الرجل يليق بالقرية، وربما يبدوان أنسبَ ما يكونان لبعضهما البعض في ذلك المساء الذي جلبت فيه السيدة سكينر — تتذكرون هروبها! — طعام الآلهة إلى تلك القرية، التي كان معهودًا عنها صفاؤها الريفي الخالص، جاهلةً تمامًا بما سيحدث.

كانت القرية تبدو في أبهى حُللها وفوقها شعاع الشمس الغاربة. وكانت تقبع على طول الوادي تحت أشجار خشب الزان التي تُميز غابة هانجر، حيث تمتدُّ سلسلة من الأكواخ المصنوعة من القرميد الأحمر والمسقوفة بالقش؛ أكواخ لها شرفات معروشة وواجهات تُطوِّقها نباتات شوك النار، ويزداد تقاربها من بعضها مع انحدار الطريق الذي ينحدر بين أشجار الطقسوس الواقعة بالقرب من الكنيسة وصولًا إلى الجسر. لم يبرز مقرُّ إقامة القس على نحوٍ لافتٍ للنظر من بين الأشجار وراء الحانة، وكان ذا واجهة جورجية قديمة ترك الزمانُ عليها بصمَتَه، كما برز برجُ الكنيسة شامخًا في منخفض الوادي بين التلال. كان هناك مجرًى مائيٌّ مُتعرج يتباين لونه بين زُرقة المياه وبياض الزَّبد، يلمع وسط ضفَّةٍ مُغطاة بطبقةٍ كثيفة من الخيزران والخثرية وأشجار الصفصاف المُتدلية بمُحاذاة مرج متموج مثلث الشكل. كان المشهد في جملته مثالًا عجيبًا على الريف الإنجليزي اليانع — بسكونه التام — الذي يُحاكي الكَمال تحت دفء الشمس الآفِلة.

أمَّا القسُّ فقد كان يبدو كذلك رجلًا ناضجًا؛ وكان يبدو هكذا بحكم عادته وطبيعته، كما لو كان قد وُلِد طفلًا ناضجًا في طبقة اجتماعية ناضجة، طفلًا غضًّا وناضجًا. يمكن للمرء أن يُخمن، حتى من قبل أن يذكُر هو، أنه ذهب لمدرسة حكومية قديمة مُغطاة باللبلاب، ذات تقاليد عتيقة ودوائر اجتماعية أرستقراطية، دون معامل كيميائية، ثم انتقل إلى جامعة مهيبة ذات طراز قُوطي. كانت الكتب التي يقتنيها يرجع عمرها إلى ألف عام إلا القليل منها، وكان الجزءُ الأكبر منها من كتب يارو وإيليس وعظاتٍ من فترة ما قبل ظهور الميثودية. كان القسُّ متوسطَ الطول لكنه يبدو قصيرًا نظرًا لسمنته، وله وجه كان يبدو غضًّا في السابق، لكنه بدا الآن في سن اليأس، ذا لحية تُخفي كبر ذقنه. لم يكن القس يرتدي أي سلسلة ساعة بداعي الرفاهية والغنى وكانت ملابسه الكهنوتية المتواضعة يحيكها خياط في ويست إند ... كان يجلس واضعًا يده على إحدى ساقيه ناظرًا إلى قريته برضًا وابتهاج، مُلوِّحًا تجاهها بكفٍّ ممتلئة. ما الذي يمكن أن يتمناه المرء أكثر من هذا؟

راحَ يشرحُ الأمر ببرود: «إننا محظوظون بموقعنا هذا.»

واستطرد قائلًا: «إننا في حصنٍ بين هذه التلال.»

ثم راحَ يستفيض: «إننا بمعزِلٍ عن كل هذا.»

لقد كان يتحدَّث هو وصديقه عن أهوال هذا العصر، وأهوال الديمقراطية، والتعليم العلماني، وناطحات السحاب، والسيارات، والغزو الأمريكي، ورداءة الذَّوق العام في القراءة، بل وغياب الذائقة تمامًا.

ثم كرَّر قوله: «إننا بمعزلٍ عن كل هذا.» وبينما كان يتحدَّث قرع أذنَيه وقْعُ أقدام تقترب؛ فالتفت ناظرًا إليها.

اقتربت المرأة العجوز وهي تتقدَّم بخطواتها التي لا تفتأ ترتجِف، حاملةً الحُزْمة بيدها المجعَّدة الهزيلة، وأما أنفُها (وهو أبرز ملامحها) فقد تغضَّن مُوحيًا بعزمٍ مُذهل. تلمح زهرتي الخَشخاش تهتزَّان من أسفل قبعتها وزوجَي حذائها الطويل ذوي الجوانب المطاطية بلونها الأبيض المُغبَّر من تحت تنُّورتها المُهترئة، وهما يتعاقبان ببطء في الإشارة شرقًا وغربًا. تأبطت المرأة بإحكام مظلةً بالية ظلت تهتزُّ وتنزلق. كيف كان لهذا القسِّ أن يعرف أنَّ تلك السيدة العجوز بهيئتها الغريبة ليست سوى الصدفة المُثمِرة، أو الغيب، أو ما يدعوه الضعفاء من الرجال باسم القدَر. أما بالنسبة إلينا، فإننا نُدرك أنها ليست سوى السيدة سكينر.

ولأنها كانت مُثقلةً بالأحمال مما كان سيعجزها عن إلقاء التحية، فقد تظاهرت بأنها لم ترَ القسَّ ولا صديقه، ومن ثمَّ فقد مرَّت قُبالتهما على مسافة ثلاث ياردات، وراحت تتقدَّم إلى الأمام، وتهبط باتجاه القرية. كان القسُّ يتابع حركتها البطيئة في صمت، بينما كان يُعدُّ تعليقه ليطلقه في الوقت المناسب.

لم يبدُ ذلك أمرًا مُهمًّا بالنسبة إليه على أية حال؛ امرأةٌ عجوز هَرِمَة، تبدو وكأنها تحمل أمتعتها منذ أن بدأ العالم؛ فأيُّ فرقٍ يشكِّله ذلك؟

قال القسُّ: «إننا بمعزل عن كل ذلك؛ فنحن نعيش في مناخ من البساطة والاستقرار؛ ميلاد فكفاح، وزرع فحصاد، وهذا كل ما في الأمر. أما أيُّ جلبة، فهي تمرُّ بنا مرور الكرام.» لطالما كان متحمسًا جدًّا بشأن ما كان يصفه بالاستقرار. لقد كان يقول: «تتغيَّر الأشياء، أما الإنسانية، فهي أزلية خالدة.»

هكذا كان القسُّ. كان من عادته أن يتمثل في حديثه بأقوالٍ مأثورة لا صلةَ لها به. وفي الأسفل، نجد السيدة سكينر وقد انهمكت بعزمٍ لا يلين وهيئة رَثَّة في صعود مَرقى ويلمردينج.

٣

لا أحدَ يعرف ما الذي صنعه القسُّ بنباتات فطر النفاث الضخمة.

لا شكَّ أنه كان من بين أوائل مَن اكتشفوها؛ فقد تناثرت على مسافاتٍ من أول الطريق الذي يصل بين المنحدر القريب وأطراف القرية إلى آخره، وهو الطريق الذي كان يطؤه يوميًّا في جولته التي يؤديها للحفاظ على صحته. لم تكن كل هذه الفطريات العجيبة، من بداية الطريق حتى نهايته، تزيد عن الثلاثين في مُجملها. يبدو أنَّ القسَّ قد تأمَّل كلًّا منها عدة مرات، وهمز معظمها بعصاه مرة أو اثنتين. حاول ذات مرةٍ أن يقيس إحداها بذراعَيه، لكنها انفجرت بين ذراعيه القويتَين.

تحدَّث عنها إلى عدة أشخاصٍ وقال إنها «مُذهلة!» كما أنه قد روى لسبعة أشخاصٍ على الأقل القصةَ المعروفة للبلاط الذي رفعته الفطريات التي نمتْ من تحته عن أرضية القبو. راحَ يبحث في موسوعة النباتات عن اسم الفصيلة التي تنتمي إليها هذه الفطريات، ليعرف ما إذا كانت تُعرَف باسم لايكوبيردون كولاتم أم لايكوبيردون جيجانتيوم، كما اعتاد أن يفعل مَن هم على شاكلته؛ فمنذ أن اشتهر عالِم النبات جيلبرت وايت، اعتنق القسُّ منهجَه. آمَنَ القسُّ أنَّ اسمَ جيجانتيوم لم يكن مُنصفًا.

لا يعرف أحدٌ ما إذا كان قد لاحظ أنَّ تلك الكرات البيضاء تقع في الطريق ذاته الذي سلكته المرأة العجوز التي ظهرت بالأمس، أو ما إذا كان قد لاحظ أنَّ آخر نبتة في هذه السلسلة قد تضخَّمت على مسافة تقل عن عشرين ياردة من بوابة كوخ آل كادِلز. إذا كان قد لاحظ هذه الأمور، فهو لم يبذل أية محاولة لتسجيل هذه الملاحظات. لقد كانت ملاحظاته فيما يتعلق بعِلم النبات تنتمي لما تُسميه الطبقة الدنيا من العلماء باسم «المُلاحظة المُوجَّهة»: أن تبحث عن أمورٍ مُحدَّدة وتتجاهل كل ما عَدَاها. وهو لم يربط هذه الظاهرة على الإطلاق بما حدث لرَضيع آل كادِلز الذي ظلَّ ينمو بدرجةٍ ملحوظة على مدار بضعة أسابيع، وذلك بالطبع منذ أن ذهب كادِلز عصر يوم الأحد منذ شهر أو أكثر ليزور حماتَه ويسمع من السيد سكينر (الذي هو في عِداد الموتى الآن) وهو يتفاخر بإدارته لمزرعة الدجاج.

٤

إنَّ نمو فطريات النفاث الضخمة عقب النمو الملحوظ لرضيع آل كادِلز كان جديرًا بأن يفتح عينَي القسِّ، وهو ما حدث بالفعل عند التعميد، وتجلَّت تلك الحقيقة على نحوٍ صارخ.

راحَ الصغيرُ يصيح صياحًا شديدًا يُصمُّ الآذان حين سقطت على جبينه تلك المياه الباردة، والتي تضمن ميراثه الإلهي وحقَّه في الاسم «ألبرت إدوارد كادِلز». كان الطفل قد تجاوز بالفعل المرحلة التي يمكن أن تحمله فيها أمُّه، وحتى كادِلز كان يترنح بالطبع حين حَمْله، غير أنه سار به وهو يبتسم بانتصارٍ نحو الآباء الذين لم يكن لهم أبناءٌ بحجم ابنه، وعاد به إلى حيث جلسَ هو ورفاقه.

قال القسُّ: «لم أر طفلًا مثله من قبل!» وكان ذلك هو أول تلميح علني بأنَّ طفل آل كادِلز، والذي قد بدأ حياته الأرضية وهو يبلغ من الوزن سبعة أرطال إلا قليلًا، قد أصبح، بالرغم من كل شيء، مصدر تقدير لوالديه، وسرعان ما اتَّضح أنه مَجدٌ لهما، لا مصدر تقدير فحسب. وفي غضون شهر، سطعَ هذا المجد بقوةٍ شديدة، حتى إنه قد أصبح غير مناسب بالنسبة إلى مَن هم في منزلة آل كادِلز.

وزنَ الجزَّارُ الطفلَ إحدى عشرة مرة، وقد كان رجلًا قليلَ الكلام. في المرة الأولى حين وزنه قال: «إنه بصحة جيدة.» وفي المرة التالية قال: «يا إلهي!» وفي المرة الثالثة قال: «حسنًا، سيدتي.» وفي المرات التالية، كان ينفخ بعنفٍ في كل مرة، ويَحُكُّ رأسه وينظر إلى

موازينه بِشكٍّ غير مسبوق. أتى الجميع لرؤية الطفل الضخم — أو هكذا اتفق الجميع على تسميته — وقال معظمهم: «إنه عملاق.» وأشار أغلبهم إليه متسائلين: «أحقًّا أطلقوا عليه هذا الاسم؟» أما الآنسة فليتشر فقد جاءت وقالت إنها «لم تفعل ذلك قطُّ.» وقد كان ذلك صحيحًا تمامًا.

أما الليدي وندرشوت، طاغيةُ القرية، فقد وصلت في اليوم التالي لحادثة الوزن الثالثة، وفحصت الظاهرة عن قُربٍ من خلال نظارتها التي قد ملأت الطفل رُعبًا، ثم تحدَّثت إلى أمِّه بصوتٍ عالٍ ونبرة آمِرة: «إنه طفلٌ ضخمٌ على نحوٍ غير معتاد. عليكِ أن تعتني به عنايةً فائقة يا كادِلز. لن يستمر الأمر على هذه الحال بالطبع، ما دام يتغذَّى على الألبان الصناعية، لكن علينا أن نفعل لأجله كل ما بوسعنا. سأرسلُ لكم المزيدَ من الثياب الداخلية.»

جاء الطبيب وقاس الطفل بالشريط ودوَّن قياساته في دفتر، وأما السيد العجوز دريفت-هاسوك فقد تجوَّل في مدينة أب ماردن وأحضر معه بائع أسمدة متجولًا من على بُعد ميلين من قريتهم لكي يلقي نظرة عليه. سأل البائع المتجول عن عمر الطفل ثلاث مرات، وأخيرًا قال إنه مذهول تمامًا، وقال أيضًا إنه يجدُر بهم تقديمه في معرض للأطفال. وعلى مدار النهار بأكمله ما عدا ساعات المدرسة، ظل الأطفال الصغار يتردَّدون على منزل السيدة كادِلز ويرجونها قائلين: «هل يُمكننا أن نلقي نظرة على طفلكِ يا سيدة كادِلز، من فضلكِ؟» وهو ما اضطرَّ السيدة كادِلز إلى أن تضع حدًّا لهذا الأمر. وبين كل مشاهد الاندهاش هذه، ظهرت السيدة سكينر، وقد وقفتْ مُبتسمة؛ كانت تقِف في الخلفية، بمرفقَيها الحادَّين وقد أمسكت بكلٍّ منهما يدٌ هزيلة مُتغضِّنة، وظلت تبتسم، وقد ملأت ابتسامتها ما تحت أنفها وما حوله؛ لقد كانت ابتسامةً لا حدود لها.

قالت الليدي وندرشوت: «إنه يجعل حتى تلك الجَدَّة العجوز البائسة تبدو أكثر لُطفًا، غير أنه يَسوءُني أنها قد عادت إلى القرية.»

لا شك بأنَّ طفل آل كادِلز قد تلقَّى مساعداتٍ خيرية كما هي الحال بالنسبة إلى معظم الأطفال الذين يولدون لتلك العائلات التي تقطن الأكواخ، لكنه سرعان ما راح يُطلق صراخه الهائل، مُعلنًا أنَّ مقدار ما يرضعونه إيَّاه لا يكفيه على الإطلاق.

عاش الطفل أجواءً من التعجُّب والدهشة استمرت لتسعة أيام، وإن كان الجميع قد ظلوا يتعجبون بحبورٍ من نموِّه المذهل ضِعف هذه المدة أو أكثر. وأما بعد ذلك، فبدلًا من

أن ينحسر الطفل إلى الخلفية؛ كي يفسح الطريق لغيره من العجائب، فقد استمرَّ بالنموِّ أكثر من أي وقتٍ مضى!

استمعت الليدي وندرشوت إلى مديرة منزلها، السيدة جرينفيلد، بمنتهى الدهشة.

«إنَّ آل كادِلز بالأسفل، يقولون إنه لا يُوجد طعام للصغير مُجددًا! هذا محال يا عزيزتي جرينفيلد؛ فذلك المخلوق يأكل كما لو كان فرس نهر! لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا. أنا على يقين من ذلك.»

ردَّت السيدة جرينفيلد: «أتمنَّى فقط ألَّا تكوني محلًّا للاستغلال يا سيدتي.»

خاطبتها الليدي وندرشوت: «من الصعب جدًّا أن نعرف مع أمثال هؤلاء. والآن يا عزيزتي جرينفيلد، فأنا أرجو أن تذهبي بنفسك عصر هذا اليوم وترَيْهِ بنفسك وهو يتناول زجاجته. فمهما يكن ضخمًا، لا يُمكني أن أتخيَّل أنه يحتاج إلى أكثر من ستة باينتات في اليوم.»

أجابت السيدة جرينفيلد: «أجل، فما ينبغي له ذلك يا سيدتي.»

ارتعشت يد الليدي وندرشوت؛ إذ ساورها هذا الشعور بالغضب الممزوج بالشكِّ والذي يُراود جميع أبناء الطبقة الأرستقراطية حين يفكرون باحتمال أن يُضاهي الفقراء أسيادهم في اللؤم وأنهم — حين يتطلب الأمر — قد يخدعونهم.

غير أنَّ السيدة جرينفيلد لم تلاحظ أيَّ دليل على الاحتيال، فصدر الأمر بزيادة المؤنة اليومية المُخصَّصة لطفل آل كادِلز، لكن ما إن وصلتهم الدفعة الأولى حتى عاد كادِلز إلى المنزل الفخم مُجددًا وهو في غاية الأسف والمذلَّة.

«لقد اعتنينا بها عناية فائقة يا سيدة جرينفيلد، أؤكِّد لكِ ذلك يا سيدتي، لكنه فتقَها! لقد تمزَّقت عنه بعُنف يا سيدتي، حتى إنَّ أحد الأزرار كسر أحد الألواح الزجاجية في النافذة، وأصابني زر آخر هنا يا سيدتي، وقد وخَزَني وخزةً لاذعة.»

أما الليدي وندرشوت، فحين سمعت بأنَّ هذا الطفل المذهل قد تمزَّقت عنه ثيابه الجميلة التي حصل عليها من التبرُّعات الخيرية، قررت أنها لا بدَّ أن تتحدَّث بنفسها مع كادِلز. ظهر في حضرتها وقد بلَّل شعره بسرعة وملَّسه بيده. وقف بين يديها لاهثَ الأنفاس وقد تمسَّك بطرف قبعته كما لو كان طوق النجاة، كما تعثر في حافة السجادة؛ إذ كان مُشوشًا مضطربَ الذهن.

لطالما كانت الليدي وندرشوت تحبُّ التنمُّر بكادِلز؛ إذ إنه كان يجسِّد بالنسبة إليها صفات الطبقة الدنيا تجسيدًا مثاليًّا: مُخادع ومُطيع وذليل ومُجد وغير قادر على تحمل

المسئولية على نحوٍ لا يُصدَّق. أخبرته أنَّ الطريقة التي يستمر بها طفله في النمو مسألة خطيرة؛ فأجابها كادِلز وقد ارتفعت نبرة صوته: «إنها شهيَّتُه للطعام يا سيدتي.»

وأكمل: «إنْ حاولنا أن نمنَعه الطعام يا سيدتي فإننا لا نستطيع. إنه ينطرح أرضًا يا سيدتي ويظلُّ يركل بقدمَيه ويصرخ صراخًا مُزعجًا. إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك يا سيدتي، وحتى إن استطعنا، فسوف يتدخَّل الجيران ...»

استشارت الليدي وندرشوت طبيبَ الأبرشية.

وسألته الليدي وندرشوت: «ما أريد أن أعرفه هو ما إذا كان من الطبيعي لطفلٍ في هذه السن أن يتناول هذه الكمية الاستثنائية من الحليب أم لا.»

فأجابها الطبيب: «إنَّ الكمية المناسبة لطفلٍ في مثل سِنه تتراوح ما بين باينت ونصف إلى اثنين من الباينتات يوميًّا؛ لذا فإنني لا أرى بأنَّ عليكِ أن تُخصِّصي له أكثر من ذلك. وإن فعلتِ، فذلك كرمٌ منكِ. يمكننا بالطبع أن نُجرِّب الكمية المعقولة لبضعة أيام، لكن عليَّ أن أقرَّ بأنَّ الطفل مختلفٌ من الناحية الفسيولوجية لسببٍ أو لآخر. ربما هو ما نُسمِّيه طفرة. وهي حالة من التضخُّم العام.»

ردَّت الليدي وندرشوت: «إنَّ ذلك ليس عادلًا لغيره من أطفال الأبرشية؛ فأنا متأكدة بأننا سنبدأ في تلقِّي الشكاوى إن استمرَّ هذا الوضع.»

«لا أعتقد أنَّه يُتوقَّع من أي شخصٍ أن يقدم ما هو أكثر من الكمية المقررة. ربما علينا أن نُصرَّ على اكتفائه بهذه الكمية، وإن لم يفعل، فيمكننا أن نُرسله إلى المستوصف لفحص حالته.»

تحدَّثت الليدي وندرشوت مُتفكرةً: «أعتقد ذلك، لكن بخلاف الحجم والشهية للطعام، ألا تجِد أي شيء غير عادي أو شاذًّا؟»

«كلا، كلا، على الإطلاق، لكن لا شكَّ أنه في حال استمرَّ هذا النمو، فسوف نجد عيوبًا فكرية وأخلاقية خطيرة. يُمكنني أن أتنبَّأ بذلك وفقًا لقانون ماكس نوردو، وهو فيلسوف نابغة ومشهور للغاية يا ليدي وندرشوت. لقد اكتشف أنَّ ما هو غير عادي غير عادي؛ إنه اكتشاف ثمين، ويجدُر بنا أن نأخذه في الحسبان، وأنا أجد ذلك مفيدًا جدًّا في مهنتي؛ فعندما أجد شيئًا غير عادي، أُميزه على الفور وأقول إنه غير عادي.» ارتسمت على عينَيه نظرة من العُمق وانخفض صوته، وقد أصبح سلوكه أقربَ إلى سلوك مَن يفصح عن سر، ثم رفع يدًا واحدة بجدية وصرامة وقال: «وأنا أعالِجه بمثل هذه الروح.»

٥

«بئسًا! بئسًا!» هكذا تحدَّث القس إلى أغراض إفطاره في اليوم التالي لمجيء السيدة سكينر. «بئسًا! بئسًا! ما هذا؟» ثم وجَّه نظارته إلى الجريدة بأسلوبٍ ينمُّ عن اعتراض.

«دبابير عملاقة! في أي اتجاه يذهب هذا العالم؟ ذلك من فِعل الصحفيين الأمريكيين على ما أعتقد! يا لهم من مُبتدعين! إنني أريد نوعًا من الكشمش العملاق؛ سيكون ذلك أفضل.»

صاح القس قائلًا: «هراء!» ثم شرب قهوته على جرعةٍ واحدة، بينما عيناه مُثبَّتتان على الجريدة وهو يتلمَّظ بشفتَيه متشككًا.

ثم قال القس رافضًا الفكرة برمتها: «سُخف!»

ولكنَّ اليومَ التالي كان يُخبِّئ له المزيد من تلك الأنباء، وهُنا سطعت شَمسُ الحقيقة.

بَيد أنها لم تسطع دفعةً واحدةً. عندما ذهب في جولته للتَّريُّض ذلك اليوم، كان ما زال يضحك بينه وبين نفسه غير مُصدقٍ لتلك القصة السخيفة التي أرادت جريدته أن تُقنِعه بها. الدبابير صارت تقتل الكلاب، عجبًا! مَرَّ مصادفةً بموضع أول نتاج للفُطر النفاث ولاحظ كثافة العشب الذي ينمو حوله ولكنه لم يربط بين ما رآه لتوِّه وبين ما قرأه في الصحيفة وأثار دهشته. قال مُتعجبًا: «لو صحَّ ذلك لكنا سمِعنا به! وِتستَبل تَقلُّ عن عشرين ميلًا من هُنا.»

بَعدها بمسافة مَرَّ بموضعٍ آخر به فُطر ما زال في طور النُّمو، لكنه بَدا كبَيضة طائر رُخ عملاق وسط المُروج الخَشِنة غير المعتادة.

وفجأةً، خطر له الأمر في لمح البصر.

لم يُكمل جَولتَه المُعتادة ذلك الصباح، بل انعطف مع ثاني مرقى قاصدًا بيت آل كادِلز. قال لهم مُطالبًا: «أين ذاك الرَّضيع؟» وعندما رآه صاح في ذهول: «يا إلهي الرَّحيم!»

توجَّه بعد ذلك صاعدًا طريق القرية وهو يدعو الله أن يحفظ قلبه ويباركه، وهُناك قابل الطبيبَ وهو خارجٌ من القرية في عجلة من أمره. قبض على ذراعه وقال: «ما معنى هذا؟ هل تابعتَ صحف الأيام الماضية؟»

أجابه الطبيبُ بالإيجاب.

«إذن! ما خَطبُ هذا الرَّضيع؟ ما خَطبُ كل شيءٍ حولنا؛ الدبابير والفُطر النَّفاث والرُّضَّع، ها؟ أخبرني ما الذي يجعلهم يكبرون إلى هذا الحد؟ هذا لا يُتَصوَّر أبدًا. حتَّى هُنا في كِنت! لو كانت أمريكا الآن ...»

قاطعه الطبيبُ قائلًا: «مِن الصعب قليلًا أن نفسر الأمر بدقَّة، ولكن على حدٍّ فهمي للأعراض ...»

قال القَس مُستعجلًا الإجابة: «أجل؟»

أكمل الطبيبُ كلامه: «إنه تضخُّم؛ تضخُّم عام.»

تعجَّب القَس وقال: «تضخُّم؟!»

ردَّ الطبيبُ: «نعم، إنه تضخمٌ عام يُصيب جميع خلايا الجسم — الكائن الحي بأكمله. يسعني أن أقول لنفسي ولك إن لديَّ قناعة شِبه تامَّة أن السبب هو ذلك التضخُّم ... ولكن على المرءِ الحذَر.»

قال القَس وقد ارتاح قدرًا لا بأس به بعد أن عرف أن الطبيب يُفكر في الأمر مثله: «أه! ولكن كيف لهذا التضخُّم أن ينتشر بهذه الطريقة في كل أرجاء المكان؟»

ردَّ الطبيبُ: «من الصعب تفسير هذا الأمر أيضًا.»

قال القس: «هُنا في أورشُت. هذه حالة تَفشٍّ واضحة.»

ردَّ الطبيب: «أجل، أجل. أنا أيضًا أظنُّ هذا. الأمرُ أشبه بوباء. إنه تضخُّم وبائي على الأرجح.»

قال القس مُتوجِّسًا: «وبائي؟ أتقصِد أنه مُعدٍ؟»

تبسَّم الطبيبُ بتؤدةٍ وفَرك كفَّيه معًا وقال: «لا يُمكنني أن أجزم بذلك.»

صرخ القس وعيناه تُحدِّق في الطبيب: «ولكن إذا كان هذا الشيء مُعدِيًا فـ... فهذا يعني أنه قد يُصيبنا!»

هُرع القس نحو الطريق وشَرَع في الرجوع من حيث أتى وصرخ: «لقد كنتُ هناك لتوِّي! ألم يكن يجدُر بي أن ...؟! سأذهب إلى بيتي على الفور وأغتسل وأُعقِّم ملابسي.»

تَابع الطبيب تَقهقُر القس إلى بيته هُنيهة، ثم التفَّ راجعًا هو الآخر إلى بيته.

ولكن في طريقه تنبَّه إلى أن القرية قد شهدت منذ شهر حالة واحدة من التضخُّم العام ولم يلتقط أحدٌ العدوى. وبعد مُدَّة من التَّحيُّر، قرر أن يكون شجاعًا كما يجب للطبيب أن يكون، وأن يتحمَّل المخاطرة مثل الرجال.

وبالطبع تعزَّز رأيه بعد إعادة النظر فيه؛ فالنُّمو مُجددًا هو آخر شيءٍ يُمكن أن يحدُث له. فبإمكانه أن يأكُل هُو أو القس ملء شاحنةٍ من مادة الهرقليوفوربيا دون أن ينموَ بوصةً واحدة؛ فلقد تخطَّيا مَرحلة النُّمو بلا رجعةٍ، وفرغت منهما وفرغَا منها.

٦

مَرَّ يومٌ أو بعض يومٍ بعد تلك المُحادثة — يومٌ أو بعض يومٍ بعد احتراق مزرعة التَّجارب — ثم جاء وينكلز إلى ريدوود وأراه خطابًا ذا لهجةٍ مُسيئة. كان كاتب الخطاب مجهولًا، ولن أفصح عنه لأن على المؤلف أن يحترم أسرار شخصياته. كان نَصُّ الخطاب يقول: «أنت تنسُب إلى نفسك الفضل في ظاهرة طبيعية لا دخل لك بها، وتسعى لتسويقِ نفسك أنت وطعامك المُكبِّر بخطابك الذي أرسلته إلى جريدة ذا تايمز. دَعنِي أُخبرك أن طعامك هذا، ذا الاسم السَّخيف، ليست له علاقة بتلك الدبابير والفئران العملاقة اللهم إلا على سبيل المُصادفة. فالحقيقة بوضوحٍ أنَّ هُناك وباءً يُسبب التَّضخُّم؛ وباء التضخم العام. وأنت بادِّعائك التَّحكُّم به مثل ادعائك التحكُّم بأجرام المجموعة الشمسية. هذا الوباء قديمٌ قِدَم الجِبال؛ فقد شَهِدته قديمًا عائلة أنَاك. واليوم، وبعيدًا تمامًا عن إرادتك، يُوجَد طفل في قرية تشيزينج آيبرايت ...»

قَطَع ريدوود القراءة وقال: «خطٌّ مُرتعش؛ يبدو أنه رجلٌ عجوز.»

أكمل القراءة عدَّة أسطرٍ أخرى: «لكنه طفلٌ غريب ...»

ثم جاءته فكرةٌ مُلهمةٌ وقال في دَهشةٍ: «يا إلهي! إنها السيدة سكينر التي اختفت!»

بعد ظُهر اليوم التَّالي، حَلَّ دون ترتيبٍ ضيفًا عليها.

كانت مشغولة بجمع بعض البصل من المزرعة الصغيرة أمام كوخ ابنتها، عندما رأتْه قادمًا عبر البوابة. وقفت لبرهة وقد خُلِع قلبها فزعًا ثم عقدت ذراعَيها، وضمَّت تحت ساعدها الأيسر بضع بصلاتٍ، ضَمًّا دفاعيًّا مُنتظرة قُدومه إليها. فتحت فمَها وأطبقته عدة مراتٍ مُظهرةً سِنَّتها المُتبقية، وفجأة انحنت تحيَّةً للسيد ثم رجعت إلى وضعها الأصلي في لمح البصر.

قال ريدوود: «ظننتُ أنِّي سأجدكِ.»

ردَّت عليه بنبرة جافة: «ظننت أنَّك قد تجدني يا سيدي.»

«أين سكينر؟»

«لم يُراسِلني قَطُّ أو يزُرني منذ أن جئتُ إلى هُنا يا سيدي.»

سألها: «ألا تعلمين ما صار إليه أمرُه؟»

ردَّت عليه وهي تخطو خطوة نحو اليسار في خُطَّة بَلَهَاء لصدِّ ريدوود عن باب الحظيرة: «لا يا سيدي، فهو لم يكتُب إليَّ مُطلقًا.»

قال ريدوود: «لا أحدَ يعلم ماذا حَلَّ به.»

ردَّت عليه السيدة سكينر: «أؤكد لك أنَّه يعرف.»

«لكنه لا يُخبر أحدًا.»

قالت السيدة سكينر: «لقد كان دائمًا يعرف كيف يعتني بنفسه ويترك مَن يعُولهم في الوَحل، هكذا كان سكينر. على الرُّغم من حَذاقته ...»

قاطعها ريدوود بسؤاله: «أين هذا الطفل؟» لكنها طَلَبت منه أن يُوضِّح ماذا يقصد.

«هذا الطفل الذي سمِعتُ عنه؛ ذاك الذي كنتِ تطعمينه من طعامنا المُكبِّر؛ الطفل الذي يزن ٢٨ رطلًا.»

تحرَّكت يدا السيدة سكينر وسقط البَصَل وقالت في احتجاجٍ: «لا أكاد أعرف حقًّا ما تقصد يا سيدي. ابنتي، السيدة كادِلز، لديها طفل.» ثم أومأت بتحية مُنفعلة وأمالت أنفها جانبًا لتتظاهر بأنَّها تتساءَل ببراءة.

قال لها ريدوود: «من الأفضل لكِ أن تُريني ذلك الطفل يا سيدة سكينر.»

رمقته السيدة سكينر وهي تقوده باتجاه الحظيرة، وقالت: «بالطبع يا سيدي. ربما كان هُناك قليلٌ من ذلك الطعام في وعاءٍ صغير أعطيته لوالده ليجلبه من المزرعة، أو ربَّما جَلبتُ بعضًا منه سهوًا وأنا أحزم أمتعتي في عُجَالة ...»

همهم ريدوود بعد أن لَاعَب الطفل قليلًا قائلًا: «أمم!»

أخبر السيدة كادِلز بأن حالة رَضيعها تبدو مُمتازة — الأمر الذي بدأت تستوعبه مُؤخرًا — ثم تجاهلها كُليةً بعد هذا، فسرعان ما غَادرت الحظيرة لعدم جَدوى وجودها هُناك.

قال ريدوود للسيدة سكينر: «أما وأنكِ قد جعلتِه يتذوَّق ذلك الطعام، يجب عليكِ أن تَستمرِّي في إطعامه، كما تعلمين.»

ثم التفتَ إليها فجأة وقال: «لذلك لا تُبعثِريه هذه المرة.»

ردَّت عليه: «أُبعثِره؟»

«أوه! أنتِ تفهمين.»

صدرت منها إيماءةٌ مُختلجة أوحتْ بفَهمها لما يقصد.

سألها ريدوود: «أنتِ لم تُخبري النَّاس هُنا عمَّا فعلتِه. أليس كذلك؟ سواء الوالدان أم الطبيب أم الليدي وندرشوت أم خدَمها أم أيُّ أحد مُطلقًا؟»

هزَّت السيدة سكينر رأسها نافيةً.

فعقَّب عليها وقال: «ما كُنت لأفعل ذلك أيضًا ...»

توجَّه إلى باب الحظيرة وتفحَّص المكان من حوله. كان باب الحظيرة يقع بين نهاية الكوخ وبعض حظائر الخنازير المهجورة وكان مصنوعًا من بوابةٍ ذات قضبان خمسة تطلُّ على الطريق العام. وراء ذلك كان هناك حائطٌ عالٍ من اللَّبِن الأحمر يتسلقه نبات اللَّبلَاب وزهور الحائط، وأسفله نمَتْ نباتات قَدَح مَريم، وكان بأعلاه نافذة بزجاجٍ مكسور. وراء زاوية هذا الجدار، تقف لوحةٌ تحذيرية بين أفرُعٍ خُضرٍ وصُفرٍ تعلو وُريقاتٍ مُلوَّنةً تساقطت على الأرض، وكُتبت عليها عبارةٌ أضاءت حروفها أشعة الشمس: «كلُّ من يتَعدَّى على هذه الأراضي سيتعرَّض للملاحقة القانونية.»

همهم ريدوود: «أمم.» ثم قال بنبرةٍ أعمق: «أومم!»

قطع تأمُّلاته مجيءُ الليدي وندرشوت وسط دَويٍّ عجلات عربتها وجلبة خيولها. ومع اقتراب العَربة أكثر فأكثر، مَيَّز ريدوود وجهَي الحُوذِي وأحد الخدم. كان ذاك الحُوذِي ذا مظهر راقٍ، ويقود العربة بقوة وكبرياء. قد يساور البعض الشكوك في جدوى وجودهم في هذا العالم ودورهم فيه، أمَّا هذا الحوذي فكان يَعرف يقينًا مَا خُلِق لأجله؛ كَان يعرف أنَّه حُوذِي فخامة الليدي. كان الخَادم الجالس بجواره عاقدًا ذراعَيه وعلى وجهه سيماء الحزم واليقين الصارم. ظهرت بعد ذلك السيدة المُبَجَّلة مُعتمرةً قُبَّعة وترتدي عباءةً لا يليقان بها إطلاقًا، وتُحدِّق من خلال نظَّارتها، وإلى جانبها سيدتان شابَّتان تُطلَّان برأسيهما وتحدِّقان هما أيضًا.

أمَّا القس الذي كان مارًّا بالجهة المقابلة، فقد رفع قُبَّعته من فوق رأسه احترامًا لمرور السيدة التي لم تأبه به.

ظَلَّ ريدوود واقفًا بمدخل الباب طويلًا بعد أن مرَّت العَربة شابكًا يديه خلف ظهره. أجال بصَرَه بين التلال الخضراء والشَّهبَاء في الوادي وبين السَّماء المَكسُوَّة بالسَّحاب، ثم انتهى بصره إلى الحائط ذي النَّافذة المُحطَّمة. التفتَ ريدوود إلى الظلال الكائنة بداخل الكوخ وفي وسط ألوان أشعة الشمس التي غَشيت المكان، لمح الطفلَ العملاق راقدًا فوق كومة قشٍّ عاريًا إلا من خِرقَةٍ من قماشٍ صُوفي ويلعب بأصابعِ قدمه.

«بدأتُ الآن أرى نتيجةَ ما اقترفَتْه أيادينا.»

استغرق ريدوود في تأمُّلاته، وخَطَر بباله طفلُه الصغير ورضيع آل كادِلز وأبناء كُوسار.

ضحكَ فجأة، ثم قال: «يا إلهي الرَّحيم!» تعليقًا على فكرة عابرة راودتْه.

أيقظَ نفسه من أفكاره وقال مُخاطبًا السيدة سكينر: «على أي حال يجب ألَّا نُعذِّبه بقَطْع الطَّعام المُكبِّر عنه؛ فهذا أقلُّ ما يُمكننا فعله. سأرسل لك عُلبَةً كل ستة أشهر، هذه الكمية يُفترض أن تكفي حاجته.»

تَمتَمت السيدة سكينر بعباراتٍ من قبيل: «إذا كان هذا ما تَراه يا سيدي.» و«رُبَّما قد أضفتُه إلى أمتعتي خطأً ... ظننتُ أن إطعامه قليلًا منه لن يَضُرَّه.» وأصدرَت بعض الإيماءات المُرتعِشة التي أوحت بأنها قد فهِمَت.

وهكذا ظلَّ الطفل ينمو.

وينمو.

قالت الليدي وندرشُوت ذات مَرَّة: «لقد أكل تقريبًا جميع عُجُول القرية. لو حَصَل وأنجبَ هذا الرَّجُل الذي يُدعى كادِلز طفلًا آخر مثل ذلك فـ...»

٧

لكن قرية تشيزينج آيبرايت، على انعزالها الشديد عن العالم الخارجي، لم يطُلْ رُكونها إلى نظرية وَباء التَّضخُّم — بغضِّ النَّظر عن كونه مُعديًا أم لا — وسط هَدِير أخبار الطعام المُكبِّر الذي كاد يصمُّ الآذان. مَرَّ وقتٌ ليس بطويلٍ ظهرت بَعده بعضُ التفسيرات المريرة لما اقترفته السيدة سكينر، تفسيرات كانت تُعجزها تارةً عن الكلام فتُتَمتِم بفِيها الذي فُضَّ من أسنانه إلا واحدة، وتارةً تجعلها محلًّا للشَّك وعُرضَةً للتفتيش والتَّشهير حتَّى اضطرت إلى أن تحتمي من وابل اللَّوم والتأنيب المُوجَّه إليها بكرامة الترمُّل الذي لا عزاءَ له. أدارت عينها، التي أكرهتها على البكاء إكراهًا، إلى وجه الليدي وَندرشُوت الغاضب ثم مَسحت بقايا رغوة الصابون على يدَيها وقالت:

«يبدو أنَّكِ قد نسيتِ ما أقاسيه يا سيدتي.»

تَبِعتْ هذه الجملة التحذيرية بجملةٍ أخرى تشي بنبرة تحدٍّ: «فأنا أفكر فيه ليلَ نهار يا سيدتي.»

أطبقَتْ شفتَيها حتى صار صوتها مبحوحًا متلعثمًا وهَمَست: «هذا هو حَالي!»

وبَعد أن أَقَامَت حُجَّتها بتلك العِبارات المُؤثرة، كرَّرت عُذرَها الذي لم تقبله الليدي من قبلُ وقالت: «أنا لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عمَّا كُنت أطعمه للطفل يا سيدتي ...»

آثَرَت الليدي وَندرشُوت التَّفكير بإيجابيةٍ، ولكنها لم تكفَّ بالطبع عن التوبيخ المُوجِع لآل كادِلز. أما بانزنجتن وريدوود، فقد دخل حياتهما الصاخبة زوار جُدد؛ رُسُلٌ مُحمَّلون بتَّهديدات لبِقة، عرَّفوا أنفسهم بأعضاء مجلس الأبْرَشية. كانوا مُتَبَلِّدي الحِسِّ يتشدقون بعباراتٍ محفوظة أعِدَّت لهم مُسبقًا: «نحن نُحمِّلك يا سيد بانزنجتن مسئولية الضَّرر الواقع على أبْرَشيتنا. نحن نُحمِّلك المسئولية.»

جاءَتْهما أيضًا ثُلَّة من المحامين كأنهم أفاعٍ؛ دعَوا أنفسهم بَنجهِرست وبراوِن وفِلاب وكُدلِن وتِيدِر وسنُكِستن، وكان سَمْتُهُم دون استثناءٍ سَمْت رجلٍ ماكرٍ ضئيل الحجم أصْهَب الشَّعر ذي أنفٍ مُدَبَّب. ذكروا كلامًا غامضًا عن تَلفِيَّاتٍ وكان معهم شَخصٌ دَمِث الخُلُق؛ وهو مُمثل الليدي وَندرشُوت، وقد جاء إلى ريدوود في أحد الأيام دون سابق ميعادٍ وسأله: «حسنٌ يا سيدي، وماذا تَنوي أن تفعل؟»

كان رَدُّ ريدوود على سؤاله أن هَدَّد بقطع إمدادات الطعام المُكَبِّر عن الطفل إذا ما أُزعِج هو أو بانزنجتن بهذا الأمر مُجددًا، وكان مما قال: «أنا أعطيكم هذا الطعام دون مُقابل. إذا لم تُطعموا الطفل منه، فسيصرخ صراخًا يُحِيل قريتكم أطلالًا قبل أن تموتوا جميعًا. هذا الطفل أمانة في أعناقكم ويجب أن تُحافظوا عليه. إن الليدي وَندرشُوت لا يُمكن دائمًا أن تَتَباهى بكونها أمَّ المساكين وحَامية الحِمى دون أن تحمل بعض المسئوليات على عاتقها، كما تعلم.»

حينما أُخبِرَت الليدي وَندرشُوت بما قاله ريدوود — بعد تنقيحه — اتخذت قرارًا وقالت: «انتهى وقت المُخادعة.»

كَرَّر القس جُملتَها كأنه صَدًى: «انتهى وقتُ المخادعة.»

ولكن في الحقيقة، كانت المُخادعة ما زالت في بدايتها!

الفصل الثاني

العملاق الصغير

١

كان القسُّ يُصرُّ أن هذا الطفل دَمِيم؛ كان يقول: «هذا الطفل كان دَمِيمًا دومًا؛ مثل كلِّ شيء زاد عن حدِّه.» لم يُؤخَذ رأيه هذا في الاعتبار كحُكمٍ عادلٍ في هذه المسألة؛ فالطفل كان مَحَط الأنظار وهدفًا لالتقاط الصُّور الفوتوغرافية حتَّى مع وجوده في تلك المنطقة الريفية النَّائية. كانت الصُّور تُظهِر — خِلافَ رأي القس — أن الطفل كان في البداية وسيمًا؛ شَعره مَعقوصٌ يكاد يُلامس حاجبيه ووجهه طَليقٌ. وفي مُعظم الصُّور كان أبوه النَّحيلُ؛ كادِلز، يقف مُبتسمًا خلفه حيث يُظهِر منظور الصورة حجمه الضئيل مقارنةً بابنه.

بَعدَ أن بَلَغ عَامَه الثَّاني؛ بدأت وَسامة الطفل في الانحِسَار وكَثُرَ في شأنه القِيلُ والقَال. أخذ ينمو وينمو حتَّى إن جَدَّه التعيس الحظ كان ينعَتُه بملء فِيه بالـ «مُقَزِّز». بهَتَ لونُه ونما حتَّى صَار ضخمًا، وبالرغم من ضخامته كان هزيلًا وهشًّا للغاية. نَمت عيناه وشيءٌ في وجهه نموًّا طيبًا حَكى النَّاس عنه أنه «جَذَّاب». وبَعد أن قُصَّ شعره لمرةٍ واحدةٍ، بدأ يتجَعَّد كالفَرو، وقال طبيب الأبْرَشية واصفًا حالته تِلك: «هذه أعراض إجهادٍ تَظهَر عليه.» لكن يظلُّ مطروحًا السؤال: إلى أي مدى كان كلامه صحيحًا؟ وإلى أيِّ مدى تدهورت عَافِية الصَّبي وصحته بسبب عَيشه طوال الوقتِ في حظيرة طُلِيَت جُدرانها بالجِير الأبيض مُقتَاتًا على ما تَجود به الليدي وَندرشُوت مدفوعةً بحِسِّها الخيري الممزوج بالعدل؟ هما سؤالان مَطرُوحَان.

كانت الصُّور التي صُوِّرت له وهو ما بين عامَيْه الثالث والسادس تُظهِر نموَّه إلى صبيٍّ تَلوَّن شَعره بلَون التِّبن، ذي عينين نَجْلاوينِ تَرى فيهما نظرةً وَدُودَة، وأنفٍ أجدع.

تختبئ خلف شَفَتَيه ابتسامة ليست ببعيدةٍ؛ تلك التي تَظهر في كلِّ صُور الأطفال العمالقة الأُوَل. في الصيف، يرتدي حُلَّة من قماشٍ غليظٍ خِيطَت بحبلٍ، وعَلى رأسه عادةً ما يَعتَمِر سَلَّة من قَشٍّ كتلك السِّلال التي يستعملها العُمَّال لجَمع آلاتِهم، وقدَماه حافيتان. وفي إحدى الصُّوَر كان يبتسم ابتسامةً بَدَت منها نَواجِذه وهو يحمل بطيخةً مَقضُومَةً في يدِه.

أمَّا صُوَره شتاءً، فكانت أقلَّ عددًا وغير مُرضية كصورِ الصيف. كانت تُظهره مُنتعلًا قَبْقابًا ويتَجَورَب جَوالِيق؛ ظَهرَت منها أجزاء عبارة «جون ستِكيلز، إبينج» التي نُقشت عليها. أمَّا سِرواله وسُترَته فقد بَدَا بوضوحٍ أنَّهما مَخيطانِ من بقايا بساطٍ مُزركشٍ زَركشةً بَهيَّة. وتحتهما كان يرتدي لِفافاتٍ بسيطةً من قماشٍ صُوفي؛ ما يَقرُب من خمس أو ستِّ ياردات يلتَحِفُها حول رقبته. كان الشيءُ الذي يعتمِره هو في غالبِ الأمر جُوالِقٌ آخَر. كان في بعض صُوره يُحدِّق في آلة التصوير، وفي بعضها يبتسم وفي بعضٍ ثالثٍ تَرى حَسرةً في عينَيه. كان عمره خمس سنواتٍ ومع ذلك تَرى ذلك التَّغَضُّن الذي مَيَّز وجهه حول عينَيه البُنِّيتَين الرَّقيقتَين.

لطالما صرَّح القس أن هذا الطفل سبَّب لسُكَّان القرية إزعاجًا لا يُطاق مُنذ ولادته. كانت لدَيه طاقةٌ للعب تُناسِب حجمَه والكثير من الفُضُول وحُب الاختلاط بالآخرين، وللأسف؛ كانت لدَيه شهيةٌ نَهِمَة للأكل. وعلى الرُّغم مِن حِصة الطَّعام الكبيرة التي كانت تُوفرها له الليدي وَندرشُوت، والتي كانت تَصِفها السيدة جرينفيلد بأنها حصةٌ سَخِيَّةٌ بإفراطٍ، كان للطفلِ شهيةٌ أسماها الطبيب ذات مرةٍ «شهية مُقزِّزة». كان يُمَثِّل أسوأ تجارب الليدي وَندرشُوت مع الطبقات السُّفلى من المُجتمع؛ فرُغم حِصة الغِذاء التي كانت أكثر بكثيرٍ من أقصى كميةٍ قد يحتاجها رجلٌ بالغٌ فضلًا عن كونه طفلًا صغيرًا، ضُبِط هذا المخلوق وهو يسرِق الطعام ويأكله بنهمٍ وشَراهةٍ غير طبيعية. كانت يده العظيمة الحجم تمتدُّ من فوق أسوار الحديقة؛ كان يرى خُبزًا يشتهيه فيسرِقه من سِلال الخبَّازين؛ اختفى الجُبنُ من مَخزن مَتجر مَارلُو؛ ولم تكن حظيرةٌ من حظائر الخنازير بمأمنٍ من بَطش شهوته. كان أحد الزُّرَّاعِ يتجوَّل في حقل اللِّفت الذي يملكه فوَجَد آثارًا عملاقةً لقدمَي الطفل، وآثار بطنه الجائع مُتناثرة؛ جذرٌ مُجتَثٌّ هُنا وآخر هُناك. أمَّا النُّقَر فقد طُمِست بدهاء صبياني. كان يأكل اللِّفت كما يُؤكل الفجل. كان يقف ويَقطفُ التُّفاحَ من شجرته ويأكله، إن لم يكن أحدٌ في الجِوار؛ تمامًا كما يَقطف الأطفال الطبيعيُّون التُّوتَ

من شُجَيرته. على أي حالٍ كانت قِلَّة المئونة هذه في صَالحِ قرية تشيزينج آيبرايت وسلامها؛ فعلى مدى سنواتٍ أخذ يأكُل كُلَّ ما يُقدَّم له من طعامٍ يُشبِه طعام الآلهة …

لا يختلف اثنان على ما سبَّبه هذا الطفل الشَّقي من متاعب. اعتاد القس أن يقول: «كان دائمًا مُضطربًا وهائجًا.» لم يستطع الذهاب إلى المدرسة، ولا حضور الطقوس في الكنيسة لسببٍ واضحٍ؛ مساحتها الصغيرة والمحدودة. جَرَت بعض المُحاولات لتطبيق رُوح نَص قانون التَّعليم الأساسي لعام ١٨٧٠ والذي وصفه القس — وأقتبس عنه — بأنه «أغبى القوانين وأكثرها تدميرًا.» حيث جَعَلوه يجلس خارجًا بجانب نافذةٍ مفتوحةٍ بينما يُدَرِّس المعلم للطلَّاب داخل الفصلِ، ولكن وجوده هُناك هَيَّج الطلاب الآخرين وأفسد انضباطهم؛ فقد كانوا دائمًا مُنشغِلين بالتَّحديقِ إليه، وكلَّما تكلَّم ضحكوا جميعًا من صوته الغريب؛ ولذلك اضطرُّوه للابتعاد عنهم.

كما لم يُلِحَّ أحدٌ عليه للقدوم إلى الكنيسة؛ فحجمه وأبعاده كانت مُثبِّطة بما لا يسمح له بالتنسُّك. ولكن ربما كانت لديهم مهمة أسهل؛ فهناك العديد من الأسباب الجيدة التي تُرَجِّح احتمالية وجود بذرة مشاعر دينية مدفونة بداخل هذا الهَيكل الضَّخم. لعلَّ الموسيقى هي ما جذبته؛ ففي صباح أيام الآحاد، كان يشقُّ طريقه بهدوءٍ وسط قبور ساحة الكنسية بعد اجتماع النَّاس داخل المبنى. كان يجلس مُدة القُدَّاس على باب المَدخَل يُصغي إلى ما يقولونه مثلما يُصغي أحدهم إلى خلية نحل.

في البداية أظهر استعدادًا؛ كان الناس بالداخل يسمعون صوت قدمَيه تجرُشان الأرض بتململٍ حول دار عبادتهم، أو يُفاجَئون بوجهه القَاتِم يُحملق من خلف الزجاج المُعَشَّق، وفي عينيه نظراتٌ ما بين فُضُول وحَسَد في بعض الأحيان. وعندما كانت تُنشَد بعض التَّرانيم الشَّجِية، تترك فيه أثرًا كبيرًا لينهمر في البكاء مُتناغمًا معها في حُرقة. وعندما كان يسمعه سلُوبِت الصغير — الذي يعمل في أيام الآحاد عازفًا لآلة الأورجن ويحمل الصولجان للأسقف، وخادمًا وعاملًا في الكنيسة كما كان يقرع الأجراس، أما في باقي أيام الأسبوع، فكان يعمل ساعيًا للبريد ومُنظِّفَ مداخن — كان يفزع إليه ويصرِفه بعيدًا في أسًى. أنا مُمتنٌّ لأن أقول إن سلُوبِت قد أحسَّ بما يختَلج جنبات هذا الصبي العملاق؛ فقد قال لي إنَّ الأمر أشبه بأن تأمُر كلبك أن يذهب إلى البيت بينما أنت قد شَرَعتَ في التنزُّه سيرًا على قدمَيك.

كان التَّأهيل الفكري والأخلاقي لطفل آل كادِلز تأهيلًا واضحًا وصريحًا على الرُّغم من أنه كان على مُدَدٍ مُتقطعة. فمن البداية، اجتمع القسُّ وأمُّه والعالم بأسره على أن

يُقنعوه بأن قواه الخارقة تِلك ليست للاستخدام؛ إنَّما هي بَلِيَّة وعليه أن يُحسِن التَّصرُّف معها. كان عليه أن يَعِي ما لقَّنوه وعلَّموه إياه جيدًا. كان عليه أن يحرص ألَّا يكسر شيئًا أو يُؤلم أحدًا. وبالأخص، يجب ألَّا يَطأ الأشياء أو يدفعها أو يقفز فوقَها. كان عليه تحية النُّبلاء مُتأدِّبًا والتعبير عن امتنانه لما يُعطونه إيَّاه من طعامٍ وكساءٍ من ثَرواتِهم. تعَلَّم كل هذا وهو مُذعنٌ؛ فهو بالسَّلِيقة كائنٌ يُمكن تَعلِيمه ولكنه بفِعل الطعام ومحض الصُّدفة عملاق.

في بادئ الأمر، كان هذا الصبي مصدر رهبة لليدي وَندرشُوت؛ رهبة لا تتصَور حتَّى إنها كانت تجد أفضل وضعٍ تتحدَّث معه فيه وهي ترتدي تنُّورة قصيرة وبيدها سوطٌ للكلاب تضرب به مُهدِّدةً، وكانت دائمًا ما تتعامل معه باحتقارٍ وزَعِيق، ولكن أحيانًا كان يقوم القس بدور السَّيد؛ رجلٌ مُنَمنَمٌ في منتصف العمر، أشبه بداود لاهثٍ يرجُم جالوتًا طفلًا بالتَّعزير وبالتأنيب وبالأوامر الاستبدادية. نَما هذا الوَحش نموًّا صار يستحيل معه أن يظنَّ أي إنسانٍ أنه طفلٌ يبلغ من العمر سبع سنواتٍ ومُفعمٌ بكل رغبات الطفولة من الملاحظة والاستمتاع والتَّجارب الجديدة؛ مُفعمٌ بكل احتياجات الطفولة من مُحاولات جذب الاهتمام والتعاطف؛ ومُفعمٌ بكلِّ وُسع الطفولة من التَّبعية والاعتماد على غيره والبؤس والضَّجر المُطلَق.

كان القسُّ يسير في طريق القرية ذات صباح مُشرقٍ، فلقِي هذا المخلوق الأخرق الغامض الذي يبلغ طوله ثماني عشرة قدمًا؛ والذي مَثَّل له في روعته وبُغضِه نوعًا جديدًا من المُنشقِّين، بملابسه غير المُكتملة ورقبته الممدودة تبحث كعادتها عن شيئين أساسيَّين؛ شيء يأكله وآخر يلهو به.

كانت تُرى في عينَي هذا المخلوق نظرة احترامٍ خَجِلة وهو يُحاول أن يلمس قُصَّة شعره المُجَعَّد.

كان للقس بقايا خيالٍ ضَيِّق، ومع وجود طفل آل كادِلز، بدأ ينمو خياله هذا ليَسَع الاحتمالات الكبيرة للأضرار التي قد تُسبِّبها تلك العضلات الضخمة. ماذا لو مَسَّه شيءٌ من جنون! أو ساءَ أدبُه وصار لا يحترم أحدًا! ولكن على الرُّغم من ذلك؛ ليس الشُّجاع مَن لا يخاف، بَل مَن يستطيع أن يَقهَر خوفَه. كان القسُّ في كل مرة يتغَافَل عن تخيُّلاته تلك، وكان يتحدث إلى الطفل العملاق بشجاعةٍ وجرأة وبصوتٍ آمرٍ وواضح.

«هل تتصرَّف كولدٍ مُهذَّب يا ألبرت إدوارد؟»

فيُجيب العملاق الصغير وهو يدنو من الحائط وقد احمرَّ وجهه في خجل: «أجل يا سيدي ... أحاول!»

فيردُّ عليه القس: «استمِر على ذلك.» ثم يتجاوزه وقد بدأت أنفاسه تُلاحق بعضها بعضًا من الخَوف، لكنَّه وضع قاعدةً يتَّبِعها حيث تَروق له حفظًا لماء وجهه ورجولته، وهي ألَّا ينظُر خلفه إلى الخَطَر ما دام قد مرَّ الأمر بسلام.

كان القسُّ يُعلِّم صغير آل كادِلز تعليمًا خصوصيًّا على مراتٍ متقطعة، ولكن لم يُعلِّمه القراءة؛ فلا حاجة به لأن يقرأ. كان يُعلِّمه أهم مواضيع كتاب التَّعليم المسيحي؛ كحقوق جيرانه، والرَّب الذي سيَصبُّ عليه غضبًا وعذابًا أليمًا إذا تجرَّأ وعصى القسَّ أو الليدي وَندرشُوت. كان يُلقِّنه الدروس في ساحة الدير، وكان المارَّة يسمعون الصوت الطفولي الحادَّ عاليًا يُردِّد التَّعاليم الأساسية للكنيسة الرسمية برَتَابة.

«أن أبجِّل المَلك وأن أخضع لجميع الحُكَّام والمُعلمين والرُّعاة المُصلحين والأسياد. وأن أعوِّد نفسي التواضُع وأن أُوقِّر ...»

اتَّضح مؤخرًا أن الخيول غير المُدرَّبة تَخاف البَشر المُتعَمِلِقين تمامًا كخوفها من الجِمال؛ لذلك أُمِر أن يبقى بعيدًا عن الطريق الرئيسي، ليس بعيدًا عن منطقة الأشجار فحسْب — حيث كانت تلك الابتسامة البَلهاء من فوق الجِدار تجعل الليدي وَندرشُوت تستشيط غضبًا — ولكن أن يبقى بعيدًا تمامًا، ولكنه لم يُطِع هذا الأمر بتاتًا؛ لوَلَعِه الشديد بالطريق الرئيسي، الأمر الذي اتَّضح فيما بعد أنه كان مُنتجعه الدائم للاستمتاع بالسَّرِقة. وفي آخر الأمر؛ أصبحت أماكن وجوده مقصورة على المراعي القديمة والهضاب المُنخفضة.

لا أدري ما كُنَّا لنفعل لولا الهضاب المنخفضة. فهناك؛ كانت مساحات شاسعة يُمكن له أن يتجوَّل فيها لأميالٍ وهو ما كان يفعله. كان يكسر فروع الشَّجَر ويُجمِّعها ليصنع باقاتٍ كباقات الزهور، حتَّى مُنِع عن ذلك. كان يتناول الخِراف بيدِه ويَصُفُّها صَفًّا مُحكمًا، فلا تمكث الخراف في مكانها إلا هُنيهةً بعدها تفرُّ في صخبٍ فيضحك هو ضحكًا شديدًا، حتَّى مُنِع عن ذلك. كان يحفر في الأرض المُعشوشِبة حُفَرًا عميقةً بلا هدفٍ؛ حتَّى مُنِع عن ذلك ...

كان يَجُول في الهِضاب المنخفضة حتَّى يصل إلى التَّل أعلى رِكستُون فلا يتجاوزه، لأنَّه وجد هناك أراضيَ زراعية كان أصحابها كلما اقترب يخرجون بكلابهم تنبح عليه كي يصرفوه بعيدًا؛ إذ كان ينهب محاصيلهم، وبسبب ما أثارته هيئته الضَّخمة والغريبة في

نفوسهم من عدوانية ورهبة، كانوا يُهدِّدونه ويضربونه بسِياط العَربات، وقد سمعتُ أنَّهم في بعض الأحيان يُطلقون عليه الرَّصاص من بنادقهم. في الجهة المُقابِلة كانت هيكليبراو تظهر في الأفق، ومن فوق ثِرسلي هَنجَر كان يُمكنه أن يَلمَح كلًّا من لندن وتشاتام وسكة حديد دوفر، ولكن الأراضي المحروثة والقُرى المُريبة حَالت بينه وبين أن يقترب من تلك الأماكن.

بعد فترة، وُضِعت اللافتات العملاقة التي كُتب عليها بالأحمر والتي حَاصرته من كل مكان. لم يستطع أن يقرأ ما كُتِبَ عليها: «ممنوع الاقتراب.» ولكن بعد مُدة قصيرة فَهِم معناها. كان يراه مُسافرو القطار في تلك الأيام جالسًا وذقنه على ركبتيه أعلى تَلةٍ بجانب مَحَاجِر ثِرسلي الطباشيرية حيث بدأ يعمل فيها لاحقًا. بَدا أن القطار كان يبثُّ في نفسه شعورًا خافتًا بالمودة واللطف؛ ففي بعض الأحيان، كان يُلَوِّح له بيده الضخمة، وفي أحيانٍ أخرى، يهتف له هتافًا ساذجًا غير متناسقٍ.

يقول أحد المسافرين وهو يُحدِّق: «إنه ضخم! إنه أحد أطفال الطعام المُكبِّر. يقولون يا سيدي إنَّهم لا يستطيعون فعل أي شيءٍ لأنفسهم، فهم ليسوا أفضل حالًا بكثيرٍ من الحمقى ويُشكِّلون عبئًا مَهولًا على المنطقة.»

«لقد أُخبِرت عن مدى تَعاسة آبائهم!»

«يعيشون على ما يُخرِجه الأغنياء من صدقات.»

يُحدِّق المسافرون جميعهم في هذا العملاق الجالس بعيدًا تحديقًا فيه استعلاءٌ لبعض الوقت.

ثم يقول أحدهم وقد هَداه تفكيره الواسع: «من الجيد أنَّهم وضعوا حدًّا له!» ثم يقترح آخر مُتهكمًا: «ألن يكون أمرًا طيبًا لو كان لدينا بضعة آلافٍ من هؤلاء العملاقة يعيشون على المعونات؟!»

وكالعادة يكون وسطهم رجلٌ ذو عقلٍ حصِيفٍ ليُصدق كلام ذلك الفيلسوف قائلًا بصوتٍ صَادقٍ يَنُمُّ عن يقينٍ: «لقد أصبتَ كَبد الحقيقة يا سيدي!»

٢

لقد مَرَّ بأيامٍ عسيرةٍ.

ومثالٌ على تلك الأيام؛ نذكُر مُعَاناته مع النَّهر.

لقد صَنَع قواربَ صغيرةً من أوراق الصُّحُف؛ فنٌّ تعلمه بُمشاهدة طفل آل «سبِندَر»، ثم يُطلق تلك القوارب لتُبحر مع التَّيار كقبَّعاتٍ ورقيةٍ عظيمة الحجم. كان يُطلق صيحةً عاليةً عندما تختفي تلك القوارب تحت الجِسر الذي يَحُدُّ المناطق المحظورة عند منزل آيبرايت، فينطلق عَدوًا قاطعًا حقل «تُرمَت» الجديد حتَّى يُلاقِي قواربه عند مياه النَّهر الضَّحلَة. يا أله! كَم ركضتْ خنازير «تُرمَت» من الفزع حتَّى ذابت شُحومها الطَّيبة وتحوَّلت إلى عضلاتٍ ضعيفة. اعتادت تلك القوارب الورقية أن تمرَّ عبر الأراضي الخضراء القريبة؛ أمام منزل آيبرايت وتحت ناظري الليدي وَندرشُوت!

بعثرة أوراق الصُّحُف المطوية بهذا الشكل! شيءٌ لطيف!

ولكي يأمن عقوبة فعلته تلك؛ بدأ يُطبِّق مبادئ الهندسة المائية تطبيقًا طفوليًّا. حَفَر مَرسًى ضخمًا لأسطول قواربه الورقية مُستخدمًا بابَ حظيرةٍ ضخمًا كمجراف ولحُسن حظِّه لم يَلحَظ أحدٌ ما كان يفعله وقتها. انتهى بحفر قناةٍ في غاية الإبداع فاضت ذات مرةٍ لتُغرِق مخزن ثلج الليدي وَندرشُوت. في نهاية الأمر سَدَّ النَّهر على عرضه ببضعة أكوامٍ من التُّراب كوَّمها بنشاطٍ وحماسة. تحت هذا السَّد فاض النَّهر فيضًا عجيبًا حتى إنه جَرَف مِسنَد لوح رسم الآنسة سبِنكِس وأضاع أبدَعَ ما جَادَت به قريحتها من لوحاتٍ مائية، أو يُمكن القول إن فيضان النَّهر جَرف مِسنَد لوحتها وتركها مُبتلَّة حتى رُكبتَيها تقطع طريق عودتها إلى البيت مهمومةً حزينة. بعد ذلك غمَرت المياه حديقة المطبخ حتَّى وصلت إلى البوابة الخضراء ومنها إلى الطريق حتَّى وصلت إلى مَصرف «شُرتس» ومنه إلى النَّهر مُجددًا.

في هذه الأثناء، قَطَع القسُّ حديثه مع الحدَّاد وأصابته الدهشة عندما رأى الأسماك المَجروفة تتلوَّى في بِضع بِركٍ خلَّفها فيضان النَّهر مع كمٍّ ضخمٍ من الحشائش الخضراء، بينما كانت المياه منذ عشر دقائق صافية وهادئة وارتفاعها ثماني أقدام.

هَرَب طفل آل كادِلز من بيته ليومَين بليليتهما بعد هذه الواقعة خوفًا من عاقبة ما فَعَله، ولكنه رجع بعد أن قَرَص الجُوع مَعِدته ليتحمَّل بهدوءٍ وسكينةٍ وابلًا من التَّأنيبِ الحادِّ والقَاسِي كما لم يُؤنَّب من قبل أثناء وجوده في هذه القرية السَّعيدة.

٣

بعدَ هذه الواقعة مُباشرةً، أصدرت الليدي وَندرشُوت إعلانًا رسميًّا بعد بحثٍ مُطوَّلٍ عن إضافاتٍ زاجرة يمكن أن تُضيفها إلى سوء معاملتها وقسوتها. في البداية، أصدرت الإعلان

لرئيس الخدَم على حين غِرةٍ جعلته ينتفِض فزعًا بينما كان يُنظِّف بقايا الفطور. كانت تقِف مُحدِّقةً من النَّافذة الطويلة في شُرفتِها حيث تأتي صغار الظِّباء لتُطعَم. نَادت بأكثر الأصوات سُلطَوية: «جُوبِت! يجب أن يعمل الجميع مقابل قُوت يومِه!»

أبَانَت هذا القرار وأوضحته ليس لخادمها فقط والذي كان أمرًا ميسورًا، ولكن لجميع أفراد القرية فردًا فردًا بما فيهم صبي آل كادِلز. هذه المرَّة كغيرها من المَرَّات كانت تعني ما اتَّخذته من قرارٍ.

قالت الليدي وَندرشُوت: «أسنِدْ إليه عملًا على الدَّوام! هذه نصيحةٌ للسيد الذي يتولَّى أمر الطفل كادِلز!»

ردَّ القس: «هذه هي أفضل نصيحة لجميع البشر! واجباتٌ بسيطة وأداءٌ مقبول ... نَزرع اليوم لنحصُد غدًا!»

قاطعته الليدي وَندرشُوت قائلةً: «بالضبط! هذا هو اعتقادي الشخصي. فالشيطان دائمًا ما يَشغل الأيادي العاطِلة عن العمل من الطبقات العاملة. نحن نُربِّي خَادمات البيت على هذا المبدأ دومًا. برأيك، أي عملٍ نُسند إليه؟»

كان هذا قرارًا صعبًا؛ رَاحَت الأفكارُ تتخَاطر هُنا وهناك، ولكن في الوقت الحالي، أسندوا له عملًا بسيطًا حتَّى يعتاد الأمر؛ فقد استعملوه بدلًا عن حصان المُراسلات ليُوصِّل الرسائل والمُذكِّرات حينما يتطلَّب الأمر عجلةً، كما كان يحمل المَتَاع والصَّنَاديق وما شابهها بسهولة ويسر في شَبَكة وجدوها له. بَدا عليه أنَّه أحبَّ العَمَل؛ فقد عدَّه وقتًا للَّعِب. أمَّا كِنكل، وكيل الليدي وَندرشُوت، فقد رآه يومًا ما يُزَحزِح حَجرًا من مكانه فتلألأت بباله خاطرةٌ بأن يستعمِله على مَحجَر الليدي وَندرشُوت الطباشيري في ثِرسلي هانجر قُرب هيكليبراو. نُفِّذ هذا الاقتراح من فوره وبَدَا لهم من بَعده أنَّهم قد أمِنوا شَرَّه.

بدايةً، عَمِل في المَحجَر الطباشيري بحماس طفلٍ يلهو ثم أصبحتَ عادةً اعتَادها حتَّى إنه صار يعمل بيدٍ واحدةٍ فقط؛ يَقتَلِع الأحجار ثم يُحمِّلها العربات ويبدأ بجرِّ المُتلئ منها على قضيبٍ باتجاه التَّحويلة، ثم يرجع قَاطِرًا العربات الفارغة بحبل رافعةٍ كبيرة.

أُخبِرتُ أنَّ كِنكل قد صَيَّره إلى شيءٍ نافعٍ للِّيدي وَندرشُوت، لا يستهلك غير طَعَامه في أغلب الأحيان. ولكن هذا لم يُحوِّل الليدي وَندرشُوت عن وَصمِها لهذا المخلوق بأنه عَالةٌ على خَزَائِن صَدَقاتها ...

في ذلك الوقت أثناء عمله، اعتادَ أن يرتدي حُلَّة فَضفَاضة من الخَيش وسروالًا من الجِلد المُرقَّع وينتعل نعلًا من حديد. أما على رأسه فقد كان أحيانًا يعتَمِر شيئًا غريبًا؛

كُرسيًّا خُوصيًّا على هيئة قفيرِ نحلٍ، ولكن في أغلب أحيانه يكون عاريَ الرأس. كان يَسير هائمًا حول المَحجر الطباشيري وكان القسُّ المُنطلقُ في جولته اليومية يصِل إلى هناك في منتصف اليومِ فيراه يأكل حِصَّته الضَّخمة من الطعام على استحياءٍ وقد أولى ظهره إلى العالَم وما به.

كانت حِصَّة طعامهِ تُنقل إليه يوميًّا؛ وكانت عبارة عن خليطٍ من حَبٍّ غير مقشُورٍ في عَرَبةٍ صغيرةٍ على قُضُبٍ حديدية مثلها كمثل تلك العربات التي ما فتئ يملؤها بالطباشير. كَان يُحمِّصُ تِلك الحُمُولة من الحَبِّ في جَيَّارةٍ قديمةٍ ثُم يلتهمُهَا، وفي بعضِ الأحيان كان يُضيف لها كيسًا من السكر أو يقعد كالكلب يلعق كُتلَة مِلحٍ أو يأكل كومةً ضخمةً من تَمرٍ أو حجارة أو أي شيءٍ، أكوامًا كتلك التي نَراها على عَربات السُّوقِ بلَندن. أمَّا عن شَرَابه، فقد كان يذهب إلى جَدولٍ خلف حظيرة التَّجارب المُحرَّقة في هيكليبراو ثُمَّ يُميل رأسه مُعترضًا تيَّار المياه فيشرَب. كانت طريقة شُربِه تلك بعد أن يأكل طَعام الآلهة هي ما مَكَّنت الطعام من التَّسرُّب حيث تسرَّب في البداية بين الأعشاب الكثيفة القريبة من ضفة النهر ثمَّ إلى الضَّفادع الكبيرة ثم إلى أسماك السَّلمون الضَّخمَة وأسماك الشَّبُّوط التي جرفها التيار نحو ضفة النهر، كما تغلغل بين النَّباتات الكثيفة في كل أرجاء الوادي الصغير.

بعد سنةٍ أو ما يقرُب من سنةٍ، نَمَت يَرقاتُ الوحوش الغريبة في الحقل المُقابل للحدَّاد وتطوَّرت حتَّى صارت كائنات مُرعِبة من حشرات الفرقع لوز وخنافس الحقل التي كان الصبية يُطلقون عليها الخنافس الآلية، تلك الحشرات التي جَعلت الليدي وَندرشُوت تفرُّ خارج القرية.

٤

ولكن سُرعان ما نَحا الطَّعام في جسده منحنًى آخر في طَورٍ جديدٍ. فعلى الرُّغم من التَّعليمات البسيطة للقس؛ تعليماتٌ وُضعت لتُقَوِّض الحياة الطبيعية والبسيطة لعملاقٍ من الطبقة العَامِلة تقويضًا كاملًا وشاملًا، بدأ الصغير العملاق يطرح الأسئلة ويسأل عن ماهية الأشياء، بدأ يُفكِّر. فكلَّما خَطا خطوة نحو سِنِّ المُراهقة مُودِّعًا طفولته، ظَهر جليًّا أن عقله كان له تفكيرٌ خاص خارج سيطرة القس الذي بَذل قُصارى جُهده ليتجاهل هذه الظَّاهرة المُقلِقة، ولكن بداخله كان يشعُر بوجودها.

بدأت أفكار هذا العملاق الصغير تُنَاطِحه، فرُغمًا عنه وبسبب مَجال رؤيته الواسع وتطلُّعه الدائم للأشياء من حوله؛ لا بُدَّ أنَّه عرف الكثير عن حياة البَشر. وكُلَّما وسعت هذه المَعرفة وأدرك أنَّه هو أيضًا من بني الإنسان، بغض النَّظر عن عَملَقَته الخَرقاء، لا بُدَّ أنَّه تَبَيَّن مقدار ما مُنِع منه بسبب اختلافه الكئيب. فقد حُرِمَ مُخالطة زملائه في المدرسة؛ وغموض الدِّين المزوج بثياب الكهنوت الزَّاهية البهِية التي كانت تُبهِج مَن يراها؛ حُرِم سماعُ ألحان وأغاني الجوقة الموسيقية في الحانة؛ والغُرَف المُشِعَّة دفئًا وضياءً بالشموع أو بنِيران المُستَوقَد، تلك الغُرَف التي كان يُحدِّق بها في ظلام الليل الحَالِك؛ أو الجَلجَلة الحماسية حول إحدى المسائل المُلْبِسة في رياضة الكريكت بعد مُباراةٍ لذوي السراويل الصُّوفية هؤلاء. كُل هذه الأشياء لا بُدَّ أنَّه كان يسمَع لصراخها دويًّا في قلبه التَّوَّاق لمُخالطة النَّاس. وعندما دخل في مرحلة المراهقة، تَزايد اهتمامه تزايدًا ملحوظًا بما للعاشقين من شئونٍ وأحوال وما بين هؤلاء الأزواج من مودةٍ وحمِيمية هي جَوهرُ الحياة.

في مساءِ أحدِ أيام الآحاد، قُبيل تلك الساعة التي تتلألأ فيها نُجُومُ السماءِ، وتخرُج الخفافيش، وتَفِيض الحياة الرِّيفية بعواطفها؛ كان هُناك عشيقان شابَّان يُقبِّل كلٌّ منهما الآخر في جادة الحُبِّ؛ جَادة طريقٍ مُسَوَّرة بنباتٍ كثيفٍ تقود طَارِقها إلى منطقة «آبر لودج». كان أحدهما يُلاعِب الآخر بطُمأنينةٍ في الشفق الدَّافئ كما اعتاد العاشقون. دَار في خلدِهما أنَّ ما يُمكن أن يَقطع لقاءهما هذا سيكون آتيًا بوضوحٍ باتِّجاه الجَادة؛ فالأسوار النَّباتية ذات الاثنتي عشرة قدمًا التي تفصلهما عن التِّلال الهادئة، بَدَت لهما كَسُورِ حصنٍ منيعٍ لا يُرام.

وفجأة وبصورةٍ عجيبةٍ، حُمِلا وفُرِّقَ بينهما.

وَجدَا نَفسيهما محمولين كُلًّا على حِدة بإصبعٍ وإبهامٍ تحت الإبط، وعينا صغير آل كادِلز البُنِّيتان تتفحَّصان في ارتباكٍ وجهيهما المُتورِّدين. كان هَول الموقِف قد عَقَد لسانهما.

سألهما صغير آل كادِلز: «لماذا تُحبُّون فِعل ذلك؟»

أتذكَّر أنهما استمرَّا في حرجٍ حتَّى أحَسَّ العَاشِق أن رجولته تُحتِّم عليه فعل شيءٍ ما، وأخذ يصِيح صياحًا عاليًا وحادًّا ويتوعَّده ويُحذِّره من العقاب إن لم يُنزلهما أرضًا؛ وعلى إثره، تذكَّر صغير آل كادِلز كيف يجب أن يُحسِن التَّصرف، وأنزلهما بهدوءٍ وأدبٍ بجانب بعضهما حتى يُكملا عِنَاقهما. وقف مُترددًا هُنيهةً ثمَّ اختفى كما ظَهَر باتجاه الشفق ...

اعترف العَاشِق لي وقال: «شَعرتُ بأنِّي أبله! لم يستطع كلانا النَّظر في عينَي الآخر من شدَّة الخجل بعد أن ضُبِطنا على هذا النَّحو.

لقد كان كلٌّ منا يُقبِّل الآخر!

والغريبُ أنَّها ألقَتْ عليَّ كامل اللوم ...

هَبَّت مُغادرةً المكان وهي تستشيط غضبًا، ولم تُحادثِني ولو ببنت شَفَة طوال طريق عودتنا إلى البيت ...»

كان العملاقُ قد بدأ في استكشاف الحقائق، ولا شكَّ في هذا. فقد صار الأمر واضحًا أنَّ عقله بدأ يطرح الأسئلة. ألقى تلك الأسئلة على قِلَّة من النَّاس ولكنَّهم أرهقوه. أتذكَّر أنَّ أمَّه كانت تخضع أحيانًا لجلسات استجوابٍ.

اعتاد أن يأتي إلى الفِناء خلف منزل أمِّه الرِّيفي، وبَعد أن يُمَحِّص الأرض بحثًا عن أي دجاجٍ أو فُروخٍ ثمَّ يجلس ببطءٍ مُتَّكئًا على حائط الحظيرة ... وفي لحظاتٍ تبدأ الدَّجاجات التي أحبَّته بالنَّقر في الوَحْل الطباشيري المُلطِّخ لثيابه والمُلتصِق بثناياها. وإذا حضر يومًا وكان مُنهكًا، فتبدأ هُرَيرة السيدة كادِلز التي لم تكن تَخاف منه مُطلقًا، بالرَّكض برشاقةٍ في أرجاء الحظيرة وحولها، تصعد المطبخ وتنزل منه، تتسلق رجله ثم جسدَه ثم تصعد إلى كتفِه ... تحظى بلحظة تأمُّلٍ، ثم تعود مرة أخرى إلى ما كانت عليه من ركضٍ وقفزٍ وتسلُّقٍ ... كانت أحيانًا تغرز مخالبها في وجهه مدفوعةً باللطفِ واللَّعبِ، ولكنه لم يجرؤ مرةً أن يُفكِّر حتَّى بلمسها؛ فهو لا يعرف ما هي عواقب أن يُملِّس بيده العظيمة الحجم على جسد هذا المخلوق الهزيل، بالإضافة إلى أنَّه كان يُحب أن يُدغدَغ ويُداعَب. يَمضي من الوقت القليلُ ثمَّ يبدأ بطرح عددٍ من الأسئلة المُربِكة على أُمِّه.

«أمَّاه! إذا كان العمل أمرًا جيدًا، فلماذا لا يعمل كُلُّ النَّاس؟»

نظرتْ أمُّه له وأجابته: «العملُ جيدٌ لَمن هم مثلُنا!»

تفكَّر في إجابتها هنيهةً ثم قال: «لماذا؟»

ثم سأل سؤالًا آخر قبل أن تُجيبه أمه عن سؤاله الأول: «لماذا نعمل يا أمَّاه؟ لماذا أقطِّع الحَجر الطباشيري في المَحجَر وأنتِ تغسلين الملابس يومًا بعد يومٍ، بينما تَركب الليدي وَندرشُوت عَرَبتها وتُسافر إلى تلك البلاد الجميلة المُحرَّمة على أمثالنا أنا وأنتِ؟»

ردَّت السيدة كادِلز وقالت: «هذا لأنها ليدي!»

قال الصغير: «أوه!» ثم أخذ يتأمَّل كلامَها بعُمقٍ.

أكملت أُمُّه حديثها وقالت: «إنْ لم يكن هناك أسيادٌ يُوفِّرون لنا عملًا؛ فكيف نقتَات نحن الفقراء؟»

استغرقَه استيعابُ هذا الرَّدِّ حِينًا.

ثمَّ أعاد الكَرَّة مرةً أخرى وسأل: «أمَّاه! إنْ لم يكن هُناك أسيادٌ؛ ألن يكون كُلُّ شيء مِلكًا لِمن هُم مِثلي ومثلك؟ وإذا هم ...»

قاطعتْه أمُّه التي أصبَحت بعد موت السيدة سكينر أكثر نُضرَةً وحيوية، وقد احمرَّ وجهها غضبًا: «أعوذ بالله منك. طفلٌ ثرثار! مُنذ أن قضت جَدَّتك المِسكِينة نَحبَها وأنت لا رادِع لك! إنْ كنت لا ترغب في سماع المزيد من الأكاذيب فلا تسأل أيَّ أسئلة؛ فوالدك سيُحَتَّم عليه أن يسأل النَّاس ليُطعموه إذا ما أجبتُ عن أسئلتك بصدقٍ. ذَرْني أُنهي غَسل الملابس رجاءً!»

أجابها الطفل وقد بَدت عيناه حائرتَين: «سَمعًا يا أمَّاه! لم أقصِد أن أُزعجكِ!»

ثُمَّ يُطلق جَواد فِكرِه يَركضُ حيث شاء.

٥

كان ما يزال يُمعِن في التَّفكير حتَّى بعد مُضِيِّ أربع سنواتٍ عندما رآه للمرة الأخيرة في حياته؛ القسُّ الذي كان قد تقدَّم به العمر. كان القسُّ قد ظَهر عليه أثرُ الشَّيب؛ أَنحَل الزَّمان خَاصِرته فتَرَهَّل حِزامه، وتباطأت حركاته وبَلُد عقله واثَّاقَل لسانه، ارتَعَشت يداه كما ارتَعَشت قناعاته، ورغم ذلك، كانت عيناه لا تزالان برَّاقتَين قريرتَين مُمتنَّتَين رغم كل ما أحدثَه طعام الآلهة من متاعب له وللقرية. أتى عليه زمانٌ كان فيه خائفًا تارةً ومُشوَّشًا تارة أخرى، ولكن ألم يكن حيًّا يُرزق كما كان من قبل هذا؟ كما جعلت مدةُ الخمس عشرة سنة — وهي فترة لا بأس بها من الزمان — المتاعبَ شيئًا اعتياديًّا.

كان يقول: «الحقُّ يُقال، لقد كان الأمر مُزعجًا! تغيَّر كُلُّ شيءٍ من نواحٍ عدَّة. كان هناك زمنٌ يقدِر فيه الصَّبي على جَزِّ الحشائش الضَّارَّة، أمَّا الآن، فلا يقدِر على جَزِّها في بعض الأماكن إلا رجلٌ يحمل فأسًا وعَتَلَةً. فغريبٌ علينا نحن العَجَائزَ أن نَرى ذلك الوادي الذي كان قديمًا قاعًا للنهر قبل أن تُسقَى النباتات، تملؤه عيدان القَمح الشاهقة الطول بارتفاع خمسٍ وعشرين قدمًا. كان الزُّرَّاعُ يستخدمون المَنَاجِل القديمة هُنا منذ عشرين سنةً مضت، ثمَّ ينقلون حصادهم في بهجةٍ على عرباتٍ بسيطةٍ في امتنان. كانوا يَختمون

الحصاد بشربِ القليل من المُسكِرات مع دقائق من معاشرة أزواجهم ... يا لتعاسة الليدي وَندرشُوت؛ ما أحبَّت هذه البِدَع قط، فقد كُنت أراها ذات نَزعَةٍ مُحافظةٍ تَجِد فيها رِيح القرن الثامن عشر ... فلهجتُها مثلًا ... كانت تأسِر الألباب ...

ماتت ميتةً بائسةً رُغم ذلك. فقد استشرت الحشائش العملاقة في بُستانها ورُغم أنَّها لم تكن امرأةً مُولعة بالبساتين، كانت تُحب أن يكون بُستانها مُنظَّمًا ومُنسَّقًا؛ تنمو النَّباتات حيث زُرِعَت وكيفما زُرِعَت، كلُّ شيءٍ تحت السَّيطرة. أمَّا نمو النَّباتات فكان غير مُتوقعٍ فأحبط خططها وأفكارها. لم تُحب التَّطفل الدَّائم من هذا الوَحشِ الصغير، ففي آخر عُمرها كانت تتوهَّم أنَّه يقف مُحدِّقًا بها من وراء الجدار ... كانت تكره كونه طويلًا طولًا يُضاهي ارتفاع بيتها ... كان هذا يُشَتِّتُ إحساسها بالأبعاد. يا لها من مسكينة! كُنت أرجو أن تظلَّ على قيد الحياة حتى أموت أنا. كانت تلك الخَنافس الطَّيارة التي ابتُلينا بها قُرابة السَّنة أو يزيد، هي القَشة التي قصمت ظهرَ البعير ... جاءت تلك الخنافس من تلك اليرقات العملاقة على مَرْجَة النَّهر؛ حجم اليَرَقة منها كحجم فأر.

كما زادَ النَّملُ الطينَ بِلةً بلا شك ...

وبما أنَّ كل شيءٍ كان مُثيرًا للحَنَقِ ولم يعُد هناك سلامٌ ولا هدوء؛ قالت إنَّها فكَّرت في الانتقال إلى مدينة مونت كَارلو أو أي مدينة أخرى ثمَّ ذهبت.

أُخبِرتُ أنَّها خَاضت غِمار الحياة ببسالةٍ، وفي النهاية ماتت في غرفة أحد الفنادق هُناك. يا لها من نهاية مُؤسفة! الموت في مَنفًى ... لم يتوقع أحدٌ أن تكون هذه نهايتها؛ مُجتَثَّة من بين شعبها الإنجليزي بعد أن كانت واحدةً من أسياده ... لذلك ...»

ثُمَّ أخذ القسُّ يُثرثِر: «وفي نهاية المَطافِ؛ لم يُحقِّق الأمرُ ثماره المرجوة، بل كان مُؤذيًا. فها هم الأطفال لا يستطيعون الرَّكض واللَّعب بحريةٍ كما اعتادوا خوفًا من قَرَصات النَّمل وغيرها، ولكن لعلَّ هذا يَصبُّ في مصلحتنا؛ فقد كانت هُناك نقاشاتٌ عمَّا يُمكن أن يُحدثه هذا الطَّعام من تحوُّلٍ في كل المجالات ... ولكن هُناك شيئًا ما يُبطِل كلَّ مفعولٍ لهذا الشيء الجديد؛ أنا لا أعرفه بالتَّأكيد. فأنا لستُ أحد هؤلاء الفلاسفة المُعاصِرين الذين يُفسِّرون ماهية كُلِّ شيءٍ بموجات الأثير والذَّرَّات أو نظرية التَّطوُّر وما شَابَه هذا الهُرَاء. ما أعنيه هو شيءٌ خَارج نطاق العُلوم. مسألةٌ منطقٍ لا فَهم. الحِكمَة الإلهيَّة. الطبيعة البشرية. شيءٌ خالدٌ لا يَبلى ... بإمكانك تسميته كيفما تشاء.»

ثمَّ جاءت المَرَّة الأخِيرة ...

لم يكن القسُّ يخشى ممَّا كان يَحُوم منتظرًا إيَّاه هُناك. شَرَع في جَولته حول سُهول فارذِنج، تلك الجَولة التي اعتادها لما يُقارب العشرين سنةً واتَّجه إلى مكانٍ يتأتى له منه مراقبة صغير آل كادِلز العملاق. تسلَّق التَّل حيث أصبح المَحجر الطباشيري على مرأًى منه وهو يَلهث؛ فقد مَضى زمنٌ منذ أن فقد لياقته وقوة عضلاته التي كان يهتمُّ بها في الأيام الخَوالي بدافعٍ من عقيدته. وعندما وصل لم يكن صغير آل كادِلز هُناك في مَحلِّ عمله. جَالَ حول أحراشٍ من نَبات السَّرخس العملاق التي أوشكت أن تَحجُب ما وراءها من شُجيرات. وَقَع نظره على هذا الوحش الضَّخم يجلس أعلى التَّل؛ كان يجلس شَاردًا مهمومًا كأنما يَحمِل هُموم العَالَمين فوق كتفَيه. كانت رُكبتاه مثنِيتَين وخَدُّه على يده ورأسه مائلًا. كان جالسًا وكَتفه باتجاه القسِّ فلا تُرَى عيناه الحائرتان. لا بُدَّ أنَّه كان مُستغرقًا في التَّفكير بعمقٍ، فجِلسَته كانت ساكنة بلا حَراكٍ.

لم يلتَفِت قَطُّ ولم يعرف أن القسَّ الذي كان له دورٌ محوريٌّ في مُجرَيات حياته كان يُلقِي عليه نظرةً أخيرة بعد أن راقبه مراتٍ لا تُحصى. لم يَدرِ حتَّى أنَّه كان واقفًا هُناك. وتلك هي الطريقة التي يحدُث بها الكثير من مواقف الفِراق ... خَطَر بباله فجأة في ذلك الوقت حقيقة أن لا أحدَ على وجه البسيطة يعرف ما الذي فكَّر فيه هذا الوحشُ العظيم عندما قرَّر أن يستريح من العَمل، لكنَّه كان كسولًا ذلك اليوم كسَلًا قرَّر معه أن يَكبَح جِماحَ تفكيره في احتمالات هذا الأمر الجديد وفضَّل أن يَركَن إلى ثَوابته القديمة.

أخذ يُتمتم وهو عائدٌ باتجاه منزله: «ماذا قد يكون أكثر خلودًا من هذا يا تُرى؟!» متَّخِذًا طريقًا لم يعُد مستقيمًا بعرض المَرْج كما كان سابقًا، بَل طريقًا ملتويًا كي يتفادى جَثيل العُشب العملاق الذي بدأ بالنمو. «لا، لم يتغيَّر شيء! الأبعادُ لا تُمثل شيئًا. كُلُّ شيءٍ كما هو بالطريقة المُعتادة!»

تلك الليلة، سرَتْ عليه نواميسُ الكونِ؛ وغَادَر دون ألمٍ أو معرفة هذه الدُّنيا ولُغز التَّغيُّر والتَّقلب الذي جَاهَد طوال حياته ليُنكِره.

دُفِنَ بسَاحة الكنيسة في تشيزينج آيبرايت قُرب أكبر شجرةٍ هُناك، وكُتِب على شَاهِد قبره كلامًا كان آخِر سطرٍ فيه هو: «كما كان في البداية، هو الآن، وسيظلُّ كما هو أبد الآبدين.» هذا الشَّاهد الذي أوشَك أن يختفي عن الأعيُن بَعد أن غَشيَه هذا العُشب الرَّمادي السَّميك الذي بَلغ من القَسوة مَبلغًا لا مِجَزَّ يُقَلِّمه ولا ماشية تَرعى فِيه حيث أخذ يَدِبُّ في القرية كما يَدِبُّ الشَّيب في الرَّأس قادمًا عبر مُرُوجِ الوادي ورُطُوبَته والتي كانت مَرتعًا لطعام الآلهة.

الكتاب الثالث

حصاد الطعام

الفصل الأول

العالم الجديد

١

أخذ التغيير الجديد يُحرِّك خيوط العالَم على مدار عشرين عامًا. ورُغم أن الأشياء الجديدة كانت واضحةً جَلِيةً، فإنها كانت تَظهر رُوَيدًا رُوَيدًا ويومًا بعد يومٍ، ولم تكن مُباغتةً طَاغِيةً تُذهِبُ العقول. كانت هذه هي حالة أغلب البشر حينذاك، ولكن هُناك رجلًا انهَالَت عليه تراكُمَاتُ عقْدَين مِن أفعال طعام الآلهة مرَّةً واحدةً في يومٍ واحدٍ. ولَعَلَّ من المناسب في هذا المقام أن نَرجِع إلى ذلك اليوم لنَسرُد بعضًا مِمَّا هَالَه وأفزَعه. كَان هذا الرجل مُذنِبًا عُوقِب بالسجن مَدى حياته، وبعد أن قضى عشرين عامًا في السجن، ارتأى القانون أن يعفو عنه ويُطلِقه حُرًّا. ولا شأن لنا هُنا بما ارتكبَه من جريمة. ففي صبيحة أحد أيام الصيف، وَجَدَ هذا المخلوق التَّعيس نَفسه تَائهًا في حُرِّيته بعد أن نُزِع من يدَيه ما كان يُكبِّلُهما من عملٍ مُضنٍ وانضباطٍ شاقٍّ شَكَّلا نَمَط حياته داخل مَحبَسه الذي انقطع فيه عن العالَم وهو شابٌّ فَتِيٌّ قد زَادَ عمره عن العشرين بثلاثِ سنين. كانوا يُلبسونه ثيابًا لم يعتدها ويتركون له شعره ينمو لعدة أسابيع، وقد هذَّبه مُنذُ أيامٍ. خَطَا مُجدَّدًا أرضَ هذا العالَم في هيئةٍ رَثَّةٍ مُهلهَلَةٍ جَسَدِيًّا وعَقلِيًّا وتَطرِف عيناه كما تُرفرِف رُوحُه بالتَّأكيد في محاولةٍ لإدراكِ شيءٍ واحدٍ عُجَاب؛ وهو أنه قد رجع مرةً أخرى دون استعدادٍ ولِمُدَّةٍ قصيرةٍ إلى أرض الحياة بما فيها من أشياء غريبةٍ تفُوق حدَّ التَّصدِيق. كان محظوظًا بما فيه الكفاية ليكون له أخ حملتْهُ تلك الذِّكريات التي طواها الزَّمن على القُدُوم ليستقبله ويَشُد عَضُده، ذلك الأخ الذي تغيَّرت ملامحه بعد أن تَرَكه صبيًّا صغيرًا، وهَا هُو الآن رجلٌ ناضجٌ ذو لحية. معًا؛ هو وذلك الغريبُ من عشيرته تَوجَّها إلى مدينة دوفر. وفي

الطَّريق تبادلا من الحديث القليل، ولكن كان صدرُ كلٍّ منهما بحرًا جيَّاشًا من المشاعر والأحاسيس.

جلسا لبعض الوقت في إحدى الحانات حيث أجابَ كلٌّ منهما عن أسئلة الآخر عن هذا الشخص وذاك. استَعادَا في حديثهما آراءً ومواضيعَ قَديمة لم تَعد يُلقَى لها بالٌ، وتَجاهلا مئاتِ الأشياء والأحداث المُعاصِرة الجديدة. ثُمَّ حَانَ وقت الذَّهاب إلى محطة القطار ليصعَدا على متن الرِّحلة المُتَّجهة إلى لندن. ولا يهمُّنا في قصتنا هذه اسما هذَين الرَّجُلين ولا ما دَار بينهما من حديث، ولكن يهمُّنا ما قاستْه الرُّوح العائدة لهذا الرَّجلِ المسكينِ من غرائب وتغَيُّرات في نَواميس الكون الذي كان يومًا ما مألوفًا له.

أمَّا على أرض مدينة دوفر، فلم يسترعِ انتباهه الكثير، ولكن دَمَعَت عيناه في سرورٍ ما إن سُقِي نبيذ الشَّعير في قَدَحه القصديري. هذا النَّبيذ الذي لم يذُق مثله في حياته حتَّى قال وهو يَظنُّ أنَّه لا يُوجَد على الأرض ما هو أفضل منه: «يا لها من جِعَة! لم أذُق مثلها قط!»

وما كَادَ القطار يُجاوِز بِهما قرية فُلْكستُون حتَّى تَسَنَّى للرجل أن يَرى ما جَاوز قُدرة مشاعره على التَّعبير … فقد رأى ما حدث للعالمِ من تبديلٍ وتحوُّل. أطلَّ برأسه من النافذة وحمْلَق قائلًا للمرة الثانية عشرة: «الجوُّ صحوٌ ومُشمِس! لم أكن لأتمنَّى طقسًا أفضل من هذا!» ثم كان أن أدرك للمرة الأولى أنَّ هُناك اختلالًا غيرَ مألوفٍ في تناسُب الأشياء في العالم. انتَصَب جَسَدُه وصرخ بحيويةٍ بَدَت عليه لأول مرة: «يا إله السَّماوات! يا لتلك الأزهار الضَّخمة بأشواكِها المُرعِبة تنمو على الضِّفة بجانب ذلك النَّبات الأصفر الذي يُشبه رأس المِقَشَّة! أهذه حقًّا أزهار؟ أَم أصابَني الخَرَف؟!» كَانت تلك أزهارًا حقًّا، وكان ذلك النَّبات الأصفر هو العُشب الجديد … ووسط تلك النَّباتات، كانت هُناك فِرقة من الجُنُود الإنجليز، في حُلَّتِهم الحمراء كعادتهم، يتدربون على مُناوَشاتٍ تبعًا لكُتيِّب التَّمارين والمهارات الذي نُقِّح جزئيًّا بعد حرب «البوير». ثمَّ شَقَّ القطارُ النَّفق بعنفٍ وجَسَارةٍ، ومَرَّ بعدها على مفرقِ سَنْدِلنج الذي كان، على الرُّغم من مَصَابيحه التي كانت مُشتَعِلةً بكامل عددِها، كان مُظلمًا مَطمورًا بأجَمَةٍ هائلة الضَّخَامة من زهور الرَّندرة زَحَفت من البساتين المُجاوِرة ونَمَت بإفراطٍ جاوز الحَدَّ لأعلى الوادي. كَان هُناك قطارٌ على خطِّ حديد سَنْدجيت عَربَاته كُلُّها مُحمَّلة بأكوامٍ عظيمةٍ من أخشابِ زهور الرَّندرة، وهُناك سَمِع مواطِنُنا العائد لأول مرَّة عن الطَّعام المُكَبِّر.

وكُلَّما تَوغَّلا مُجدَّدًا في الأراضي الريفية التي بَدَت كأنَّ يَدَ التَّغيير لم تَمَسَّها، كان الشقيقان يجِدان صعوبةً في تفسير ما يحدُث. كان أحدهما شغوفًا متلهفًا يطرح أسئلةً مُضجِرة، وكان الآخر لا يُلقي بالًا ولم يُجهِد عقله من قبل قطُّ ليدرك حقيقة الأمر؛ كانت إجاباته تَلميحيَّة وغير مُباشرة. قال له مُبَسِّطًا الأمر إلى البديهيات: «هذه هي آثارُ الطَّعام المُكبِّر … ألم يُخبروك عنه؟ الطَّعام المُكبِّر؟ هذا الشيء المعروف، الذي تَدور حَوله البَرامج الانتخابية؟ هذا الشيء العِلمي؟ ألم يُخبرك أحدٌ عنه؟»

ظَنَّ الرَّجل أنَّ السجن قد جَعل من أخيه شخصًا مُروِّعًا بَلِيدَ الذهن لكونه لا يعلم بأمرٍ كهذا.

كَشَفَ كلٌّ منهما صَفحة صاحِبه بطريقة الأسئلة والأجوبة. وتَخلَّل فُتات المُحادثاتِ تلك فواصِلُ زمنية طويلة من التَّحديق من النَّافذة. في البداية كانت اهتماماتُ الرجل بالأشياء غامضةً وسطحية. كان عقله مشغولًا بالحال الذي قد يبدو عليه الرِّجال المُسنُّون في هذا الوقت وبالأشياء التي ربما يقولونها أو يتحدَّثون عنها، وكيف سيَحكي للجميع عن أشياء ستُسلِّطُ الضوء على مُدة سجنه. تعرَّض لعبارة «الطَّعام المُكبِّر» لأول مرة كمُصطلحٍ في فقرةٍ مُستهجَنةٍ بالصَّحيفة، ثم كانت جوهر مُعضِلةٍ فكريةٍ بينَه وبين أخيه، لكنَّه تَبَيَّن لاحقًا أن هذا الطَّعام المُكبِّر كان محور أي موضوعٍ حاول الحديث عنه.

كان العالَم في تلك الأيام في تغيُّرٍ مُستمر؛ كثَوبٍ مؤلَّفٍ من رقاعٍ مختلفة الألوان، وهكذا أتت عليه تلك الحقيقةُ الحديثة بعِظَمِهَا في سلسلةٍ من صدمات التناقُض. فلم تكن عجلة التَّغير العاتية تجري على نَسَقٍ واحد؛ فقد أخذت تتفَشَّى من مركزِ توزيعٍ لآخر. كانت بقاع الرِّيف مُتباينة؛ مناطق شاسعة يمضي الطَّعام المكبِّر في طريقه إليها، ومناطق أخرى تَغلغَل الطَّعام في أرضها وهوائها على نحوٍ متقطِّعٍ ومُعْدٍ. كان تيَّارًا جديدًا جسورًا يَزحَف ببطءٍ بين الأجواء العَتِيقة والرَّاسِخة.

كان التَّباين واضحًا بجلاءٍ على طول الطريق بين دوفر ولندن في ذلك الوقت. مرَّا على جانبٍ من الرِّيف كان قد عَهِده مُنذ طفولته؛ الحقول الصغيرة المُستَطيلة تفصلها عن بعضها البعض صفوفٌ من الشُّجيرات ومساحتها مُناسِبة لحصانٍ قزمٍ يحرُثها، ويقطعها. طُرقٌ صغيرةٌ عرضها يَسعُ ثلاثَ عرباتٍ متجاوراتٍ … يتناثر شجر الدردارِ والبلُّوطِ والحُورِ بين تلك الحقولِ مع عددٍ قليلٍ من أيْكات شجر الصَّفْصاف تُجاوِر جداول

المياه. أكوامُ القَشِّ لا تعلو عن ارتفاع رُكبَتَي عملاقٍ، والمَنازلُ الصَّغيرة الدَّافئة ذات النَّوافذ المُتلألئة، ومصانع الطُّوب، والشَّوارع القرويَّة غير المُمَهَّدة، والبيوت الأكبر حجمًا التي تَقع على جانب قضبان القطار حيث تَنمو الأزهار لتبدو تلك البيوت أجمل بقليلٍ، ومحطات القطار المُقامة وسط البساتين وكل تلك الأشياء المُمَيِّزة للقَرن التَّاسع عشر المُندَثِر، والتي ما تزال صامدةً أمام التَّضخم والاتساع. هُنَا وهُنَاك تتبَعثَر كَومة أوراقٍ جَمَعَتها الرِّياح، أو شجرة شوكية عملاقة كَسَرتها الرِّياح ولكن تقف شامخةً أمام نَصل الفُئوس. هُنا وهناك تَرى قَلنسوة فطرٍ عملاقٍ طولها عشر أقدامٍ أو سُوقًا جَافةً لبعض العُشب العملاق الذَّابل. كَان كُل ذلك يُنذِرُ بقُدوم الطَّعام وما مَعه من غَرائِب.

لم يكن هُناك شيءٌ طوال قُرابة الأربعين ميلًا يَزيد غَرابةً عن غَرابة الحجم العملاق للقمح والعُشب الذي كان يتوارى عن ناظريه على بُعد ما يُقارب اثني عشر ميلًا من طريقه خلف تلال وادي تشيزينج آيبرايت. ثُمَّ بدأت آثار الطَّعام بالظهور. كان أولُ ما أذهله هو ضَخَامة ذاك الجسر الجديد في تُنبردج، حيث شارَف نَهر مِدواي الضَّيق على التَّحول إلى مُستنقعٍ بفضل تَشكِيلة عملاقة من الطَّحالب التي بدأت تتكاثر في مِياهه خلال تلك الأيام. ثم ظهرَ الرِّيفُ من جديد. وبينما بدأت تتجلَّى مدينة لندن بضخامتها وضبابيتها، أصبحت آثار معركة يخوضها الإنسان من أجل منع العَملَقة كثيرة ومُتلاحقة.

في ذلك الوقت بمنطقة جنوب شرق لندن تمامًا حيث عَاش كُوسَار وأبناؤه، ثار الطَّعام وفَارَ فَوَرانًا غامضًا لم يُعلَم سببه؛ كانت الحياة البسيطة تَمضِي وَسط نُذُر يومية أَلِفها النَّاس واعتادوها شيئًا فشيئًا بحيث لم يعودوا يُبالون بها كثيرًا. ولكن أخذ هذا المُواطنُ العائد يُحمِلق للمرة الأولى إلى صَنائِع الطَّعام المُكبِّر العجيبة والمُتفشِّية، والمناطِق المَهجورة والمُظلِمة وتلك الدِّفاعات الضَّخمة والتَّجهيزات التي لا تَسُرُّ النَّاظِر إليها، وهذه الثُّكناتِ وترسانات الأسلحة والذَّخائر التي أقحَمتها آثار الطَّعام المُستمِرة والمُرَاوغة في حياة البَشر.

على مقياسٍ أكثر ضراوة، تكرَّرت هنا أحداث وأهوال أول مزرعة تجريبية مرارًا. بدأت تباشيرُ ذلك تتجلى في الغثِّ من الأشياء وبمَحض المُصادفات في الأماكن المهجورة ومكبَّات النفايات. كان ظهورًا متقطِّعًا وعشوائيًّا ومُنبِئًا ببُزُوغ نواميس جديدةٍ تصحبُها عقباتٌ لم تُعهَد من قبل. كانت هناك ساحاتٌ وحظائر كبيرة تفوح منها رائحة شديدة السوء حيث نما فيها نوعٌ قاسٍ من الحشائش كثافته ككثافة الأدغال استخدمه النَّاس كوقودٍ للآلات العملاقة. (كان صِبية الأحياء الفقيرة في لندن يأتون لمُشَاهدة عملية تزييت

الآلات وما يصحبها من صخبٍ مُقابِل نصف شِلِن يدفعونه للعمَّال.) كانت هناك طُرُقٌ ومَسَاراتٌ للمَركبات والعَربات الضَّخمة؛ طُرُقٌ مَحُوكةٌ من الألياف المُتَضخِّمة لنبات القِنَّب. كانت هُناك أبراجٌ عَلتْها صافراتُ إنذارٍ بُخَارية تُطلق إنذارًا فوريًّا مُحذِّرةً العَالم من حولها عند اقتراب أي هجومٍ للحشراتِ والهوام. أمَّا الأغرب من ذلك، فهو أبراج الكنيسة المَهِيبة التي جُهِّزَت بأجهزة إنذارٍ ميكانيكية لافتة للأنظار. كانت هناك أكواخُ لجوءٍ صغيرة عليها طلاءٌ أحمر، وثُكناتُ حَامِياتٍ عسكرية مُزوَّدة بمدفعٍ رشَّاشٍ مداه ٣٠٠ ياردة؛ حيث كان الرُّماة يتدرَّبون يوميًّا على ذخيرة يُسلِّطونها على أهدافٍ على هيئة فئران ضخمةٍ بَشِعَة المنظر.

حدثت هُنا سِتَّة اندلاعَاتٍ للفئران العملاقة مُنذ أيام سكينر، كُلُّ غَارةٍ كانت تأتي من بَالوعات جنوب غرب لندن حَتَّى صار الأمر مألوفًا ومُعتادًا تمامًا كما اعتاد النَّاس النُّمور في الدلتا القريبة من كلكتا الهِندية.

اشترى أخو الرَّجُل إحدى الصحُف من سَندِلِنج وهو غير مبالٍ، وبهذا الفِعل تمكَّن شيءٌ ما، بعد عناءٍ، من جذب انتباه هذا الرَّجُل المُطلَق سراحه. أخذ يفتح الصفحات الغريبة التي بَدَت أصغر حجمًا وأكثر عددًا، ومختلفةً عن الصحُفِ التي كانت تصدُر في الماضي. أخذ يُقَلِّب صفحاتها ليجد نفسه أمام عددٍ مَهولٍ من صور الأشياء الغريبة التي بَلَغت بغرابتها حدًّا صارت معه لا تَبعثُ على الاهتمام، إضافةً إلى أعمدة صُحفية طويلةٍ مُعنونةٍ بعناوين كان مُعظمها لا يحمِل أيَّ معنى كما لو كان مكتوبًا بلغةٍ أجنبية. «خُطبةٌ عظيمةٌ للسيد كاترام» «قَوانين الطَّعام المُكبِّر.»

سأل الرَّجُل في محاولةٍ لبدء حوارٍ: «مَنْ هو كاترام، هذا الرَّجل المذكور هنا؟»

أجابه أخوه: «هو رجلٌ جَيِّد!»

ردَّ الرجل وقال: «أها! هو رجلُ سياسة، صحيح؟»

أجابه أخوه: «سيقلِب الحُكُومة رأسًا على عقِب؛ لقد أبلى بلاءً حسنًا في فِعل ذلك.»

تعجَّب الرَّجُل وقَال: «أها! أظنُّ أنَّ كل الأماكن التي كُنت أعرفها في الماضي؛ تشَمبَرلِن وروزبِري، كُل هذه الأماكن ... ماذا؟»

جذب أخوه ذراعه وأشار بأصبعه خارج النَّافِذة.

قال: «هذا ابنُ كُوسَار!» تَبِعَت عينا السَّجين المُفرَج عنه الأُصبع ونظرتا بالاتجاه الذي يُشير إليه.

صرخ الرَّجل: «ربَّاه!» وللمرة الأولى عَلَت الدَّهشة ملامح وجهه وكان مذهولًا لدرجة أن الصَّحيفة سقطت من بين يدَيه تحت قدميه حيث ستُنسَى وتُهمَل إلى الأبد. كان يرى بوضوحٍ بين الأشجار، إنسانًا عملاقًا بطول أربعين قدمًا على الأقل، يقِف وَقفةً مُسترخِيةً مُباعدًا بين رجليه ويده تَقبض على كرةٍ كأنَّما يستَعدُّ لقذفِها. كان جَسده يَتلألأ من أشعَّة الشَّمس المُنعَكِسة على حُلَّته التي صُنعت من معدنٍ أبيض وعلى خصره حزامٌ عريضٌ من الصُّلب. استرعى هذا العِملاق كاملَ انتباه الرَّجل لمدةٍ قصيرةٍ، ثم تحوَّلت عيناه إلى عملاقٍ آخر على مسافةٍ أبعد يقف مُستعدًّا ليلتقط الكُرة، وبَدا أن منطقة هذا الخليج الفَسيح في التلال الواقعة شمال سيفينوكس مباشرةً قد خُصِّصَت بأكملها لصالح العمالقة.

كان هُناك منزلٌ يتوسَّط خندقًا عظيمًا حُفِرَ أعلى المَحجَر الطباشيري. كان منزلًا ضخمًا يُشبه مَنازل المصريين القدماء بناه كُوسَار لأبنائه عندما كانت حَضَانة العَمَالِقَة ما تزال تؤدي الغرض. خَلف هذا المنزل كانت هناك سَقيفَة مُظلِمة حجمها كحجم كاتدرائيَّةٍ أتى منها صوت طَرقٍ جبابِرة يُصِمُّ الآذان ويُرَى لها وهجٌ مُتقطِّعٌ تَراه مع كل طَرقة. ثُمَّ تحوَّل اهتمامه إلى ذاك العملاق وهو يقذِف بيديه تلك الكرة الخشبية الضَّخمة المُطَعَّمَة بقِطع الحديد.

وقفَ الرَّجُلان وحدَّقا في الكرة التي بَلَغت ضخامتها ضَخامة برمِيل.

صرخ الرَّجل الخَارج لتوِّه من السِّجن عندما حجبت شجرةٌ ما العملاق القاذف الكرة: «أمسكها!»

مَرَّ القطار بجانب تِلك المَشاهِد في دقيقةٍ أو بَعض دقيقةٍ ثم ما لَبث أن مَرَق بجانب الأشجار ليعبُر نفق تشزلهرست. قال السَّجين المُفرَج عنه عندما غَشِيت ظُلمة النَّفق القِطار: «يا ربَّاه! هذا الصَّبي كان طوله بارتفاع مَنزِل.»

ردَّ عليه أخوه وهو يهُزُّ رأسه مُلمِّحًا: «هؤلاء هُم أبناء كُوسَار! محور كل ما يدور من بَلبَلةٍ ومتاعِب.»

رأَيَا من جديدٍ مزيدًا من الأبراج التي تعلوها صافراتُ الإنذار ومَزيدًا من الأكواخ الحمراء، ثم أتى على مَرمى البصر بعد ذلك تجمُّع ڤيلات الضَّواحي الخارجية. لم يَفقِد فَنُّ الإعلانات بريقه أثناء تلك المُدَّة التي سُجِن فيها؛ كانت دَعَوات الانتخابات الحَاشِدة لـ «الطَّعام المُكبِّر» بجميع توجُّهاتِها وأطيافِها مُنتشرةً تحمِلُها اللوحات الإعلانية العَالِية التي لا يُحصى عددُها، وملصُوقةً على جُدرَان المنازل والسِّياجات الخَشبية، ومُعلَّقةً على ما يَربو على مائة موقعٍ مُمَيَّزٍ. كانت هذه الإعلانات تحمِل عباراتٍ مثل: «كاترام»

و«الطَّعام المُكبِّر» و«جَاك قاتل العمالقة» وكثيرًا ما كانت مصحوبة بمئات الرُّسومات السَّاخرة والمُشَوِّهة لتلك الكائنات البرَّاقة والضَّخمة التي لم تَمضِ بِضع دقائق مُنذ أن مرَّا بها.

٢

كان شُغلُ الأخ الأصغر الشَّاغِل هو الاحتفال بعودة أخيه إلى الحُرِّية مرة أخرى بعشاءٍ في أحد المطاعم الفاخرة التي لا غُبَار على جودتها. عشاءٌ تتبعه سلسلةٌ لها رونقها من الانطباعات تتركها في النَّفس قاعاتُ الموسيقى في تلك الأيام. كانت هذه الخُطَّة بما فيها من مَبَاهج الحُرِّية وملذَّاتِها كفيلة بنَفض الأتربة التي خَلَّفتها زِنزَانات السِّجن، ولكن ما إن بدأ الجزء الثَّاني من الخُطَّة حتَّى تغيَّرت. مَرَّت فِقرَة العشاء بسلامٍ، أمَّا فِقرَة العُرُوض المُوسيقية، فقد كانت لدَيه رغبةٌ أكثر إلحاحًا من شهيته لمُشاهدة العُرُوض وأقوى منها لتُخلِّصَه من مَاضِيه وكَدَره الذي استحوذَ عليه. كانت هذه الرَّغبة هي الفُضُول الجَمُّ والغُموض المُحيط بما يُسمَّى بالطَّعام المُكبِّر والأطفال العمالقة؛ هذه العَملَقة المُريعة التي حَلَّت على العالم. قال الرَّجل: «أنا لا أفهم ماذا حدث لهم! لقد هَالَتْني رؤيتهم!»

كان لأخيه رَجَاحة عَقلٍ جعلته يُحسِن استقبال أخيه وضيافته. قال له: «هذه ليلتُك أيُّها العجوز العزيز! هيَّا نُحاول أن ننضم إلى الاجتماع العام في الدِّيوان الشَّعبِي.»

وفي النِّهاية حَالَفَ الحظُّ السَّجين السَّابِق ليجد نفسه وسط جَمهَرةٍ من النَّاس وهو يُحدِّقُ من مكانٍ بعيدٍ في بُقعةٍ مُضيئةٍ تقع تحت إحدى الشُّرفِ ومكان آلة الأُرجَن. كان عازف الأُرجَن يعزف مقطوعةً عذبةً جَعلت النَّاس يتوافدون على المكان حتَّى صَار لقَرعِ نِعالِهم دويٌّ يُسمَع، ولكن انتهى كُلُّ هذا الآن.

فلم يكد يستقر السَّجين السَّابق في مكانه بعد أن فرغ من شجاره مع رجلٍ غليظٍ نَكَزه بكوعِه، حتَّى ظَهَر كاترام. ظَهَر خارجًا من الظِّل باتجاه منتصف المِنَصَّة، كان يبدو ضئيلًا وقصيرًا من على بُعدٍ، وكان أسود البشرة تعلو وجهه صِبغَةٌ وَردِيةٌ، ذا أنفٍ صغيرٍ ومعقوفٍ مُمَيِّز لمظهره. أثَار هذا الشخصُ الضئيل بظُهوره مَوجةً عارمةً وغير مفهومةٍ من التَّهليل والهِتاف. بدأت هذه الموجة من التهليل والهتاف هناك ثم تنامَت وانتشرت. بدأت بمجموعة أصواتٍ متشرذمةٍ وما لبثت أن صارت طُوفانًا صوتيًّا اجتاح القاعة طولًا

وعرضًا بما فيها من بشرٍ بداخلها وبشرٍ خارجها. كثُر هتافهم على نحو يُثير الدهشة، كانوا يَهتِفون: «مَرحَى! مَرحَى!»

لم يهتف أحدٌ في هذا الجَمع الغَفِير من النَّاس كهتافِ صاحبنا الخَارج من السِّجن؛ انهَمَك في التَّهليل والهتاف حتَّى ذَرَفت عيناه الدُّموع تَجري أنهارًا على خدَّيه، ولم يُوقِفه إلا حَشْرَجَةٌ أصابته بسبب بكائه. لن يستوعِب عقلك ولن تكون حتَّى قادرًا على استيعاب ما يَعنِيه أن ينهَمِك الرَّجل في جَمهَرةٍ من النَّاس حتَّى يبحَّ صوته إلا إذا قضيتَ في السِّجن دهرًا طويلًا كدهر صاحبنا هذا. (ومع كل هذا لم يخدع نفسه بأنَّه يدري لماذا يُظهِر كلَّ تلك العواطِف الجَيَّاشة) مَرحَى! يا إلهي! مَرحَى!

ثمَّ ساد ما يُشبِه الصَّمت لبُرهَة. تَحَلَّى كاترام بالصَّبر الجميلِ حيث كان مَن حَولَه مِن أتبَاعِه يفعلون أشياء رَسميةً لكن تَافِهة، ويقولون كلامًا غير واضِح. كان الأمر كمن يُحاول الإنصات وسط ضوضاء حفيفِ الأشجار في فصل الرَّبيع. «وُو وُو وُو وُو» أكان الأمر مهمًّا؟ كان النَّاس في الحَشدِ يتحدث بعضهم إلى بعض. استمَرَّت الضوضاء «وُو وُو وُو وُو وُو». ما الذي لم يكن لهذا الأخرق أشيب الرأس أن يفعله؟ أن يُقَاطِعهم؟ لقد كانوا يُقَاطِعونه. «وُو، وُو، وُو، وُو ...» ولكن هل سنسمع صوت كاترام بوضوحٍ كما نسمع هذا الضَّجيج؟

في هذه الأثناء كان كاترام بَادِيًا للعِيان. كان يُمكن للواحد مِنَّا أن يقف ويَدرُس هذا الرَّجل العظيم الشَّأن وسِمَاتِه التي جعلته ينال هذه المكانة. كانت ملامِحه مُمَيَّزة حتَّى إنَّه ليُرسَم بسهولة ويُسر. اتَّخذه النَّاس موضوعًا للقراءة في أوقات فراغِهم على ضوء مصابِيح الكيرُوسِين ورُسِمَت صورته على أطباق الأطفال ونُقِشَت على الأوسِمَة والرَّايات المُعَادية للطَّعام المُكبِّر، وطُرِّزَت على حَواشي حَرِير وقُطن كاترام وعلى بِطَانة قلنسوة كاترام الإنجليزية. كان مَوضوع كل الرُّسومات الكاريكاتيرية في ذلك الوقت. كان أحدهم يَراه كبَحَّارٍ يقف على مدفعٍ عتيقٍ وفَتِيل الإشعال بيده وعليه لافتة مكتوبٌ عليها «قوانين الطَّعام المُكبِّر الجديدة» بينما هُناك في عرض البحر يتخبَّط هذا الوحش الضَّخم المُهَدِّد والقبيح؛ أو كفارسٍ يرتَدي درعًا يُغطِّيه من قمَّة رأسه إلى أخمَصِ قدميه وصليب القدِّيس جِرجِس مرسومٌ على دِرعه وخوذته، ويجلس هُناك على باب كهفٍ شَنِيعٍ وسط الأدناس مَسخٌ ضخمٌ وجبانٌ يُجَابِه قَبضة الفَارِس وقُفَّازه «تَشريعات الطَّعام المُكبِّر الجديدة»؛ أو تَراه هابطًا من السَّماء كأنَّه «بِرسِيوس» ليُنقِذ «أندُرُمِيدَا» الجميلة من قيودها (ومكتوبٌ بوضوحٍ حول حِزَامها «الحضارة») ومن بَرَاثِن وحش البِحار الذي

كُتِب على رءوسه ومَخالِبه العديدة كلماتٌ مثل «الفُسُوق» و«غُرورٌ سَاحِق» و«المَذهَب الآلي» و«مَسْخ» وغيرها من الكلمات المُشابهة، ولكن العَامَّة كانوا يرَون أنَّ كاترام يُجَسِّد شخصية جَاك قاتل العمالِقة تجسِيدًا حقيقيًّا. ومِن هُنا فَهِم صاحِبنا من السِّجنِ ووَضَحَ له أمرُ تلك اللافِتة التي رآها؛ «جَاك قاتل العَمالِقة».

خَمَدت ضوضاء الحَشدِ فجأةً وسَادَ الصَّمت.

ها هو الآن يجلس. إنه كاترام بشحمِه ولَحمِه! وانطلق الهِتاف والتَّهليل: «كاترام! كاترام!»

لم يَكن الصَّمت الذي خيَّم على المكان بعد ذلك الهِتَاف المُتخَبِّط ليحدث لولا وجود جمهور غفير. رجلٌ وحيدٌ في البَرِّية؛ كان الصَّمتُ المُخيِّم صمتًا مترقِّبًا، ولكنه صمتٌ كان كاترام يسمع معه صوتَ أنفاسه وتحرُّكاته، كان يسمع معه كلَّ دبيبٍ حوله. هُنا، كان صوت كاترام هو الصوت الوحيد الذي تسمَعُه الآذان. كان صوتًا نقيًّا طَرُوبًا كصوت شَمعةٍ يحترق ضوءها في تجويفٍ من القَطِيفة السَّوداء. كنَّا نسمَعه! كنَّا نسمع صوته واضحًا جليًّا كما لو كان يبعُد عنَّا مَدَّ الذراع.

كانت إشاراتُ هذا القوام الضَّئِيل المُحاط بهالةِ ضوءٍ ويصدُر منه صوتٌ رخيمٌ ومؤثِّرٌ؛ كافيةً لينصَاع لها صاحِبُنا من السِّجن. ألقت الظلال ستارًا على مَلامِحه فكانت مخفيةً جزئيًّا، جَلس مُنَاصِروه خلفه على المِنَصَّة، وأمامه، كان قِطاعٌ عريضٌ من شتَّى الشَّخصيات والخَلفيات؛ حشدٌ غفيرٌ ينتظر ما سيُلقيه على أسماعهم. كان هذا القوام الضَّئِيل كأنَّه قد سَلَبَهم جميعًا قُدرتهم على الكلام.

تحدَّث كاترام عن مؤسَّساتنا القديمة، فعَجَّ الحَشد وصَاحوا: «لا فُضَّ فوك! لا فُض!» وشاركهم صاحبنا من السِّجن: «لا فُضَّ فوك! لا فُضَّ فوك!» ثُمَّ تحدَّث عن رُوح النِّظام والعَدَالة التي كانت سائدةً بيننا في القِدم؛ فهَاجت النَّاس ومَاجَت: «لا فُضَّ فوك! لا فُضَّ فوك!» وأخذ صاحبنا من السِّجن يصيح وهو منفعلٌ: «لا فُضَّ فوك! لا فُضَّ فوك!» تحدَّث عن حكمة أجدادنا وعن أعرَافِنا الجَليلة التي تكوَّنت ببطءٍ عبر الدُّهور، وعن الأخلاق والعادات الاجتماعية التي كانت تُوافِق طبيعة مجتمعنا الإنجليزي تمامًا كما وافق شَنٌّ طَبَقةَ. ثَار صاحبنا من السِّجن وصاحَ والدموع تَسِيل على خدَّيه: «لا فُضَّ فوك! لا فُضَّ فوك!» أمَّا الآن، فكلُّ هذه الأشياء في طريقها إلى الاندِثَار. نعم! في طريقها إلى الاندِثار! لأنَّه منذ عشرين سنةً مضت، رأى ثلاثة رجال في لندن مصلحةً في خَلطِ عدة أشياء معًا في بوتقة واحدة، خَلط كل النظُم والمبادئ والأشياء المقدسة من أجل صُنع شيء مروِّع لا

مَعالم له. زَمجَر الحَشد وقال: «لا! لا!» إن كانت هناك رغبةٌ في ألَّا يحدُث إذن، فيجب عليهم أن يعملوا جاهدين لذلك. يجب عليهم أن يُودِّعوا التَّردد في اتخاذ القرار. وهنا سُمِع دويٌّ لموجةٍ صاخِبةٍ من الهتاف والتَّهليل. يجب عليهم أن يُودِّعوا التَّردد والرُّكون إلى أنصافِ الحلول.

أكمل كاترام خطبته: «لقد وَرَدَ إلى أسمَاعِنا أيُّها السَّادة أمرُ شجيرات القُراص التي صارت شجيراتٍ عملاقة. في البداية كانت شجيراتٍ طبيعية؛ نباتٌ صغيرٌ يُمكن ليدٍ ذات قبضةٍ مُحكمةٍ أن تنتزعها وتُلقِيها بعيدًا، ولكن إن تركتموها تنمو؛ إن تركتموها أيُّها السَّادة فستنمو نموًّا مؤذيًا حتَّى إنَّكم لتصيروا بحاجةٍ إلى فأسٍ وحِبالٍ، وكَدٍّ وشَقاءٍ وتعريض حياتكم وأنفسكم للخَطَر. يُمكِن لغُصنٍ مقطوعٍ من تلك الشُّجيرة أن يقتل رجلًا، بل أن يقتل رجالًا.»

أعرَب الحَشدُ عن امتعَاضِه في ضجيجٍ وبدأ بمُقاطعة كلمة كاترام، ولكن ما لبث أن سَمِع صاحبنا الذي خرج من السِّجن صوته مُجددًا؛ صوتًا رنَّانًا واضحًا وقويًّا: «لنتعلَّم عن الطَّعام المُكبِّر من الطَّعام المُكبِّر نفسه!» سَكَت هُنَيهةً ثم قال: «قَلِّمُوا شُجيراتكم قبل أن يفوت الأوان!»

توقَّف كاترام عن الكلام وأخذَ يمسح شفتَيه، ثم صَاح رجلٌ: «فكرة عبقرية!» ثم تَحوَّل الأمر إلى تلك الموجة الغَريبة من الهتافِ الهَادِر، حتَّى بدا أن العالَم بأسره يهتف ويُهلِّل.

خرجَ صاحبُنا من القاعة في النِّهاية وعلى وجهه أماراتُ الإثارة والحَمَاس؛ أماراتٌ تَراها على وجوه أولئك الذين حظوا برؤيةٍ في المنام. لقد عَلِم مثله كمثل الجميع ولم تعُد أفكاره غامضةً بعد الآن. لقد عاد إلى عَالَمٍ في مِحنَة، عاد في وقت اتخاذ قرارٍ حاسمٍ لمسألةٍ عَويصَة. يتَحَتَّمُ عليه الآن أن يُؤدِّي دوره في الصِّراع أداءَ الرِّجال؛ أداءَ الأحرار الجديرين بالثِّقة. كانت راياتُ الحربِ باديةً في الأفق. فريقٌ ضَمَّ هؤلاء العمالقة المُدَرَّعين الذين شاهدهم في الصباح، والذين أصبح ينظر إليهم الآن نظرةً مُغايرة. وفريقٌ آخر يقِف فيه هذا المخلوقُ الضَّئيل أسود البشرة وأضواء المِنَصَّة مُسلَّطة عليه ويُلَوِّح بيدَيه؛ هذا القزم بكلامه المُنَمَّق وألفاظه الرَّشيقة وصوته الرَّخيم الثَّاقِب؛ إنَّه «جون كاترام قاتل العمالِقة» يتَحَتَّم عليهم الآن أن يتَّحِدوا معًا ليتمَكَّنوا من شُجَيرة؛ القُراص قبل أن يفوت الأوان.

٣

كان أطولهم قامةً وأقواهم جسدًا وأكثرهم هيبةً أبناءُ كُوسَار الثلاثة. تلك الأرض الواقعة بالقُرب من سيفينوكس التي قضَوا فيها صباهم والتي كانت تبلغ مساحتها نحو ميلٍ أصبحت كثيرة الخنادق والحُفر كما أضحت مغطَّاةً بالسقائف ومُجسَّمات العمل الضخمة وجميع التأثيرات المادية الناجمة عن قواهم المُتنامية، حتى إنَّ المكان صار لا يُشبهه مكانٌ آخر على وجه الأرض. وكانت نتيجةُ ذلك أن ضاق بهم وأصبح لا يتناسب حجمًا مع الأشياء التي كانوا يسعَون لفعلها. كان الابنُ الأكبر مُصمِّمًا قويًّا للمُحركات المزوَّدة بعجلات؛ وقد صنع لنفسه دراجةً ضخمة لا يُوجد طريق يسَعُها في العالم كله ولا جسرٌ يتحمَّلها. كانت الدراجة ضخمة ذات عجلات ومُحركات كبيرة، كانت قادرة على السير مسافة مائتين وخمسين ميلًا. لم تكن تؤدِّي نفعًا سوى أنه كان يركبها من آنٍ لآخر متجولًا بصعوبةٍ في منطقة العمل هذه التي تكثر فيها العوائق. كان مقصده في الأساس أن يطوف بها حول هذا العالم الصغير؛ كانت تلك نيَّته عندما صنعها وهو لم يكن أكثر من مجرد طفل حالِم. الآن، أصابَ صدأٌ أحمر داكن يُشبه الجروح أشعة عجلاتها حيث تآكلت طبقة المينا التي طُليت بها.

قال له والده كُوسَار: «يا بُنَيَّ العزيز! عليكَ أن تُمَهِّد لها طريقًا أولًا قبل أن تفعل ذلك.»

أطاعه العملاقُ الصَّغير وذهبَ ذات صباحٍ هو وإخوته ليُمَهِّدوا طريقًا للدَّراجة حول العالَم. بَدَوا كما لو كانوا يجهلون ما سيعتَرِضُهم من مُقاومةٍ عمَّا قليلٍ، وكانوا يعملون بجهدٍ منقطعِ النَّظِير. سرعان ما عَلِم النَّاسُ بما يفعلونه؛ كانوا يَشُقُّون طريقًا مستقيمًا كحَدِّ السَّيف باتجاه القناة الإنجليزية، لكنهم كانوا قد انتهوا من تَمهيد وتسوية بضعة أميال من الطريق وقتئذٍ. أوقفهم قبل انتصاف النَّهار عن استكمال الطَّريق حشدٌ من النَّاس المُهتَاجِين؛ أصحاب الأطيانِ ووكلائهم، والسُّلطات المحلِّية، ومحامين، ورجال شرطةٍ وفوق ذلك كان هناك عددٌ من الجنود.

أوضحَ لهم الطِّفل الأكبر ماهية ما يفعلونه قائلًا: «نحن نشُقُّ طريقًا!»

ردَّ عليه كبيرُ المُحامين في الحَشد: «لا أحدَ يُنكر عليك شَقَّ الطريق، ولكن رجاءً عليك أن تحترم حقوق الآخرين من حولك. لقد تعدَّيت لتَوِّك على حقوق سبعٍ وعشرين مُنشَأة خاصَّة، فضلًا عن خَرقِ امتيازات ومُمتلكات مَجلِس المُقاطعة ومجالس تسع أبرشيات والمَجلِس المحلِّي ومصنعين للغاز وشركة سكة حديدية ...»

تَعجَّب ابن كُوسَار الأكبر: «يا إلهي!»

«عليكم أن تتوقَّفوا عن هذا!»

«ولكن ألَا تريدون طريقًا مُمهَّدًا في هذا المكان بدلًا من تلك الأزِقَّة الرَّديئة كثيرة الحُفَر والأخاديد؟»

«مؤكَّدٌ سيكون هذا شيئًا حسنًا، ولكن ...»

ردَّ الابن الأكبر لكُوسَار وهو يهمُّ بحمل أدواته: «إذن الطَّريق لم ينتهِ بَعد!»

قال المُحامي: «ولكن بلا شكٍّ ليس بهذه الطَّريقة!»

«بأيِّ طريقةٍ إذن؟»

كان ردُّ كبير المُحامين غامضًا ومعقدًا.

حَضَر كُوسَار ليرى ما فعله أبناؤه من مصائب. وبَّخهم توبيخًا قاسيًا ثم أخذ يضحك حتَّى القَهقَهة وقد بَدَت عليه سعادةٌ غامرة من هذا الأمر وقال صارخًا: «عليكم أن تتمهَّلوا قليلًا يا أولاد قبل أن تشرعوا بعملٍ مثل ذلك.»

«ولكن المُحامي أخبرَنا أنَّه علينا أن نُجَهِّز خُطة أولًا ونحضر مُعدَّات خاصة وكل هذا الهُراء. قال إن الأمر سيستغرق عدة سنوات.»

ردَّ كُوسَار بصوتٍ عالٍ وهو يصيح واضعًا يديه حول فَمِه: «سنُجَهِّز الخُطَّة قريبًا يا عزيزي، لا تقلق! أما الآن، فالأفضل أن تذهبوا لِلَّعب وتصنعوا مُجسَّماتٍ للأشياء التي تودُّون تنفيذها.»

فعل الأبناءُ ما أخبرَهم به أبوهم وامتثلوا لأمره.

ولكن كل هذا دَفَع أبناء كُوسَار لإمعَان التَّفكير في الأمر.

قال الطِّفلُ الأوسط لأخيه لأكبر: «حسنٌ جدًّا، ولكنِّي لا أريد أن أظلَّ ألهو وأخطط فقط، أريد أن أصنع شيئًا حقيقيًّا. أتفهمني؟! نحن لم نُخلَق في هذا العالَم بتلك القوة التي نحن عليها لنلهو في قطعة الأرض الصغيرة والفوضوية تلك، ولنذهب لنتمشَّى قليلًا على شرط ألَّا نقرَب المُدن.» — كانوا آنذاك محظورين من الاقتراب من أي مُقاطعة أو بَلدة. «الجلوس هكذا دون فعل شيءٍ أمرٌ سيئ. ألَا نستطيع أن نجد شيئًا يحتاجه أولئك البشر الصِّغار فنُنجِزه لهم في سبيل أن نحظى ببعض المَرَح؟»

أكمل الأخُ الأوسط كلامَه: «كثيرٌ منهم مُشرَّدون لا منازلَ تُؤْوِيهم، لنذهب ونبني لهم منزلًا جميلًا ومُريحًا قُرب لندن يَسَعهم زُمَرًا زُمَرًا. ولنَضرب لهم طريقًا مُمَهَّدًا يسعون فيه جميعًا لكسب أقواتهم؛ طريقًا مُستقيمًا جميلًا. سنجعل كلَّ شيء جميلًا ومُتقنًا لكيلا

يضطَرُّوا للعيش في قذارةٍ وبحَيوانيةٍ كمعيشتهم الآن. سنُوفِّر لهم ما يحتاجون من الماء ليغتسلوا؛ أنت تعلم كم هم أوساخ قَذِرون؛ فتسعة من كل عشرة بيوتٍ لا يُوجد بها حوض استحمامٍ. يا لهؤلاء الأقزام المُنتِنين! وتعلم أيضًا أن هؤلاء الذين لدَيهم حَوض استحمام في منازلهم ينهالون بالسِّباب على أولئك الذين حُرموا منه بدلًا من أن يُساعدوهم ليمتلكوا واحدًا مثلهم؛ هم يُطلقون عليهم «الغَوغَائيون غير المُغتَسِلين». سنُغيِّر هذا الوَضع وسنُوصِّل لهم الكهرباء اللازمة للإنارة وسنطهو لهم الطَّعام وسنُنَظِّف لهم وسنفعل من أجلهم كلَّ ما يحتاجونه. أتصدِّق أنَّهم يُجبرون نساءهم؛ النساء الحَوامل اللاتي على بُعدِ أيامٍ من أن يصبحن أمهات، على أن يزحفن على أطرافِهن لتنظيف الأرضيات!

يُمكِننا أن نصنع غدًا أجمل. يُمكِننا أن نتَّخِذ واديًا من الوديان هناك في تلك السُّهول ونجعله بُحَيرة نُخزِّن فيها المياه، ونُقِيم هُنا محطةً كبيرةً لتوليد الكهرباء ويكون لدينا ببساطةٍ كُل شيءٍ نحتاجه. أليس كذلك يا أخي؟ ثُمَّ رُبَّما يتركوننا نفعل أشياء أخرى.»

ردَّ الأخ الأكبر: «أجل نستطيع أن نفعل كلَّ هذا الخير لهم!»

قال الأخ الأوسط: «إذن ماذا ننتظر، هيَّا بنا!»

ردَّ عليه الأخ الأكبر وقال وهو يبحث عن بعض المُعدَّات المُناسِبة: «هيَّا بنا!»

وكانت هذه مُقدِّمة لإزعاجٍ رهيب.

احتشدت الجُمُوع الغاضبة سريعًا، تُخبرهم تارةً أن يتوقَّفوا عمَّا يفعلونه ساردةً مئات الأسباب الدَّاعية لذلك، وتَارة تُريدهم أن يتوقفوا بلا أسباب. كانت جُمُوعًا صَاخِبةً وحائرةً أتتْ من كل حدبٍ وصوب. كان البيت الذي يبنيه أولاد كُوسَار عاليًا جدًّا؛ وكان علوُّه يؤكِّد أنه ليس آمنًا. كان البيت قبيحًا أيضًا؛ فقد بَرَز حجمه بين بقيَّة منازل الحي وعَارَض حجمها الطبيعي المُعتَاد. أفسدَ تَناغُم وانسِجام المنازل في الحي؛ فلم يكن بيتًا مُراعيًا للجِيرة. كان البيت مُخالفًا لضوابط البناء المحلية، كما انتهك حقَّ السُّلُطات المحلِّية في توصيل التيار الكهربي الباهظ التكلفة، وتَضارب أيضًا مع مصالح شركة المياه المَحلِّية.

هَبَّ موظَّفو مجلس الحكومة المَحَلِّي للتَّصدِّي لتلك العَراقيل التي تعوق مسيرة العَدَالة، وانتفَضَ ذلك المُحامي القصير مرة أخرى مُمَثِّلًا لعددٍ كبيرٍ من المَصَالح المُهَدَّدة، كما كان لُمَّلاك الأراضي المحلِّيين ظهورٌ في صف المُعارضة. ادَّعى بعض الناس ادِّعاءاتٍ غامضة بأنهم قد دُفِعَ لهم المالَ كي يلتزموا الصمت. اجتمعت النقابات العُمَّالية لكل مِهَن البناء على قَلبِ رجلٍ واحد، كما شَكَّل المتعاملون في كل مواد البناء سَدًّا منيعًا. جماعةٌ

استثنائية وعجيبة من النَّاس يحمل كلُّهم تصوُّراتٍ مُرعِبة لذلك الجَمَال المزعوم، فهُرِعوا في حُشُودٍ ليُحافِظوا على طبيعة المكان الذي سيبني فيه العمالقة المنزلَ الكبير، وليحموا الوادي حيث يُخطِّطُون لجمع المياه به. كانت الفِرقَة الأخيرة من ذلك الجَمع هي الأسوأ في نَظَر أبناء كُوسَار، وفي لَمح البَصَر كان بيتهم الجميل ذاك أشبهَ بعصًا دُبَّت في عُشٍّ للدبابير.

قال العملاق الأكبر: «ليتنا ما فعلنا!»

وأتبَعَه أخوه الأوسط: «لا يُمكننا المُتابَعة!»

ثمَّ عَقَّب الأخ الثَّالث: «يا لهم من أقزامٍ عَفِنِين! لا يُمكننا فعل أي شيء!

حتَّى وإن كان يصُبُّ رأسًا في مصلحتهم وراحتهم. كان سيغدو بيتًا رائعًا لو أكملنا بناءه لهم.»

ردَّ العملاق الأكبر مُحاورًا أخاه: «يبدو أنَّهم يقضون حيواتِهم القصيرة والتَّافهة تلك في اعتراض مَسَاعِي بعضهم بعضًا. حقوقٌ وقوانين وضوابط وتشريعات ونذالات؛ يبدو الأمر في غاية الصعوبة. يا للعجب! على كلٍّ، سيمتدُّ مُكوثهم في تلك المنازل الضَّيقة والقذرة لوقتٍ أطول. من الواضح أنَّنا لا حِيلةَ لنا ولا يمكننا إكمال ما بدأناه.»

خَلَّف أبناءُ كُوسَار ذلك البيت العظيم وراءَهم غير مكتملٍ بناؤه؛ لا شيء إلا حفرة من الأسُسِ ومُستَهَل جدارٍ كان على وشكِ أن يُقام ورجعوا مُستائين إلى سَاحتهم الواسعة. بعد فترة، امتلأت تلك الحفرة ماءً راكدًا نبتت على سطحه الحشائش ونما العُشب، وهَامت فوقه الحشرات. كما انسَلَّ الطَّعامُ المُكبِّر إلى هُناك سواءٌ سقط من أبناء كُوسَار أم حملته الرِّياح إلى المكان، فقد جَعَل مُعدَّلات النمو تتضاعف وتتضاعف كما هي الحال دائمًا. دَاهَمت فئران الماء البَلدَة وخلَّفت أضرارًا لا تُعدُّ ولا تُحصَى. وفي يومٍ من الأيام لَمَحَ مزارعٌ قطيعه من الخنازير يشرب من مياه تِلك الحفرة، فأسرع وهو بكامل قواه العقلية وذبحهم جميعًا؛ فقد كان يعرف قصة خِنزير مدينة أُوكام. ومِن هناك من ذلك المُستنقعِ العميق، أتى البعوض. بعوضٌ مُرعِبٌ لكن كانت حَسَنَته الوحيدة أنْ دَفَع أبناء كُوسَار، بعد أن لم يعودوا يتحمَّلوا لدغاته، إلى أن يختاروا ليلةً كان القمر فيها منيرًا والأمن والنِّظام مُستَتِبَّين ليُفرغوا الحفرة من مياهها ويُريقُوها بعيدًا في النهر القريب من برُوك.

لكنهم تركوا الحشائش الضَّخمة وفئران الماء العملاقة وجميع الكائنات المُتعَلِقة الكريهة باقيةً تنمو في هذا الموقع الذي اختاروه سَلفًا لبناء المنزل الضَّخم؛ منزل هؤلاء الأقزام الذي كانوا سيجعلونه يرتقي ليُلامِس عنان السَّماء.

٤

كانت تلك أحداث طفولة هؤلاء الأطفال العمالقة، أمَّا الآن فقد كبروا وأوشكوا أن يصبحوا رجالًا. كبروا وكبر معهم حجم قُيُودهم وأغلالهم التي ما انفكَّت أن تزيد مع كُلِّ سنةٍ من نموهم. فكُلَّما زَاد عُمر هؤلاء العملاقة عامًا وانتشر الطَّعام المُكبِّر أكثر وتضاعفَ حجم الكائنات أكثر فأكثر، اشتَدَّت حِدَّة التَّوتر وزَادت الضُّغُوط. في البِداية، كان السَّواد الأعظم من البَشَر ينظرون إلى الطَّعام المُكبِّر كأنَّه أحد المُستحيلات، أمَّا الآن فقد أصبح واقعًا ودَنَا مِنهم حتَّى بَلَغ أعتَاب المنازل مُهدِّدًا ومُنذِرًا بتغيُّر نمط الحياة تغيُّرًا لا رجعة فيه. اعترض الطَّعام هذا السَّبيل وقَلب ذاك رأسًا على عَقِب، بَدَّل المُنتجات الطبيعية، وبتبديله ذاك رفع نسبة البطالة وسُرِّح مئاتُ الألوف من الرَّجال من أعمالهم. تَسلَّل الطَّعامُ عبر كل الحدود وجَعَل من عَالَمٍ تسوده العلاقات التِّجارية، عالمًا تملؤه الكوارث والنَّكبات. فكيف لا يكرهه البشر وقد أحالَ نعيمهم شقاءً.

وبما أنَّ الكائنات الحيَّة أسهل أن تُبغَض من الجمادات، والحيوانات أسهل في كراهيتها من النَّباتات، وأن يَمقُتَ الإنسان أخاه الإنسان أسهل عنده من مَقت الحيوانات؛ لذلك تَجَمَّعت كلُّ المَخاوِف تجاه شُجيرات القُراص العملاقة وسُوق العُشب ذات السِّت أقدامٍ طولًا، والمتاعِب التي خلَّفتها الحشرات المُخيفة والهَوَام التي تُشبه قَرصَتها عَضَّة نمر. تجمَّعت كُلُّ تِلك المَخاوِف والمتاعِب لتُشَكِّل قوةً هائلةً من الكراهية حدَّدت اتجاهها بسهولةٍ وصُوِّبَت نحو تِلك الشِّرذمة من البشر العمالقة؛ أطفال الطَّعام المُكبِّر. صارت تلك الكراهية هي القوة التي تتمحور حولها كلُّ الأمور السياسية. طُمِسَت الشِّعارات الحِزبية القديمة، ووُرِيَت تحت ضغطِ تلك القضايا المُستجدة. صَار الصِّراع الآن مع حزب المُمَاطلين؛ هؤلاء الذين يُنادون باستخلاف عدة رجال سياسيين ليُنظِّموا الطَّعام المُكبِّر ويتحكَّموا فيه، ومع حزب الدَّاعين لشن الحرب على الطَّعام الذي يُمَثِّله ويتحدَّث كاترام باسمه دائمًا بعباراتٍ فيها التباسٌ لئيمٌ؛ يُفصِح عن نَواياه في البداية بجملة فيها تهديدٌ ووَعيد مفادها أنه يجب على البشر الآن أن «يجتثُّوا تِلك النَّباتات الشَّوكيَّة من جذورها.» ثم يتلوها بأخرى مفادها أنه يجب علينا الآن أن نجد «دواءً للتَّضخُّم.» ثم في النِّهاية وفي عَشيَّة يوم الانتخابات يقول إنه يتعيَّن علينا أن: «نجتث شُجيرة القُرَّاص.»

في أحدِ الأيام، جلسَ أبناءُ كُوسَار الثلاثة، وقد صاروا الآن رجالًا، بين أنقاض أعمالهم المُخفقة وتحدَّثوا معًا عن كلِّ تلك الأشياء العقيمة التي صنعوها. كانوا قد انتهوا لتوِّهم

من العمل طيلة النَّهار على مجموعة خنادق ضخمة ومعقَّدة كان أبوهم قد أسند إليهم مهمة تنفيذها. والآن وقد حان وقتُ غروب الشَّمس، وهم جُلُوسٌ في الحديقة الصَّغيرة أمام المنزل يستريحون ويتأمَّلون في الكون المُحيط بهم، نادى عليهم الخَدَمُ الأقزام في الدَّاخل ليُخبروهم أنَّ طعامَ العشاء جَاهِزٌ.

لن تُخطِئ عيناك تلك الأجساد العملاقة حين تراها؛ إذ كان يبلُغُ طول أقصرهم أربعين قدمًا. كانوا مُستَلقِين على بُقعَةٍ مُعشوشِبةٍ بحشائش تبدو لرجلٍ طبيعي كأنها عيدان قصَب في طولِها. كان أحدهم قاعدًا يَطحَن الأرض من تحت نَعلِه الضَّخمة ومُمسِكًا بعصا حديدية غليظة بيده، بينما كان الثَّاني مضطجعًا على كوعه وكان الثَّالث يُقَلِّم شجرة صَنَوبَر جعلت الهواءَ من حولهم يفوحُ برائحة صمغ. كانوا لا يرتدون قماشًا بل لِباسًا داخليًّا من حِبالٍ مَحُوكَةٍ وعليها رداءٌ نُسِجَ من أسلاك الألومنيوم، وينتعلون ألواحًا خشبيَّة وحَدِيدِيَّة، أمَّا عُرَى الملابِس وأزرارها وحُزُمها، فقد كانت جميعها من الحَديد المَطلِي. كان البيتُ الذي يعيشون فيه ذا طابقٍ واحدٍ يُشبه في ضَخَامته معبدًا من معابد قدماء المصريين، بُنِي نِصفُه من قِطعِ الطُّبشُور الضَّخمة ونُحِت نِصفه الآخر في صُخُور التَّل. كانت واجهة البيت بعُلُوِّ مائة قدمٍ ووراءَها كانت المَدَاخِنُ وفتحاتُ التَّهوية، كما كانت رَافِعات وأغطية سَقَائِف العمل ترتفع بشُمُوخٍ وسط عنان السَّماء. ومن نافذةٍ دائرية في المنزل، كان هُناكَ أنبوبٌ يَقطِر معدنًا مُنصَهِرًا أبيض اللون بكمِّيَّاتٍ مُحدَّدة في وعاءٍ مُتَوارٍ عن الأنظار. كان المكانُ مُطَوَّقًا ومُحصَّنًا تحصينًا بدائيًّا بتلالٍ من التُّراب تدعمها عَوارِض حديدية على قِمم المُنخَفَضاتِ وعَبرَ مُنحَدَرات الوادي. ولتقرِيبِ الأمر، نحتاج إلى شيءٍ ما بالحجم الطبيعي حتَّى يَتِمَّ تَصَوُّر مِقياس الضَّخامة. ذاك القِطارُ الهَادِرُ الذي يأتي من سيفينوكس ويَمُرُّ عليهم ثُمَّ يَدلُفُ إلى النَّفق ليغيب عن نَظَرِهم، كان بالمُقَارنة بحجمهم لُعبَة أطفالٍ مُتَحَرِّكة.

قال أحدهم: «لقد ضَمُّوا كلَّ الغابات في هذا الجانب من آيتِم إلى الأراضي المحظورة علينا. كما نَقَلوا اللافتة الحمراء التي كانت هناك قُرب نُوكهولت مسافة مِيلين أو أكثر في هذا الاتجاه.»

ردَّ الأصغر بعد صمتٍ: «هذا أقل ما يمكنهم فعله؛ فهم يُحاولون سَحب البِسَاط من تحت أقدام كاترام لزعزعة ثقته.»

قال الثَّالث: «ما يفعلونه ليس كافيًا لتحقيق ذلك الغَرَض، وهو في الوقت نفسه أكثر مما نتحمَّل.»

«هم يحاولون عزْلنا عن أخينا ريدوود. فعندما ذهبتُ لزيارته مؤخرًا، كانت اللافتاتُ الحمراء قد زَحَفت مسافة ميلٍ في شتَّى الاتجاهات. الطَّريق إليه عبر الهِضاب ما هو إلا ممرٌّ ضيقٌ الآن.»

تساءَل المُتحدِّث: «يا تُرى ماذا حَلَّ بأخينا ريدوود؟»

قال الأخ الأكبر: «لماذا؟»

ردَّ المُتحدِّث وهو يقصِف غُصنًا من شجرة الصنوبر التي يمسكها: «لقد كان شَارد الذِّهن كما لو كان يحلُم. أظن أنَّه لم يكن يَعِي حديثي معه، كما أنَّه ذكر شيئًا عن الحُب.»

ضَرب الأخ الأصغر بعصاه الغَليظة على حذائه الفولاذي وانفجر ضاحكًا: «أخونا ريدوود تُرَاوِده الأحلام.»

اكتَنَفَهم الصَّمت مُدَّة، ثم قال الأخ الأكبر: «هذا التَّضييق والحِصَار ازداد ازديادًا لا أُطِيقه ولا أتحمَّله. أظنُّ أنهم في نهاية الأمر سَيرسُمون خطًّا حول أحذيتنا ويُخبروننا بأنَّ هذه هي المِسَاحة المسموح لنا بالعيش فيها.»

قَبَض الأخ الأوسط بيدٍ واحدةٍ على مجموعةٍ من أغصان شجرة الصنوبر وقَصَفها قصفةً واحدةً وقال وقد بَدَّل نَبرة حديثه: «ما يفعلونه الآن سيكون شيئًا طفيفًا مقارنةً بما سيفعلونه عندما يتَولَّى كاترام السُّلطة.»

قال الأخ الأصغر وهو يضرب الأرض بعصاه الغَليظة: «هذا إنْ تَوَلَّى السُّلطَة.»

ردَّ الأكبر وقال وهو يُحدِّق في قدميه: «سيتولَّى السُّلطة بلا شك.»

توقَّف الأخ الأوسط عن تشذيب شجرة الصنوبر وأخذ ينظر إلى تِلك الضفاف العظيمة التي آوتهم خلفها ثمَّ قال: «ثم ماذا بعد يا إخوتي؟ شبابنا سينقَضِي ويجب علينا كما قال ريدوود الأب منذ وقتٍ طويل؛ أن نَثبُت وأن نكون رجالًا أقوياء.»

قال الأخ الأكبر: «صَدَقت! ولكن ما الذي يَعنِيه هذا بالضَّبط؟ ما الذي سيَعنِيه حين يأتي يومُ المتاعب؟»

وَلَّى وجهَه هو الآخر إلى تِلك الخَنادق الواسعة والمَتَاريس الفَجَّة من حولهم، لا ناظرًا إليها بل ناظرًا مُتطلِّعًا من بينها ومن فوق التِّلال إلى ما وراءها من حُشُودٍ غفيرة. وقتها، خطرَ شيءٌ ما ببال الأشقاء الثلاثة في آنٍ واحدٍ؛ رؤيا بأن جيشًا من الأقزام يزحفون كطوفانٍ مُعلنين الحرب، لا يَمَلُّون ولا يتعَبُون ويملأ الحِقد قُلُوبهم.

قال الأخ الأصغر: «هُم أقزامٌ، ولكنهم كُثُر؛ كحبَّات رملٍ على شاطئ البحر.

ولديهم جيوشٌ وأسلحةٌ صنعها لهم إخوتنا في سَندرلاند.

وأتساءَل يا إخوتي، فيما عدا الهَوَام وبعض الحَوادثِ مع الكائنات الشِّريرة، ما الذي يتَّهموننا بقتله؟!»

ردَّ الأخ الأكبر: «لا أدري! ومع كل ذلك، نَحن ما نَحنُ عليه وما جُبِلنَا عليه. وعندما يحين يوم المتاعب، علينا أن نفعل ما يَجب علينا فِعله.»

غَمَد سِكِّينه في عُجَالةٍ؛ سكينٌ ذو نَصلٍ طُوله كطول رجلٍ، ثم تَعَكَّز على شجرة الصنوبر التي اقتلعها لتَوِّه لينهَض. اعتدَل واقِفًا ثم اتَّجه تِلقَاء المنزل الضَّخم والفسيح الذي يجثو كجبلٍ رَمَادي. انعكست أشِعَّة الشمس القِرمزية على دِرعه وعلى الزَّرَد الملفوف حول رقبته والأسلاك المعدنية الواقية المنسوجة حول ذراعيه، وفي عينَي أخيه، بَدا كما لو كان قد تَخَضَّب بالدماء.

وعندما وقف العملاقُ الصَّغِير، رأى قَامَةً سوداءَ بَاديةً في الأفقِ قُبَالة وَهجِ شَمس الغروب الخَافِت وفَوق السَّد الذي اعتَلَى قِمَّة التَّل. لَوَّحت ذِراعا تلك القامة السَّوداء تلويحًا غير رشيقٍ أوحى إلى العملاق الصغير أنَّ ثمَّة شيئًا من الاستعجال. ردَّ مُلَوِّحًا بجذع شجرة الصنوبر وملأ الوادي بصدى صوته قائلًا: «مرحبًا!» ثم قال لإخوته على عجلٍ: «هُناك خَطبٌ ما!» وانطلق يعدو عَدوًا سَريعًا ليُلاقي أباه ويُساعده؛ كان في عَدوِه يخطو خطواتٍ واسعةً، كُلُّ خطوةٍ تَفرِق عن أختها بعشرين قدمًا.

٥

تصَادف في الوقت نفسه أنْ كان هناك شابٌّ ليس بعملاقٍ يُفصِح عمَّا بصدره ويصب جَامَّ غضبه على أبناء كُوسَار، حيث كان هو وصديقه قد عَبَرا التِّلال المُترَامِية بعد سيفينوكس، وكان هو من يتَحَدَّث لا صديقه. وأثناء مرورهما بالسِّياج، سَمِعا صوت صُراخ مُستغِيث، وهَبُّوا لينقذوا ثلاثةً من أفراخ طائر القُرقُف من هجومِ نملتين عملاقتَين. كانت تِلك الحادثة هي ما دَفَعه ليتكَلَّم.

صَاح وقال عند رؤيته لبيت أولاد كُوسَار وسقائفهم: «أنا مع المُواجَهَة! مَنْ عساه أن يَرى كل هذا ولا يختار المُواجَهَة؟ انظر إلى ذلك المُرَبَّع من الأرض؛ تِلك البُقعة من أرض الله التي كانت في يومٍ من الأيام أرضًا طيبةً تملؤها البَرَكة، وهَا هي الآن وقد مُزِّقت

إربًا ودُنِّسَت ومُلئت حُفَرًا! وانظر إلى تِلك السَّقائف، وإلى عجلاتِ الرِّياح العملاقة، وإلى تِلك الآلة الهَائلة ذات العجلات! انظر إلى تِلك الخَنَادِق وهؤلاء الوحوش الثلاثة يُقَرفِصُون هناك ولا أحدَ يعلم ما إذا كانوا يَحُوكُون خططًا شيطانيةً أم شيئًا آخر. انظر بالله عليك إلى كل تلك الأراضي!»

رَمَقه صديقه وقال له: «أكنتَ تستمع إلى كاترام مؤخرًا؟»

ردَّ الرَّجل: «بَل أنظر بعينيَّ فَأرَى سَلامَ المَاضي ونظامه ونحن نتركه وراءنا. هذا الطَّعام القَذِر هو صورةٌ جديدةٌ من صُور الشَّيطان الذي ما يزال مُتربِّعًا على أنقاض عالمنا. تَخَيَّل معي كيف كان هذا العالَم في زمن أجدادنا، ما الذي كان قائمًا عندما خرجنا من بطون أمهاتنا، ثمَّ انظر إلى العَالَم نفسه اليوم! تذكَّر أيامًا كان فيها النَّسيم يُداعِب سَنَابِل المحصول الذَّهبي في تِلك السُّهول. وكانت السِّياجَات التي تفصل بين أرض الرَّجلِ وأخيه مملوءة بالورود العَطِرة والأزهار الجميلة، وبيوت المُزَارعين تُرَقِّط الأرض بصِبغَتِها الحمراء، وصوت أجراس الكنيسة القَادم من تلك الأبراج البعيدة أيام الآحاد يدعو النَّاس جميعًا للصلاة حتَّى لا تكاد تسمع إلا هَمسًا! أمَّا الآن فها نحن نَرى حولنا في كلِّ عامٍ حشائشَ هائلة الحجم وحشراتٍ ضَخمة وأولئك العمالقة ينمُون جميعًا في تَزايُدٍ يمتطون أظهُرَنا غير عابئين بكُلِّ ما هو مُقَدسٌ ومُحكمُ الصُّنع في عالمنا. لماذا حدث كل هذا؟! انظر!»

أشار بإصبعِه وتبعت عَينا صديقه الخَطَّ الوَهمِي الذي رسمه هذا الإصبع الأبيض.

«أحد آثار أقدامهم. أتراه هُناك؟ أثرٌ مَغرُوزٌ في الأرض بعمق ثلاث أقدام أو يزيد يُمكن أن يكون شَرَكًا لجوادٍ وفارسه أو فَخًّا يقَع فيه سائرٌ غافل. أترى تلك الورود اليَاقُوتيَّة وقد سُحِقَت حتَّى ماتت، وهذا العُشب الأخضر وقد اجتُزَّ من جُذوره، ونَبات مشط الرَّاعي وقد جُرِفَ جانبًا. انظر إلى أنبوب صرف أحد المُزارعين وقد كُسِر، وإلى حافة ذلك الطَّريق وقد حُطِّمَت. دَمَارٌ ودَمَار! الدَّمار هو ما تقترفه أياديهم في جميع أرجاء العالم، وفي حقِّ جميع النُّظُم والقِيم التِّي وضعها البَشر على مَرِّ تاريخهم. إنَّهم يحطِّمون كلَّ شيء تحت أرجلهم. أتقول المواجهة؟! ماذا أيضًا؟!»

أجابَ صديقه: «أجل، المواجهة، ولكن ماذا في رأيك يمكن أن نفعل؟»

زَعَق به شاب مدينة أكسفورد قائلًا: «آمُل أن نوقِفهم قبل أن يفوت الأوان!»

«ولكن ...»

زَعقَ الشَّابُّ الأكسفوردي وهذه المَرَّة بنبرةٍ أعلى: «الأمر ليس مُستحيلًا! نحن بحاجةٍ إلى يَدٍ حَازِمةٍ وخُطَّةٍ مُحكمةٍ، نحتاج إلى رجلٍ مقدامٍ. كُلُّ ما فعلناه حتَّى هذه اللحظة هو المُدَاهَنةُ والركون لأنصاف الحلول والقرارات العَبَثية والمُمَاطلة، بينما الطَّعام يزداد نموًّا على نمو. وحتَّى في هذه الأيام ...»

تَوقَّف بُرهةً، ثم قال صديقه: «هذا صدى صوت كاترام.»

أكمل الرَّجل حديثه: «حتَّى في هذه الأيام ما يزال هناك أمل. بَل هناك آمالٌ كثيرة، شَريطة أن نَعقِد العزم على ما نريده حقًّا وما الذي نريد تدميره. الجماهير تُؤيِّدنا أكثر ممَّا كان عليه الحال منذ عدةِ سنوات، والقوانين في صَفِّنا؛ الدُّستور والنُّظم الاجتماعية، رُوح الأديان الرَّاسخة وتقاليد الجنس البشري وأعرافه تدعمنا، كُلُّ هذا معنا ضدَّ ذلك الطَّعام. لماذا إذن المُمَاطلة؟ لماذا الكَذب والخِداع؟ نحن نكره الطَّعام المكبِّر ولا نُريده، لماذا علينا إذن أن نتحمَّل وجوده بيننا؟ هل تريد أن نكتفي بالعويل دون هجومٍ وأن نكتفي بصدِّ الهجمات حتَّى ينفد منَّا الوقت؟»

توقَّف عن السَّير هُنَيهَة ونَظَر خَلفه ثمَّ قال: «انظر إلى شُجَيراتِ القُراص الكثيفة تِلك. في وسطها هُناك منازل مهجورة حيث كانت في يومٍ من الأيام تَعمُرها الأُسَر الطَّاهِرة وتملؤها بزَهو حياتهم النَّقِية.»

ثمَّ الْتَفت مرة أخرى حيث أبناء كُوسَار يُهَمهِمون بأخطائهم إلى بعضهم بعضًا، وقال: «وانظر هُناك أيضًا!

انظر إليهم! أنا أعرف أباهم؛ رجلٌ فَظٌّ وكائنٌ هَمَجيٌّ ذو صوتٍ عالٍ مُنَفِّر. صِناعته الهَندَسة، وكان يَمشي بيننا في عالَمنا المُتسَامِح لأكثر من ثلاثين سنة مَضَت وهو يستشيط غضبًا، مقللًا من شأن كل ما هو غَالٍ ومُقَدَّسٌ في مُجتمعنا. كان لا يأبه لشيءٍ مُطلقًا. لا يحترم تقاليد سُلالتنا ولا أعراف دولتنا ولا مؤسَّساتنا المرموقة ولا النِّظام المُتَّبع. تِلك القِيمُ التي تَراكَمت الفَينَة بعد الفَينَة لتجعَلَ من الشَّعب الإنجليزي شعبًا عظيمًا ومن تِلك الجزيرة جزيرة حُرَّة. تِلك كانت حِكايةً رَتِيبةً وهراءً قِيلَ وقد فرغنا منه. أمَّا الآن فبعض الهُراءِ عن المُستقبل يستحِقُّ التَّضحية بكل تِلك المُقَدَّسات. أتكلَّم عن رجلٍ لا يتوانَى أن يَمُدَّ طريق السِّكَّة الحديدية فوق قَبر أمِّه إن كان يَظُنُّ أنَّ هذا هو أقل الطُّرقِ تَكلفةً، وأنت تُحَدِّثني عن المُمَاطلة وتقديم خُطَط التَّسوية التي ستُتِيح لك أن تعيش كما يحلو لك، ولكن في الوقت نفسه ستعيش تِلك الآلات كما يحلو لها أيضًا؛ لذلك رأيي أنَّه لا أمل في

ذلك. لا أمل. كأنَّك تكتبُ معاهدة مع نَمِر! هو يُريد الفَتك ونحن نُريده أن يكون وديعًا! الأمران سِيَّان!»

«ولكن ما الذي نستطيع فعله؟»

«الكثير والكثير! نضع نهايةً لذلك الطَّعام! هؤلاء العمالقة ما زالوا مُشَتَّتين ومُبَعثَرين، وما زالوا في طَور النمو. لنُصَفِّدهم ونُكَمِّم أفواهَهم. لنوقِفهم بأي ثمنٍ. أهو عالمنا أم عالمهم! لنضع نهايةً لهذا الطَّعام! ولنُوقِف أولئك الرِّجال الذين يُصَنِّعونه. افعلوا أي شيءٍ لإيقاف كُوسَار! يبدو أنكم لا تتذكرون؛ جيلٌ واحدٌ، جيلٌ واحدٌ فقط هو ما يحتاج لأن يصمُد ويَثبُت، بعدها يُمكننا أن نُسَوِّي تِلك الأكوام هُناك وأن نملأ آثار أقدامهم وما خلَّفته من حُفَرٍ. يُمكننا أن نُزيل تِلك الصَّافِرات من أبراج الكنيسة وأن نُدَمِّر كلَّ ما لدَينا من البَنَادق الضَّخمة وأن نَرجِع مرةً أخرى إلى نِظام آبائنا وحضارة أجدادنا التي تُناسب طبيعتَنا البشرية.»

«سيُكَلِّف هذا جُهدًا طائلًا واستثنائيًّا!»

«جُهدٌ استثنائيٌّ لنهايةٍ استثنائية. ماذا إذن لو لم نُجِهد أنفسنا؟ أَلَا تَرى نُذُر النِّهاية المَحتومة تَلُوح في الأفقِ أمامنا واضحةً كوضوح الشَّمس؟ سيكثُر عدد العمالقة ويتضَاعف في كلِّ مكانٍ، سيُنتِجون هذا الطَّعام ويَنشُرونه. سينمو العُشبُ في أراضينا نموًّا خارقًا كنُموِّ الحشائش في سياجاتنا، والهَوَام في البساتين، والفئران في المَصَارف. سينمو أكثر وأكثر؛ فهذه هي البداية ليس إلَّا. ستنقَلب مملكة الحشرات علينا نحن البَشر، كما ستنقلب علينا مَملكة النَّبات. ستُهاجم أسماك البحر وحيتانه السُّفن وتُغرِقها. ستنمو الأشياء من حولنا نموًّا هائلًا لتُخفِي منازلنا ولتُصمِت كنائسنا وتُدَمِّر كل نظامٍ عرفتْه قُرَانا ومُدُننا، وسنُصبح نحن مُجرَّد هوام ضعيفة تحت وَطأة هذا الوجود الجديد. ستَفنَى البشرية بشيءٍ صنعتْه بأيديها! وكُلُّ هذا مقابل لا شيء! الضَّخامة ثمَّ المزيد من الضَّخامة وهكذا دَوالَيْك! وهَا نحن ذا نَشقُّ طريقنا وسط بِدايَات العصر القَادم وكلُّ ما نفعله هو أن نُقطِّب حاجبَينا ونقول: «هذا مُرِيع!» ... لا!»

ثمَّ رَفع يدَه.

«دَعهم يفعلوا ما يحلو لهم! وكذلك سأفعل أنا! أنا أختار المُواجَهة! مُواجهةً بَاسلةً جريئةً دون تَحَفُّظٍ أو خوف. إن كان أمر الطَّعام والقضاء عليه لا يُهِمُّنا، فماذا بَقِي في العالم لنَنْشغل به؟ لقد تَخَبَّطنا في طُرُقاتِ الحلول الوُسطَى طويلًا. وأنت! التَّخبُّط هو

عَادَتك؛ هو دائرة من الدَّوائِر المِحورية لحياتك؛ هو أبعَادُك. أمَّا أنا، فلا! أنا ضدُّ الطَّعام المكبِّر قَلبًا وقَالبًا وبكل ما أوتيتُ من قوة.»

الْتَفتَ إلى رفِيقه عندما زمجر مُعتَرِضًا على ما سَمِعه وقال: «ما رأيُك في هذا الأمر إذن؟»

ردَّ صديقه وقال: «الأمر مُعقَّد ...»

قال الرَّجُل الأكسفوردي بصوتٍ مرير وهو يُلَوِّح بكلتا ذِراعيه: «يا للأسى! أنت مُذَبذَب. صَدِّقني، الحلول الوُسطَى مَضيعةٌ للوقت ولا قيمة لها. إمَّا هذا وإمَّا ذاك. إمَّا أن تأكل من الطَّعام المكبِّر وإمَّا أن تُحارِبه. كُلْ منه أو حاربه! أهناك حلولٌ أخرى؟»

الفصل الثاني

العملاقان العاشقان

١

في هذه الأيام وَقتَ أنْ كان كاترام يَحشِد التَّأييد الشَّعبي ضِدَّ الأطفال العملاقة قُبَيل الانتخابات العامة التي ستَمنَحه سُلطَة الأمور في ظِلِّ تلك الظُّروف المأساويَّة والمُرِيعة، حدث، ومن بَابِ المُصَادفة، أنْ قَدِمَت سُمو الأميرة العملاقة، من مملكتها إلى إنجلترا في مُناسَبةٍ ذات أهمية. تِلك الأميرة التي كَانت مُدَّة تغذيتها المُبَكِّرة إحدى ركائز المَسِيرة المِهنية اللامِعة للدكتور وينكلز. خُطِبَت الأميرة لأميرٍ ما لأسبابٍ سياسيَّةٍ، وكان يُفترض أن يكون العُرسُ حدثًا ذا أهمية بالغة على الصَّعِيد الدولي، ولكن واجهتْهما بعض التَّأجيلات الغَامضة. رُوِّجَت الشَّائِعات وكان لها ولخَيال النَّاس دورٌ كبيرٌ في القِصَّة وأحداثها. كان البعضُ يتداول تفسيرًا لما حدث بأن الأمير أعرض عن تِلك الزِّيجة وقرَّر أنَّه لن يجعل من نفسه أضحُوكة إلى تلك الدَّرجة. تعاطف النَّاس معه، وهذا هو أهمُّ جانبٍ في تِلك القصَّة.

رُبَّما يبدو الأمر غريبًا، ولكن لن يكون كذلك إذا عَرَفنا حقيقة أن الأميرة العملاقة عندما أتت إلى إنجلترا كانت تَجهل جَهالةً تامَّةً أنَّ هُناك عمالقة آخرين من أيِّ نوع. كانت تعيش في عالمٍ حيث الذَّوق شِيَةٌ لا غِنى عنها والتَّحَفظُ أساسٌ راسخ؛ لذلك أخفَوا الأمر عنها ورَاوغُوها فلم يسمحوا لها بالاطلاع على أي شيءٍ مُتَعَمِلِق أو حتَّى أن تَجِد مَجَالًا للشَّك في الأمر حَتَّى حان موعد مجيئها إلى لندن. قَبل أن تُقَابل ريدوود العملاق، لم يَخطُر لها على بالٍ أن هُناك كائنات عملاقة مثلها في هذا العالم.

في مملكة وَالِد الأميرة، كانت هناك أراضٍ واسعةٌ تملؤها الجِبال والمُرتفعات حيث اعتادت الأميرة أن تتجوَّل بحُرِّيَّة. كان لديها ولعٌ بمشاهدة شروق الشَّمس وغُروبها كما كانت مشغولة بما يجري في السماوات من أحداث درامية، ولكن وجودها وسط شعبٍ كان

في يومٍ من الأيام يَتَّسم بالديمقراطية والولاء الشَّدِيد مثل الشَّعب الإنجليزي؛ كان مُقيِّدًا لحُرِّيتها. كان النَّاس يذهبون بقِطارات التَّنزُّه في مجموعاتٍ مُنَظَّمة كي يشاهدوها؛ كانوا يقودون الدَّراجات لمسافاتٍ طويلةٍ ليُحَدِّقوا إليها؛ لذلك كانت تستيقظُ مُبكرًا إن أرادت التَّجول في سلام. كان الليل في دُجَاه وقد اقتربَ الفَجر عندما ظَهر ريدوود الشاب ورأته للمرة الأولى.

كانت الحديقة الكبيرة المُجَاورة للقَصرِ حيث أقامت الأميرة، مُترامية الأطراف؛ تمتَدُّ لمسافة عشرين ميلًا أو يزيد غربي بوابات القصر الغربية وجنوبها. كان شَجر البُندُق يصطَفُّ على جوانب طُرُق الحديقة ويرتفع عاليًا مُتجاوزًا رأسها، وكُلَّما مَرَّت بشجرةٍ وجدتْها تَحمِل ثمارًا أكثر من سابقتها. كانت راضيةً بمَرأى الشَّجَرِ ورائحته، ولكن أخيرًا ضَعُفَت أمام تِلك العروض السَّخيَّة وانكَبَّت على الشَّجر تنتَقِي ثماره وتقطفها بهِمَّةٍ حتَّى إنَّها لم تَلحظ وجود ريدوود إلى أن دَنا مِنها.

أخذت تتنقَّل بين أشجار البُندُق شجرةً بعد الأخرى بينما كان الحَبِيبُ الذي خطَّته لها صُحُف القَدَر يقترب منها شيئًا فشيئًا دون أن يُثير انتباهها أو شكوكها. كانت تَمُدُّ يدَيها بين أغصان الشَّجرِ لتقطفَ حَبَّات البُندُقِ وتكَسِّرها ثمَّ تجمعها. كانت وحيدةً في هذا العالم. ثُمَّ ...

نَظَرت لأعلى لتلتقيَ عيناها بعينَي شريك حياتها في تِلك اللحظة.

حتى نرى الجَمَال الذي رآه ريدوود، علينا أن نُطلِق العِنانَ لُمخَيِّلاتنا وأن نَنظُر من خلال عينَيه. كانت واقفةً هُنَاك؛ أول مخلوقٍ على وجه الأرض تَرَاءى له كرفيقٍ. فتاةٌ وَديعةٌ، هيفاءُ الجَسدِ رشِيقةٌ، ترتدي ثيابًا رِقَاقًا. هَبَّ نسيم الفَجرِ العليل على فُستَانِها ذي الطَّيَّات الدَّقِيقة فتَجَسَّدت تَحتَه تَعاريجُ قوامِها المَشُوق، وكانت تُمسِك بحُزمَةٍ من أغصان شجر البُندُق في كِلتَا يدَيها. حَرَّك الهَواءُ طَوقَ فُستَانِها فكَشَف عن بياضِ رقبتها النَّاصِع وعن استدارةٍ نَاعمةٍ تَوَارت في الظِّل باتِّجاه كتِفَيها. كمَا بَعثَر النَّسيمُ خُصلَةً أو خُصلَتَين من شعرها البُنيِّ بأطرافِه الحَمراء فتَهَادَى على خَدِّها. كان لها عينانِ نَجلَاوَانِ زَرقَاوَانِ، وشَفَتانِ على أهبَةِ الاستعداد لتَرسُم ابتسامةً عندما تَناولت أغصان البُندُق بيديها.

التفتت باتجاهه ثُمَّ تَطَلَّعت إليه، وأخذ كلٌّ منهما يتأمَّل الآخر لبعض الوقت. رَأته وكان هو في عينيها بديعًا عَجِيبًا، ولبعض اللحظاتِ على الأقل كانت رؤيته أمرًا رهيبًا. سَبَّبَ ظهوره صدمةً لها كأنَّها رأت طَيفًا أو شيئًا خارقًا للطبيعة؛ حَطَّم كل قوانين عالمها الخاص. كان شابًّا يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا حينها، ذا جسدٍ رفيع. كانت سُمْرَة

والده وجاذبيته بَاديةً عليه. كان يرتدي حُلَّةً جِلديَّةً نَاعمةً وضَيِّقةً ذات لونٍ بُنيٍّ هادئ، وسِروالًا بُنيًّا يلتصق به التصاقًا، وكان رأسه مكشوفًا في كلِّ مواسم السَّنة. ظَلَّا واقفين يُمَحِّص أحدهما الآخر؛ كانت تنظر إليه بعينٍ فَاحِصَةٍ وكان قَلبُه يخفِق خفقانًا سريعًا. كانت لحظةً من غير مُقدِّماتٍ؛ كان أهم لقاءٍ في حياتِهما.

بالنسبة إليه كان الأمر أقلَّ إدهاشًا؛ فقد كان يبحث عنها منذ مُدَّة، ومع ذلك أخذ قَلبه يخفق سريعًا. اقترب نحوها ببطءٍ وعيناه مُركَّزتان على وجهها.

قال لها: «أأنتِ الأميرة؟ أخبرني والدي عنكِ. أنتِ الأميرة التي غُذِّيت بطعام الآلهة.»

ردَّت وقد بَدَت الدَّهشَة في عينيها: «نعم! أنا الأميرة، ولكن مَنْ أنت؟»

«أنا ابن ذاك الرَّجل الذي صَنَع طعامَ الآلهة.»

«طعام الآلهة!»

«أجل! طعام الآلهة.»

«ولكن ...»

عَلا وجهَها ارتباكٌ شديدٌ.

«أنا لا أفهم! ما هو طعامُ الآلهة؟»

«ألم تسمعي به من قبل؟»

«لا! لم أسمع بطعام الآلهة من قبل!»

شَحَب لونُها ودَبَّت رَعشَةٌ شديدةٌ في جسدها وقالت: «لم أكن أعرف. هل تقصد ...؟»

لم يَنبِس ببنتِ شَفةٍ وانتظرها لتُكمِل.

«هل تعني أنَّ هُناك آخرين؛ عمالقة أمثالنا؟»

كَرَّر ما قاله: «ألا تعرفين ذلك؟!»

ردَّت عليه وقد بَدأت تستوعِب الأمر في دهشة: «لا!»

كان العَالم بأسره يتبدَّل في نَظرها، العَالم وكل ما يعنيه.

انسَلَّ غُصنُ بُندقٍ من يدها، ثمَّ كرَّرت سؤالها ببلاهة: «هل تقصد أن تقول إن هناك عمالقة آخرين في هذا العالم؟ وإنَّ طعامًا ما ...»

لاحظَ مدى دَهشتها.

قال مُتعجِّبًا: «ألا تعرفين شيئًا؟ ألم تسمعي بنا من قبل؟ وأنتِ التي أطعموكِ الطَّعام نفسه الذي أطعمونا إيَّاه!»

كانت الرَّهبَة ما زالت بَاديةً في العينين اللتَين حدَّقَتا إليه. رَفعَت يدها إلى رقبتها ثم ما لبثت أن أنزلتْها مُجدَّدًا وهَمَست قائلةً: «لا!»

بَدَا لها أن عليها أن تَبكي أو تَخِرَّ فاقدةً وعيها، ولكنها استعادت رباطة جأشِها واتِّزانها وصار ذهنها صافيًا وكلامها واضحًا وقالت: «كلُّ هذا أُخفِي عنِّي! الأمر أشبه بحُلم. حلمتُ في الماضي بأشياء مثل ذلك، ولكن أن أراها وأنا يَقِظةٌ؛ هذا أمرٌ عُجَاب. أخبرني! أخبرني مَنْ تكون؟ وما هو طعامُ الآلهة؟ أخبرني ببطءٍ وبكافة التَّفاصِيل. لماذا أخفَوا الأمر عنِّي؟ لماذا لم يُخبروني بأنَّني لستُ وحيدة؟»

٢

قالت الأميرة العملاقة: «هَيَّا أخبرني!» دَبَّت رَعشةٌ فَحَماسٌ في جسد ريدوود الشاب، وهَيَّأ نَفسه ليُخبرها. كان الحديث فَاتِرًا ومُتَقَطِّعًا بعض الوقت، ولكنَّه أخبرَها عن طعام الآلهة وعن الأطفال العمالقة المُبعثرين في أرجاء الأرض.

لن يصعُبَ عَلى أحدٍ تَصَوُّر وجهَيْهما المُتَورِّدَيْن ودَهشتهما التي أثَّرت فيما يصدر عن جسديهما من حركاتٍ وإيماءات، كان يُحاول كلٌّ منهما فهْمَ الآخر من خلال عِبَاراتٍ متقطعة، لا تُستكمل إلى نهايتها في كثيرٍ من الأحيان أو يُتفوَّه بها في همسٍ لا يكاد يُسمَع، عِبارات مُكرَّرة ولحظات صمتٍ مُربِكة ثُمَّ بِدايات جديدة؛ كان حديثًا عَجيبًا أفاقت فيه الأميرة من سُبَاتِ الجَهل الذي كانت فيه طوال حياتها المَاضية. تَبيَّن لها تَدريجِيًّا أنَّها لم تكن حالة استثنائية من النَّوع البَشَري؛ ولكن واحدة من جَمَاعةٍ مُبعثرةٍ في كل مكان أكلوا من الطَّعام المُكبِّر ونَمَوا حَتَّى جَاوزَ نُمُوُّهم الحدود الضَّيقة لهؤلاء الأقزام عند أقدامهم. حَدَّثها ريدوود الابن عن أبيه وعن كُوسَا، وعن الإخوة المُشتَّتِين في أنحاء البلاد، وحَدَّثها عن بُزُوغِ فجرٍ جديدٍ ذي معنى أشمَل سُطرت ملامحه أخيرًا في تاريخ هذا العالم. قال لها: «نحن ما زلنا في بداية الأمر. ذلك العالم خَاصَّتهم هو مجرد مُقَدِّمة للعالم الذي سيصنعه الطَّعام المُكبِّر.

يُؤمن أبي، وأنا أصدِّقه، بأنه سيأتي زمانٌ تختفي فيه الضَّآلة من هذا العالم اختفاءً لا رجعة فيه، زمانٌ يَجُوب فيه العَمالقة هذه الأرض، التي هي الآن أرضهم، بحُريةٍ ويُكمِلون فِعل الأشياء العظيمة والبَاهِرة. ولكن كلَّ هذا قادم في المُستقبل، فنحن لسنا حَتَّى أول جيلٍ في هذا المضمار؛ وإنما نحن نتاجُ أول تَجربة.»

قالت: «أنا لم أكن أدري شيئًا عن كلِّ تِلك الأشياء!»

قال: «تَمُرُّ عَليَّ أوقاتٌ يبدو لي الأمر فيها أنَّنَا جئنا لهذا العالم مُبكرًا. أتصَوَّر أن أحدًا كان يجب أن يأتي أولًا، لكن العالم كان غير مُهيأ لقُدُومِنَا ولقُدوم كل تلك الأشياء المُحتَقَرة التي صارت عظيمة الحجم بسبب هذا الطَّعَام. هناك حماقاتٌ ارتُكِبَت وتأجَّجَت صراعاتٌ جراء ذلك. أولئك البَشَر الأقزام يكرهوننا.

يكرهوننا لأنهم أقزام بالمقارنة بنا؛ لأن أقدامنا ثقيلةٌ حين نخطو على الأشياء التي تقوم بِها حياتهم. على أي حالٍ هم يمقُتُونَنَا الآن ولن يُرَحِّبوا بأيٍّ منَّا بين أظهرهم أبدًا؛ سَيُسامِحُونَنا فقط إذا كُنَّا نستطيعُ أن نتَقَلَّص إلى مِثل أحجامهم.

فهم سُعَداء في تلك المنازل التي هي لنا زَنَازِين، هُم سُعَداء في مُدُنِهم الصَّغيرة لمن في مِثل أحجامنا، ونَذوق العَذاب ونحن نَمشِي في طرقَاتِهم الضيقة، ولا نستطيع التَّعَبُّد في كنائسهم.

نحن طوالٌ؛ نَرَى من فَوق أسوارهم وحُصُونهم، وننظُر سَهوًا إلى نوافِذ طوابِقهم العُليا. نَنظُر إلى عَادَتِهم وقَوانِينهم فنَراها ما هي إلَّا شِباكٌ بالكاد تَلتَفُّ حول أرجلنا.

نَسمَع صُراخَهَم كُلَّما تَعثَّرنَا، أو تخَطَّينا حدودهم، أو سَاقتْنا أقدامُنا إلى فِعل شيءٍ لم يعتادوه.

خُطُوَاتنا البطيئة المُتَثاقِلة هي مسافاتٌ طَويلةٌ مُترامِيةٌ بالنسبة إليهم، وكُلُّ ما يعتبرونه عظيمًا ومُبهرًا ما هو إلا دُمى أطفالٍ في نَظَرنا. تَفَاهَة أساليبهم وبَسَاطة مُعَدَّاتِهم وضَحَالة مُخَيِّلاتِهم تُعِيقُ قوانا وتَقهَرها، فلا آلات نستَغِلُّ بها قوة أيادينا، ولا مُساعدات تكفي حاجتنا. هم يُسَيطِرون على أحجامنا العملاقة هذه بالاستعباد بألفِ قيدٍ وقيدٍ لا يُرَون. رجلٌ منَّا لرجلٍ منهم، نحن أقوى مئات المرَّات، ولكننا عُزَّل لا سِلاحَ لنا؛ ضَخامتنا تلك تجعلنا مَديونين؛ فهم يمتلكون الأرضَ التي نَقِف عليها، ويفرِضُون علينا العَملَ مُقَابلَ حاجَتِنا لحِصَصِ الطَّعام الكبيرة والمأوى الضَّخم. وكلُّ هذا العمل المُضنِي يجب علينا أن نؤديه بتلك المُعدَّات التي يصنعها لنا هؤلاء الأقزام ليُشبِعوا أحلامَهَم المُتَقَزِّمة.

حَبَسونا وحَظَروا وجودنا في كل مكان، حتَّى إنَّه لكي تعيشي، يجب عليكِ أن تَتَخَطَّى تِلك الحدود التي رسمُوها لا مَحَالة. اضطُرِرتُ أن أتخَطَّى أحد تِلك الحدود لآتي وأقابلكِ اليوم. كُلُّ ما هو مَقبولٌ ومَرغوبٌ فيه في الحياة جعلوه خارجَ نطاقِ المسموح لنا به. فنحن محظورون من دخول المُدنِ وعبور الجُسُور كما يُحظَر علينا أن نَخطو على الحقول

المحروثة أو أماكن الطَّرائد التي يصطادونها. أنا معزولٌ الآن عن جميع إخوتي العمالقة ما عدا أبناء كُوسَار الثلاثة، وحتَّى طريقي إليهم أخذ يَضِيق يومًا بعدَ يوم. أحيانًا أظنُّ أنَّهم يتَصَيَّدون الفُرَص حتَّى يكيدوا لنا كيدًا خبيثًا ...»

قالت له: «لكننا أقوياء!»

رَدَّ قائلًا: «نَعم، علينا أن نكون أقوياء! كُلُّنا يشعُر أن بداخله طاقةً وقُوَّة، لا بدَّ أنَّكِ شَعرتِ بالمثل أيضًا، طَاقة لفعل أشياء عظيمة، طَاقة ثائرة تَفُور وتَغلِي، ولكن قبل أن نتمكن من فِعل أي شيءٍ ...»

ثُمَّ لَوَّح بيده بحركةٍ بَدت أنَّها قد سَحقَت العالمَ سحقًا.

قالت بعد لحظة صَمتٍ: «ورُغمَ اعتقادي بأنِّي وحيدة في هذا العالم؛ فقد فكَّرت مَليًّا في تلك الأشياء. عَلَّموني مُنذ صغري أنَّ القُوَّةَ خطيئة، وأنَّه من الأفضل أن تكون ضئيلًا على أن تكون ضخمًا عملاقًا. عَلَّموني بأن الدين الحق جاء ليَنصُر الضُّعَفاء ويُؤْويهم، ويُبَارِكهم فيتكاثروا حَتَّى تُملَأ بهم الأرض ويزحفوا بعضهم فوق بعضٍ من كَثْرَة عددهم. عَلَّموني أن نُضحِّي بكل قوتنا في سبيل الضُّعفاء، ولكن دائمًا ما كان الشَّك يُساورني حيال تِلك التَّعاليم.»

قال: «لم تُخلَق حياتنا وأجسادنا هذه لتَموت هكذا!»

«أجل!»

«ولا أن نَحيا عَبَثًا بلا هدف. وإن كنَّا سَنُرغم على ذلك، فالأمر واضحٌ وضوح الشَّمسِ لكلِّ إخوتنا العمالقة بأنَّ الصِّراع وَشِيك. ولا عِلمَ لي بماهية المرارات التي سيجلُبها هذا الصِّراع حتمًا قَبل أن يَترُكنا هؤلاء الأقزام نَعِيش كما نُرِيد. كلُّ إخوتنا العمالقة تَفَكَّروا في هذا الأمر. حتَّى كُوسَار الذي أخبرتكِ عنه، فَكَّر في هذا أيضًا.»

قالت: «هم ضَئِيلو الحَجم وضُعَفاء.»

«هذا هو ظاهرهم، لكن جميع آلات الموت والدَّمار في حوزتهم ومُصَنَّعة لأياديهم فحسب. مُنذ آلاف السنين، تَعَلَّم هؤلاء الأقزام، الذين نغزو عالمهم اليوم، أن يقتل أحدُهم الآخر. فهم لدَيهم القدرة على ارتكاب هذا الفِعل وبطرقٍ عِدَّة. بجانب أنَّهم مُخادِعون ويتغَيَّرون فجأةً ... لا أدرى ... ولكن هناك صِراعًا وشيكًا. ربَّما حَالُكِ مختلفٌ عنَّا. بالنسبة إلينا، فإن الصِّراع وشيكٌ لا محالة. هذا الشيء الذي يسَمُّونه حربًا؛ نحن نعرفه ونُعِدُّ له بطريقةٍ ما، ولكن أتعرفين شيئًا! نحن لا ندري كيف نقتل هؤلاء الأقزام! أو على الأقل لا نُريد أن نقتل...»

قَاطَعت حديثه: «انظر!» وسَمِع صوت نَفِير بُوق.

حوَّل وجهه شَطر الاتجاه الذي تَنظُر فيه الأميرة، ووَجَد سَيَّارة صفراء فَاقِعًا لونُها، سائقها رجلٌ يرتدي نَظَّارة قَاتِمة ويجلس معه عددٌ من الرُّكَّابِ يرتدون معاطف الفِراء. كانت السَّيارة تَزأر وتَشهَق وتُطَنطِن عند قَدَمه. أزَاح قَدمَه فاستكمل مُحَرِّك السَّيارة بَعد ثلاث زَفَراتٍ غَاضِبة مسيرته الصَّاخبة نحو المدينة.

قال أحدهم: «انظر! هل رأيت ذلك؟ هناك أميرة عملاقة وراء الأشجار!» واستدارت جميع الوجوه تحدق فيما تراه وقد جحظت عيونها.

قال آخر: «هذا لن ...»

قالت: «كل هذا أروع مما كان يمكنني تصوره.»

قال لها: «ما كان ينبغي أن يخبروك ...» وصمت دون أن يكمل عبارته.

«قَبل أن تَظهَر أنتَ لي؛ عِشتُ حياتي في عَالَمٍ كنتُ فيه ضخمةً ووحيدة. صَنَعت لنفسي حياة تُنَاسِب ذلك، وكنت أظنُّ أنِّي مَسخٌ من مُسُوخِ الطَّبِيعة الغَريبة.

أمَّا الآن، فقد تَهَدَّم ذلك العالم في نِصفِ ساعةٍ، وصِرت أرى عالمًا آخر بأحوالٍ أخرى واحتمالاتٍ أكثر ... وصارت لديَّ رفقَة.»

ردَّ عليها: «رفقَة!»

قالت له: «أريدُك أن تُحدِّثني أكثر وأكثر. ما تقوله يُشعِرُنِي كأنِّي أستمع إلى قِصَّةٍ خياليةٍ قديمة. حتَّى أنت ... رُبَّما أصَدِّق بعد يومٍ أو عدَّة أيام أنَّك حقيقي. أمَّا الآن، فأنا في حُلم ... صه!»

اخترق صوتُ أول دَقَّات سَاعَة القَصرِ البَعِيد الهواء قاطعًا كلامهما، ثمَّ عَدَّ كلٌّ منهما دَقَّات السَّاعة التي تُخبرهما بأنَّها السَّابِعة.

قالت: «هذه هي سَاعة رجوعي. سيُحضِرون إناء قهوتي إلى الردهة التي أنام فيها. لا يُمكنك تَخَيُّل عُبُوس هؤلاء الموظَّفين والخَدَم الأقزام وهم يؤدُّون مَهَامَّهم التَّافِهة تلك.»

قال لها: «أعلم أنَّهم سيتساءلون، ولكنِّي أرغب في الحديث معكِ.»

فَكَّرَت للحظةٍ وقالت: «ولكنِّي أريدُ التَّفَكُّر في الأمر. أريد أن أفَكِّر منفردةً في تلك التَّغييرات التي طالت كل شيء، وأن أنسى أمر عُزلَتي القديمة وأن أفكِّر فيكَ وفي العمالقة الآخرين في هذا العالم ... سأعود الآن، سأعود اليوم إلى بيتي في القلعة وغدًا فجرًا سآتي إلى هُنا مرةً أخرى.»

قال: «سأكون هنا مُنتَظِرًا!»

قالت: «سأظلُّ أحلُم وأحلم طوال اليوم بهذا العَالَم الجديد الذي منحتَهُ إيَّاي اليوم! حتى الآن، أكاد لا أصدِّق أنَّ ...»

خَطتْ خطوة إلى الوراء وأخذت تتفحَّصه من مَنبَت شعره حتَّى أَخْمَص قدميه. التقت عيناهُما وظلَّتا مُعلقتين لِلَحَظات.

«حَقِيقي!» قَالتها بضحكةٍ على استحياءٍ. «أنتَ حَقِيقي! ويا له من شيءٍ رائع! هل تَظُنُّ؟ ماذا لو جئتُ غدًا لأجدَك قزمًا كبقية البَشَر ... أجل! عليَّ أن أفكِّر في الأمر. أمَّا اليوم، فكما يفعل البَشَر الأقزام! ...»

مَدَّت يدَها وتلامَسَا لأول مرة. تَصَافَحا بقوةٍ والتقتْ عيناهما مرةً أخرى.

قالت له: «إلى اللقاء. وداعًا اليوم. وداعًا أيُّها الأخ العملاق!»

تَردَّد وهو يُهَمهِم بكلامٍ لم يَنبس به، وفي النهاية ردَّ عليها قائلًا: «وداعًا!»

ظل كلٌّ منهما مُمسكًا بيدِ الآخر، وهو يُمعن النَّظَر في وجه صاحبه. وعندما افترقا ظَلَّت تلتَفِت إلى الوراء وتنظر إليه في شكٍّ المَرَّة بعد المَرَّة، بينما كان هو ما يزال واقفًا في مكانه الذي التقَيا فيه.

أوتْ إلى الرَّدهة التي تُقيم فيها عَبرَ ساحة القصر الكبيرة تَتَهَادى كشخصٍ في حُلمٍ وأغصان شجرة البُندُق ما تَزال في يديها.

٣

تقابل الاثنان أربع عشرة مرَّة قبل بِداية النِّهاية. كانت لقاءاتهما في الحديقة الكبيرة أو على المُرتَفَعات أو بين وُديان الأراضي الجَرداء والمُنخَفَضات ذات الطرُق المهجورة التي كان بها غابة من أشجار الصنوبر امتدَّت باتجاه الجانب الجَنوبي الغَربي. تقابلا مرَّتين في جادة أشجار البُندُق، وخمس مراتٍ قُربَ نَافُورة الماء الكبيرة التي بناها جَدُّ جَدِّها المَلِك. كان هُناك مكانٌ ذو أرض مُعشَوشِبةٍ تَنمو بها أشجار الصنوبر الطَّويلة، تنحَدِر انحِدارًا خفيفًا حتَّى تُلاقِي صَفحة الماء. هُناك كانت تجلس الأميرة وهو مُضَّجِعٌ بجوار ركبتيها وينظر إلى وجهها ويُحدِّثها عن كلِّ ما حَدَث وعن الأعمال التي أوكلها له أبوه وعن أحلامه الوَردِية والجريئة عن حَالِ العمالقة يومًا ما في المستقبل. عادةً ما كانا يتقابلان هُناك مع مَطلعِ الفجر، ولكن ذات مرةٍ تقابلا عند الظَّهيرة ليجدا جمعًا غفيرًا من المُتَطَفِّلين يُحدِّقون إليهما ويحاولون استراق السَّمع؛ قائدو درَّاجاتٍ ومَارَّة طريقٍ يختلسون النَّظر من بين

الشُّجيرات، وتَطَأ نِعَالهم أرضَ الغابة المفروشة بأوراق الأشجار الجافَّة مُصدِرةً خَشخَشةً كخَشخَشةِ عصافير الدُّورِي في مُتنزَّهات لندن، كانوا يركبون القوارب في البُحيرَة حتَّى يصِلوا لموقعٍ أفضل للمُشاهدة ويحاولون الاقتراب أكثر فأكثر ليتسَمَّعوا حديثهما.

تلك كانت أول إشارةٍ إلى الفُضُول الهائل لدى أهل الرِّيف حول ما يدور في لقاءاتهما. وفي مرةٍ من المرَّات، كان الموعد السَّابع والذي عَجَّل بالفضيحة، تقابلا عند أحد السُّهولِ، وتحت ضوء قمرٍ ساطعٍ ونسيمٍ عليلٍ أخذا يتهامسان ويتهامسان، لِما كان لتِلك الليلة من طقسٍ دافئ وهواءٍ لطيف.

لم يَمضِ الكثيرُ حتَّى جَاوزَا في حديثهما فِكرة أنَّ بوجودهِما ومن خِلالِهما سيكون هناك عالمٌ جديدٌ من العمالقة على الأرض؛ جَاوزَا التَّأمُّل في هذا الصِّراع المُحتَدِم بين الضَّخَامة والضَّآلة؛ ذلك الصراع الذي كُتب عليهما أن يخوضاه، ولَاحَ في حديثهما اهتماماتٌ شخصيةٌ وأكثر أمَلًا. في كل مرة تقابلا فيها وتبادلا أطراف الحديث وأشبع كل واحدٍ منهما عينيه من رؤية الآخر، كان هناك شعورٌ يَزحف ببطءٍ من اللاوعي ليفرض نفسه كواقعٍ ملموس؛ شعورٌ بأنَّ هناك شيئًا أكثر حَمِيمِيَّة ودِفئًا من رابطة الصَّداقة التي تجمعهما؛ شعورٌ يُرفرِف فوقهما ويُدنِي بعضهما من بعض. وما لَبِثا أن تَمَكَّن ذلك الشُّعور منهما ليُصبِحا عَشِيقَين؛ كأنَّ آدم وحَوَّاء هَبَطا على الأرض مُجددًا ليكونا بذرةً لسلالة جديدة من البشر.

جَلسَا وأقدامهما تتجاور جنبًا لجنبٍ في وادي الحُب الدَّافئ ذي الأراضي الهادئة والخَفِيضة. تغيَّر العَالَمُ في أعينهما بتَغَيُّر حالهما وصَار لِلِقَائهما جَمالٌ قُدسِي؛ استحالت النَّجومُ أزهارًا مُضيئةً تُضيء سماء العاشقين، وكان مشهد الشَّمس في مَطلعها البَهِيِّ ومَغرِبها المَهِيب أشبه بلوحةٍ تُزَيِّن طَريقهما. لم يعودا كائنين من لحمٍ وعظمٍ بجانبِ بعضهما، وصارا نسيجًا جسديًّا واحدًا من الرقة والرغبة. تناوبت اللحظات التي قضياها معًا بين همسٍ وصمت، وتحت غِطاءِ الليلِ السَّبْط، دَنا كُل واحدٍ منهما من الآخر ونظر إلى وجه صَاحبه الذي انعكس عليه شيءٌ من ضِياءٍ جَادَ به القَمر، بينما كانت أشجار الصنوبَر السَّودَاء السَّاكِنة تَقِف حولهما خَفَرًا وحَرَسًا.

سَادَ الصَّمتُ وخَيَّمَ، وخُيِّلَ إليهما أنَّ الكَونَ قد سَكَن واستَكَان، ومَعه تَوقَّفت عَقَاربُ الزَّمَان، فلا صوتٌ مسموعٌ إلا صوت قَلبَيهِما يخفِقان. بَدَا لهما أنَّهما يَحيَيانِ في عالمٍ لا موتَ فيه، وقد كان كذلك حينها! استشعرا مدى جمال وفخامة ما يُحيط بهما من أشياء، وقد استبدَّت بهما المشاعر على نحوٍ غير مسبوق. إن للحُبِّ رَونقًا وبَريقًا خَلَّابًا يتجلَّى

حتَّى عندما تُحِبُّ الأرواح الشحيحة الضئيلة، فكيف الحال بالنسبة إلى عَشِيقَين عملاقين أكلا من طعام الآلهة؟!

لك أيُّها القارئ حُرِّية تخيُّل ما ألمَّ بهذا العَالَم النِّظَامي من فزعٍ عندما انتشر خبر أنَّ الأميرة التي خُطِبت للأمير، الأميرة؛ صَاحبة السُّمُو! ذات الدَّم المَلَكي يَجري في عروقها! اعتَادَت سِرًّا أن تُوَاعِد أحد الأبناء المُتَضَخِّمين لأستاذ كيمياء من عامة النَّاس؛ شَخص بلا حَسَبٍ ولا نَسبٍ؛ بلا ألقابٍ ولا ثَروَةٍ، وتُحدِّثه كما لو لم يكن هُناك مُلوكٌ ولا أُمراء؛ كما لو لم يكن هناك نظامٌ واحترامٌ وتبجيلٌ ومَهَابة. لا شيءَ سوى عَالَم به عَمالِقةٌ وأقزام؛ كانت تتحَدَّث معه والأكيد أنَّها كانت تَتَّخِذه عَشِيقًا.

تَلَفَّظ السير آرثَر بُودِل بُوتليك لاهثًا: «ماذا لو عَلِم هؤلاء الصحفيون بهذا الخبر؟!»

هَمَسَ الأسقُف العجوز ذو الملابس القَديمة الطِّراز: «لقد أخبرتُ بأن ...»

قال الخَادم الأول بينما كان يُقَدِّم الحَلوى: «يبدو أنَّ الأخبار لن تنقطع ما دامت الأميرة العملاقة لا تزال تمكث هنا.»

قالت المرأة التي تَقِف في مَتجَر القِرطَاسِيَّة بجانب بَوابة القصر الرئيسِيَّة حيث يشتري الأمريكيون الصغار تَذَاكر زيارة قَاعات القَصر المُزَيَّنَة: «يقولون ...»

ثُمَّ بعد ذلك:

قال كاتبٌ بمجلة «جوسِب» يُدعى «بِيكارُون»: «لدَينا إذنٌ بأن نُنكر ...»

وهكذا بدأت المَتَاعِب بالظُّهور.

٤

قالت الأميرة لحبيبها: «يقولون إنَّ علينا أن نفتَرِق!»

قال لها بحُرقَةٍ: «ولكن لماذا؟ ما هي الكَذِبة الجديدة التي أقنعكِ بها هؤلاء النَّاس؟»

سألته: «هل تَعلم أن حُبَّكَ لي يُعَدُّ خيانة عظمَى؟»

أجابها صارخًا: «يا عزيزتي! ما الذي يهمُّ في ذلك؟ ما هو حقُّهم في هذا؟ فليس لديهم أي منطق يبرر موقفهم! وما قيمة خِيانَتهم أو ولائهم لنا؟»

قالت له: «سأخبِرك!» وأخبرتْه عن كلِّ ما قِيل لها.

«جاء إليَّ أغربُ رجلٍ ضئيلٍ رأيتُه، وأخذ يُحدِّثني بصوتٍ عذبٍ ورقيقٍ ومُرَنَّم. كان رجلًا رشيقَ الحركة، دَلَف إلى الغُرفةِ برَشَاقةِ قِطٍّ وكان يرفع يده ناصعة البياض عاليًا كلَّما أراد أن يقول شيئًا مهمًّا. كان أصلع الرأس ولكن ليس أصلع الرأس تمامًا، وكان ذا أنفٍ ووجهٍ ممتلئَين يميل لونهما إلى اللون الأحمر. أمَّا لحيتُه فكانت مُهَذَّبة تَهذِيبًا أنيقًا. تَظَاهر غير ذاتِ مرةٍ بالانفِعال والمَشاعِر المُصطَنَعة التي جَعلَت عينيه تَلمَعَان. أنت تعرف أنَّه صديقٌ مُقَرَّب من العائلة الملكية هنا وقد نَادَانِي بـ «سيدتي الشَّابة العزيزة.» وكان عَطُوفًا ومُتعاطِفًا منذ البداية. قال لي مراتٍ عدَّة: «يا سيدتي الشَّابة العزيزة، أنتِ تعرفين أنَّه لا يَجدُر بكِ فِعل ذلك.» ثمَّ قال لي: «أخشى عليكِ أن تتعرضي للمُساءلة».»

قال لها مُتعجِّبًا: «أيُّ صِنفٍ من الرجال هذا؟»

ردَّت عليه: «إنه مُتعاطفٌ معي ...»

قال: «ولكني لا أفهم ...»

قاطعته وقالت: «لقد أخبرَني بأشياء شديدة الخطورة!»

انتقدَها فجأة قائلًا لها: «هل تُصدِّقين حقًّا ما أخبرِكِ به هذا الرجل؟!»

ردَّت عليه: «أعتقد أنَّ ما أبلغني به على درجة كبيرة من الأهمية!»

قال لها: «هل تقصدين ...؟!»

أكملت حديثها: «أعني أنَّنا كنَّا نَدعَسُ بأقدامنا دون علمٍ أقدَسَ المُسَلَّماتِ عند هؤلاء البشر الضئيلين. فنحن الذين يجري في عروقنا دمٌ ملكيٌّ طبقةٌ معزولة، نحن أسرى يُعبَدون ودُمَى تُزَيِّن المَواكِب. نحن ندفع حُرِّيتنا الأساسية ثمنًا ليعبُدَنا النَّاس. كان يتعيَّن عليَّ الزواج من ذلك الأمير. أنت لا تعرف شيئًا عنه؛ إنه أميرٌ قَزْم ولا يَعنِي لي شيئًا. كان هدفُ ذلك الزَّواج أن يُقَوِّي الأواصِر بين دولتي ودولة أخرى. وتلك الدولة كانت لتستفيد هي أيضًا! تَخَيَّل! أتزوَّج لتَعزيز العلاقات!»

قال لها: «وماذا سيفعلون الآن؟»

ردَّت عليه: «يُريدون مِنِّي أن أمضي قدمًا في الأمر كما لو لم يكن بيني وبينك شيء.»

قال لها: «هل أخبرَكِ بهذا؟!»

قالت: «أجل! وهذا ليس كلَّ شيء! قال لي أيضًا ...»

قاطعها: «أتقصدين ذلك الرَّجل المَاكِر نفسه؟»

أجابته: «نعم! قال لي إنَّه من الأفضل لكَ ولكل العمالِقة أن نمتنع نحن الاثنين عن الحديث معًا! هكذا قال لي!»

ردَّ عليها: «وإنْ لم نفعل، فما الذي يُمكِنُهم فعله؟»

قالت له: «قال لي إنَّكَ ربما تُمنَح حُريَّتَك.»

قال: «أنا!»

ردَّت عليه: «قال لي وهو يُشَدِّد على كلامه: «يا سيِّدتي الشابة العزيزة، سيكون من الأفضل والأكرم إذا افترقتُمَا طَواعِيةً.» كان هذا قوله وهو يُشَدِّد على كلمة «طَواعِيةً».»

قال لها: «ولكن ما شأن هؤلاء الصَّعَالِيك الأقزام في أي مكانٍ نتَواعَد أو كيف نَتَواعَد؟ ما الذي يعنِيهم ويعنِي عالمهم فيما نفعله؟»

«هم لا يُفَكِّرون كذلك.»

«أخبريني أنَّكِ قد تَجَاهلتِ كلَّ هذا؟»

«كلُّ ذلك الكلام هو محضُ حماقة بالنسبة إليَّ.»

«قوانينهم التي تَغُلُّ أيادينا! بأننا نحن اللذَين في ريعان الشَّباب ومقتبل العمر، يجب أن نُقَيَّدَ بالتزاماتهم البَالِية وعاداتهم وتقاليدهم العشوائية! لا! لن نتمسَّك بها!»

«أنا مِلكٌ لقَلبِك؛ حَتَّى الآن!»

«حتَّى الآن؟ أليس ذلك كلَّ شيء؟»

«ولكنَّهم إذا أرادوا أن يفَرِّقوا بيننا ...»

«ما الذي يُمكِنُهم فعله؟»

«لا أدري! ما الذي يُمكِنُهم فعله؟»

«لا أحدَ يهتمُّ ما الذي يُمكِنُهم فعله أو ماذا سيفعلون! أنا لكِ وأنتِ لي، ما الذي نُريده بعد ذلك؟ قَلبِي لكِ وقَلبُكِ لي، للأبد. أتظُنِّين أنَّ تِلك القوانين والمَحظُورات التَّافِهة ستَردَعُني، أو تِلك اللافِتاتِ الحُمر ستُوقِفني وتُبعِدني عنكِ؟»

«ولكن يبقى السؤال، ما الذي يُمكِنُهم فعله؟»

«تعنِين، ما الذي سنفعله نحن؟»

«نعم!»

«نحن؟ يُمكننا أن نَمضِي.»

«وماذا إن حاولوا منعنا؟»

ضَمَّ قبضة يدِه وأخذ ينظُر حوله كأنَّ البشر الأقزام قادمون لَمنعِهم، ثم خَطَا مُبتعِدًا عنها ومَدَّ بصره في الأفق وقال: «نعم! كان سؤالك هو السؤال الصحيح! ما الذي يُمكِنُهم فعله؟»

قالت: «هنا في هذا البَلد ...» ثمَّ توقَّفَت.

قال وهو يَمسَحُ الأرض من حوله بنَظَره: «إنهم في كُلِّ مكان!»

ثُمَّ أكمل: «ولكن يُمكِننا ...»

«إلى أين؟»

«يمكننا أن نرحل. يمكننا أن نعبر البِحَار معًا، ووراء تِلك البحار.»

«ولكنِّي لم أذهب إلى ما وراء البِحار من قبل.»

«هناك جِبالٌ ضَخمةٌ عظيمة ولا يسكنها أحد، بينها سَنَشعُر بالضَّآلة كأننا بشر أقزام. وهناك قُرًى قَاصِية ومهجورة، وهناك بحيراتٌ مَخفِيَّة ومرتفعاتٌ تُغَطِّيها الثُّلوج لم تطأها قدم البَشَر. هناك ...»

«ولكن حتى نشقَّ طريقنا إلى هناك علينا أن نُواجِه الملايين والملايين من البشر يومًا بعد يوم.»

«إنها أملُنا الوحيد! ففي هذا البلد المُكتَظِّ، لا استقرارَ ولا ملجأ لنا ولا حياة. أيُّ مكانٍ لنا نعيش فيه بين تلك الحشود؟ هؤلاء الأقزام يُمكنهم أن يَتَوَاروا عن بعضهم بعضًا، ولكن أين نَتَوَارى نحن عن أعينهم؟ لا مكان نأكل فيه ولا مَخدَع ننام فيه. وإذا فَررْنا، سيقتَفون أثرَنا ليلًا ونهارًا.»

ثمَّ وَرَدت بخَاطِره فكرة.

قال: «هناك مكانٌ وحيد على هذه الجزيرة!»

«أين هو؟»

«المكان الذي بناه إخوتنا هناك. لقد بنَوا ضِفافًا هائلة الحجم حول البيت من كل اتجاه، الشَّرق والغرب والشَّمال والجنوب؛ وحفروا سَرادِيب عميقة وأماكن مَخفِيَّة. زَارنِي أحدهم مُؤخرًا وقال لي، لا أذكر بالضبط ما قاله حينها، ولكنه كان يُحدِّثُني عن أسلحة؛ لذلك أظنُّ أننا يجِب أن نذهب إلى هناك طلبًا للمأوى.»

أكمل كلامه بعد لحظاتٍ من الصمت وقال: «لم أرَ إخوتنا مُنذ مُدَّة طويلة ... يا إلهي! لقد كُنتُ هائمًا نَاسيًا ... مَرَّت تِلك الأيام ولم أفعل شيئًا إلا انتظار رؤيتكِ مرة أخرى. يجب أن أذهب وأتشاور معهم وأخبرهم عنكِ وعن كل الأخطار المُحدِقة بنا. لو ساعدونا، فيمكنهم حقًّا أن ينقذونا! وقتها يُمكننا أن نَأمُل خيرًا. لا أعلم مقدار قوة المكان، ولكن لا بُدَّ أنَّ كُوسَار قد حَصَّنه تحصينًا قويًّا. أتذكَّر الآن أنَّه قبل كل هذا، وقبل أن ألقاكِ، كانت هناك مَتَاعِب تلوح في الأفق؛ كانت هناك انتخابات؛ وهي طريقةٌ يُسَوِّي بها البَشَرُ

الأقزامُ الأمورَ بِعَدِّ الرُّءوس. لا بُدَّ أنَّها قد انتهت الآن. كانت في تلك الانتخابات تهديدات لنَوعِنا بالكامِل؛ نَوعنا عن بَكْرة أبيه، عَدَاكِ. يجب أن أرى إخوتنا وأن أخبرهم بكل ما بيننا، وبكل ما يحُوم حولنا من مَخاطِر.»

٥

في لقائهما التَّالي، تأخَّر فظلَّت تنتَظِره حَتَّى أتى إليها بعد مُدَّة. كانا قد اتَّفقا أن يتقابلا عند الظَّهِيرة في بُستَانٍ فَسيحٍ ضَمَّه بين رِحَابِه أحد اعوجَاجَات مَجرى النَّهر. ظَلَّت طوال مُدَّة انتظارها تُحَدِّق جهة الغرب، ودَار في خلدِها ما دَار من الأفكار عن سكون هذا العَالم الذي كان في حالة من السكون الكئيب في واقع الأمر. ثُمَّ انتبهت إلى أنَّه على الرُّغم من تَأخُّر الوقتِ، لم يكن هناك أثرٌ لتلك الحاشية المعتادة التي كانت ترافقها أينما ذهبت والتي كانت تتلصَّص عليها أيضًا. نَظَرت عن يمينها ثم عن شِمَالِها ولم تَجِد أي أحدٍ منهم في مَرمَى بصرها، ولا حتَّى ذلك القارب عند المُنحَنى الفِضِّي لنهر التِّيمز. حاولت أن تَفهم سبب ذلك السكون الغَريب المُزعِج …

وفجأةً، لَمَحَت ما أدخل سرورًا مفاجئًا عليها، رأت ريدوود بعيدًا عبر فُرجَةٍ بين غابَات الأشجار الكثيفة.

سرعَان ما أخفَته الأشجار عن الأنظار، ثمَّ ظَهَر مجدَّدًا وهو يَشُقُّ طريقه من بينها مُقتَحمًا ليظهر مرةً أخرى في مَرمى بصرها. كانت تَرى بجلاءٍ أنَّ هُناك شيئًا قد تَغَيَّر، ثمَّ رأتْه يُهَرولُ هَرولةً لم تَعهَدها ثمَّ بدأ يَعرُج. لَوَّح إليها بيده فَمَشت إليه. اقترب أكثر واتَّضَح وجهه فرأته مُكفَهِرًّا فيه تَألُّمٌ ووجع يَظهر مع كلِّ خطوة يخطوها.

هَروَلت إليه وقد مُلِئ عقلها أسئلةً جَمَّةً ممزوجة بخوفٍ مُبهَم. توقَّف بجانبها وتَكلَّم دون أن يُحيِّيَها.

سألها لاهثًا: «هل قَرَّرتِ أن نفترِق؟»

أجابته: «لا! لماذا؟ ماذا ألَمَّ بِك؟»

«أمَا وإنَّا لن نفترق، فقد حان الوقت!»

«ما الذي حدث؟»

«أنا لا أريد أن نفترق، فقط …» ثم سكت فجأة وسألها: «هل تَعديني أنَّكِ لن تَهجُريني؟»

نَظرت في عينَيه نظرةً مُلئتْ إصرارًا وقالت وهي تُشَدِّد كلامها: «ما الذي حدَث؟»

«لن تَهجُريني مهما طَال الوقت؟»

«أيُّ وقت؟»

«سنوات ربَّما.»

«لا! لن نفترق!»

سألها مؤكِّدًا: «أفَكَّرتِ في الأمر مَليًّا؟»

أمسكتْ بيدِه وقالت: «لن أفَارِقك! حتَّى ولو كان الموتُ مصيرنا، فلن أتركَك.»

قال لها وقد شَعَرتْ بأصابعِ يدَيه تَضغط على يديها: «حتَّى ولو كَان الموتُ مصيرنا.»

نَظَر حوله خائفًا من أن يَرى البشر الأقزام يَلتفُّون حولهما وهو يتكلَّم ثمَّ قال: «قد يكون الموتُ مصيرنا.»

«أخبِرني ماذا حدثَ الآن.»

«حاولوا مَنعِي من المجيء.»

«كيف؟»

«عند خروجي من المعمل الذي أُعد فيه طعام الآلهة للإخوة كُوسَار ليُخَزِّنوه في مُعسكَرِهم، رأيتُ شرطيًّا قَزْمًا، رجلًا رداؤه أزرق اللون وذا قفَّازاتٍ ناصعة البياض، أشَار إليَّ لأقف وقال: «هذا الطَّريق مُغلق!» فَكَّرت قليلًا ثمَّ ذهبتُ مُستَديرًا من خَلف المَشغَل حيث هناك طريقٌ آخر باتجاه الغَرب لأجدَ شرطيًّا آخر يقول لي: «هذا الطَّريق مُغلق!» ثمَّ أضاف: «كلُّ الطرقِ مُغلقة!»»

«ماذا حدَث بعد ذلك؟»

«تَجَادلتُ معه جِدالًا قصيرًا وقلتُ له: «هذه طُرقٌ عامَّة!»

قال لي: «هذا صحيح! أنتَ قُلتها بلسانك! أنت تُفسِد الطرق التي يستخدمها العامَّة.»

قلتُ له: «حسنٌ! سَأشُقُّ طريقي بين الحقول!» فرأيتُ مجموعة أخرى من رجال الشُّرطة وقد قفزوا من فوق سياج الشُّجيرات وقالوا: «هذه حقولٌ ذات مِلكيَّةٍ خاصة.»

قُلت لهم: «سُحقًا لكم ومِلكيَّتِكم الخاصة والعامَّة. أنا ذاهبٌ لأميرتي!» ثمَّ انحنيتُ وحملته برفقٍ وهو يرفُسُ ويَصرُخ ثمَّ أنزلته بعيدًا عن مسار طريقي. وفي أقلِّ من دقيقةٍ امتلأتْ جميع الحقول من حولي برجالٍ يركضون. رأيتُ واحدًا منهم على ظهر حصانٍ يعدو به بجانبي وهو يقرأ شيئًا ما ويصيح بما يقرأ. أنهى ما يقرؤه ثمَّ استدار وأخذ

يعدو بعيدًا عنِّي مُطأطئًا رأسه. لم أدرك الأمر وقتها، ولكن بعد ذلك سمعتُ أصوات البَنَادِق من خَلفي.»

«بنادق!»

«بنادق كالتي يصطادون بها الفئران. اخترقتْ رَصاصَات البنادق الهواء من حولي وكان لها صوتٌ كصوت شيءٍ يتمزَّق؛ أصابتني إحداها في رجلي.»

«وماذا فعلتَ أنت؟»

«جئتُ إليكِ هنا وخَلَّفتُهم من ورائي يركضون صارِخين ويُطلقون الرَّصاص. والآن ...»

«ماذا الآن؟»

«هذه هي البِداية. لقد عَقَدوا العزم على أن يُفرِّقونا، وهم قادمون خَلفِي الآن.»

«نحن لن نَفتَرِق.»

«أجل، ولكن إن كنَّا لن نفتَرِق فيجب أن تأتي معي إلى مُعسكَر إخوتنا.»

قالت له: «أي طريقٍ سنسلك؟»

«الذين يُلاحقونني قادمون من الشَّرق؛ لذلك يجب أن نَسلُك هذا الطريق على طول تلك الجَادة ذات الأشجار. سأذهب أنا أولًا لأرى إذا ما كانوا يترصدون ...»

خَطا خطوةً كبيرةً ولكنها أمسكت بذراعه.

صرخت: «لا! سأكون بقُربِك، وأُمسِك يَدك! ربَّما يَردعهم أنَّي ذاتُ دَمٍ مَلَكي، ربَّما يَردعهم أنِّي مُقَدَّسة. إذا أمسكت يَدك ستحرُسُك عِناية الرَّب وتَطوف حولك! فقد لا يطلقون عليك الرَّصاص ...»

قَبَضت على كتفه وأمسكت ذراعه وهي تتكلم ثُمَّ اقتربت بجسدها إليه ورَدَّدت: «قد لا يطلقون عليك الرَّصاص ...» ثُمَّ وبعَاطِفةٍ جَيَّاشةٍ مُفاجِئةٍ ضَمَّها برِفقٍ بين ذِراعَيه حَاضِنًا لها وطَبعَ قُبلةً على خَدِّها. ظلَّ ضامًّا لها هكذا لِلَحظاتٍ.

هَمَست له: «حَتَّى ولو كان الموتُ مصيرنا.»

لَفَّت يدَيها حول عُنُقه ورَفَعت وجهها قُبَالة وَجهه.

«أيا حبيبي الغالي، قَبِّلني قُبلةً أخرى.»

جَذبها باتِّجاهه وقَبَّلَ شَفَتَيها في صمتٍ، ثُمَّ بعد لحظاتٍ زَادَها قُبَلةً أخرى. أمسكا بيد أحدهما الآخر وكانت هي تحرِصُ على أن تُبقِي جَسَدها مُلاصِقًا لجسده، وانطلقا للأمام

آمِلَين أن يَصِلا إلى ملاذهما؛ المُعسكَر الذي بناه أبناء كُوسَار قبل أن يُدرِكَهم مُطاردوهم من الأقزام.

وهم يقطَعون المساحات الشَّاسعة للبُستان خلف القلعة، ظَهَر فارسٌ على صهوَة حصانه يعدو بين الأشجار ويحاول عبثًا أن يُواكب سُرعة خطواتهما العملاقة الواسعة. وظَهرت أمامهما مَنَازِل يخرج منها رجالٌ يحملون البنادق. وبرؤية هذا المنظر، وعلى الرُّغم من أنَّه قد حَزَم أمره أن يُكمِل وهيَّأ نفسه أن يُقاتل ليُكمل طريقه، ولكنَّها حَمَلته على الانعطاف والمُضِي باتِّجاه الجنوب.

وهما يُسرعان بالهرَب، تمكَّنا من تفادي رصاصة أعلى رأسيهما.

الفصل الثالث

صغير آل كادلز في لندن

١

جاهلًا بمُستَجَدَّات الأحداث والقوانين التي تُحكِم قَبضَتَها على كل الإخوة العمالقة، وجاهلًا بالتَّأكيد أنَّ هناك أخًا له يعيش على الأرض، اختار صَغِيرُ آل كادِلز هذا الوقت ليخرج من المَحجَر الطباشيري ويَرى العالَم من حوله؛ هذا ما هَدَاه إليه تفكيره في النِّهاية. فأسئلته لم تَجد لها جوابًا في تشيزينج آيبرايت؛ فالقسُّ الجديد كان أقلَّ تألقًا واستنارة حتى من القَس الرَّاحِل، فأخذ لغز عَمَله العَبَثِي ينمو حتَّى بلغ به الأمرُ حَدَّ السخط عليه. تساءل قائلًا: «لماذا يتعيَّن عليَّ أن أعمل في هذا المَحجَر يومًا بعد يوم؟ لماذا يتعين عليَّ أن أعيش مُقَيَّدًا مَكتُوفًا وأُحرَم من رَوعَة العالَم وعجائبه وراء تِلك الحدود؟ ماذا اقترَفتُ لأكون مُدانًا هكذا؟»

وفي أحد الأيام نهضَ ونَصَبَ ظهره مُعتدلًا وصَرخ وقال: «كَفَى!»

قال: «لن أستمرَّ في ذلك بعد الآن!» ثمَّ أخذ يَلعن المَحجَر بحُرقةٍ شديدةٍ.

وبعد أن نَبَس بعدَّة كلماتٍ، رأى أن يُعَبِّر عمَّا يدور برأسه بالفِعل لا بالقول. اتَّجه إلى عَرَبةٍ ممتلئة إلى نصفها بالصخر الطباشيري ثمَّ رفعها وقذفها باتِّجاه شاحنةٍ أخرى لتُهَشَّم. أخذ قطارًا كاملًا من العَرَبات الفَارغةِ وأدَارَه ورَمى به على إحدى الضِّفاف، ثُمَّ قَذفَ بجُلمُودٍ طباشيري عليه ليُحطِّمه نهائيًّا. وبرَفسَةٍ عَاتِيةٍ بقدمه، اقتَلَع ما يَقرُب من اثنتي عشرة يَاردة من قَضِيب السِّكة الحديدية. وهكذا أخذ يُدَمِّر المَحجَر بإخلاصٍ وتَفانٍ.

قال: «هل أقضي كلَّ أيام حياتي في العمل بهذا المكان؟!»

كانت تلك الدقائق الخَمس مُثيرةً للغاية بالنسبة إلى عالِم طَبقات الأرض الضئيل الجسم، والذي كان يَشهد انهماك العملاق في تدمير المَحجَر. تَفَادَى هذا المخلوق المسكين الصغير حجرَين عملاقين بمقدار شَعرَة، وخَرج من الجانب الغربي وفَرَّ من جَانِب الوادي

وعلى ظهره حقيبة تَصطَفِق مع كلِّ خطوة من خطوات ساقَيه المُسرعتَين اللتين غطَّاهما سروالٌ قصير. ترك خَلفه آثارًا من حفريات العصر الطَّباشيري. بينما انطلق صغير آل كادِلز، الذي شَفَى غَليلَه بذلك الدَّمار الذي خَلَّفه، ليُحقِّق غايته في هذا العالم.

«هل كُتِبَ عليَّ أن أكدح في هذا المَحجَر البائس ليلَ نهار حتَّى أموت وأتعفَّن؟! ماذا كانوا يظنُّون بعملاقٍ مثلي أنَّه فاعِل؟ ينحِت الحجر الطباشيري لأهدافٍ حمقاء لا يعلمها إلا الله؟! لا! لستُ أنا!»

ربَّما كان اتِّجاه الطرقِ والسِّكَّة الحديدية هو ما جعله يُولِّي وجهه شَطر لندن، وربَّما كانت محضَ صدفة. أخذ يعدو في هذا الاتجاه مَارًّا بالمنخفضات وبجانب المُرُوجِ طوال الظَّهيرة يصبو إلى كل عجيبٍ في هذا العالم. لم تعنِ له تِلك المُلصقات المُمَزَّقة ذات اللونَين الأحمر والأبيض شيئًا. كان مطبوعًا عليها أسماء مختلفة وتتدَلَّى مُرَفرِفَةً من جميع الجُدران والحظائر. كان لا يدري شيئًا عن الصِّراعات الانتخابية التي تمخَّضت عن تولِّي كاترام، جَاك قاتِل العمالقة، رأس السُّلطَة. ولم يهتم مُطلقًا أنَّ كل مَخَافِر الشُّرطة التي مرَّ بها في طريقه كان قد وصلَها ظهيرة ذلك اليوم ما سُمِّي «مَرسُوم كاترام الرَّسمي» وثُبِّتَ على لوحة إعلانات المَخفَر. كان يَنُصُّ هذا المَرسُوم على أنَّه لا يُسمَح لأحدٍ كائنًا مَنْ كان، وقد بَلغ من الطُّول ما يزيد عن ثماني أقدامٍ، أن يقترب لأكثر من خمسة أميالٍ من مَحَل إقامة كاترام دون إذنٍ خاص. ولم يهتمَّ باللافتات التحذيرية التي أخذ ضباط الشرطة المُتأخِّرين، الذين لم يكونوا يشعُرون بالكثير من الارتياح إزاء تأخُّرهم، يُلوِّحون باللافتات التحذيرية له كي يعود. كان يمضي في طريقه ليرى ما الذي ينتظره في ذلك العالم الخارجي، ويا له من فضوليٍّ أبله. لم يُعِرْ وهو ماضٍ في طريقه أولئك الأشخاص المُتَحمِّسين لرؤيته أي اهتمامٍ وهم يصيحون «مرحبًا!» أتى على قريتَي روشستر وجرِنيتش وباتِّجاه تَجَمُّعٍ كثيفٍ من المنازل لم يَرَ مثله قط، أخذ يمشي ببطءٍ وهو يتفَحَّصه بعينيه ويُؤرجِح فأسَه بيده.

سَمِع أهل لندن شيئًا عنه قبل ذلك؛ كيف أنه كان أبلَهَ لكنه وديع، وكيف رَوَّضه كلٌّ مِن وكيل الليدي وَندرشُوت والقس ترويضًا تُضرَب به الأمثال، وكيف عَبَّر العملاق بطريقته الكئيبة عن تَبجِيله واحترامه لأولئك الأشخاص، وعن امتِنانِه لرعايتهم له وما إلى ذلك؛ لذلك عندما قرءوا في لوحة إعلان الجَرِيدة ظهيرة ذلك اليوم أنَّه «مُضرِبٌ عن العمل» استنتج الكثير من النَّاس أن هذا الإضراب هو فعلٌ مُتَعمَّدٌ ومُدَبَّر.

قال أحد المسافرين العائد إلى بيته من رحلة عملٍ على متن القِطار: «إنَّهم يحاولون أن يختبروا قوَّتنا.»

«نحن محظوظون أنَّ بيننا رجلًا مثل كاترام.»

«هذا الأمر هو ردٌّ على تصريحاته.»

أمَّا الرِّجال في النَّوادي، فقد كانوا أكثر اطلاعًا؛ كانوا يلتَفُّون حول أسطوانات الموسيقى أو يتحدَّثون في مجموعاتٍ داخل غُرَف التَّدخين.

«هو لا يملِك أيَّ أسلحة. كان سيتَّجِه إلى سيفينوكس لو كانوا حرَّضوه على ذلك.»

«سيتَولَّى كاترام أمره ...»

قَصَّ البَاعَة الأمر على زبائنهم، وخَطَف النُّدُل في المطاعم لحظاتٍ بين تقديم طعامٍ وآخر ليقرءوا عنه في جريدة المساء، كما أثار الأمر اهتمام سائقي سيارات الأجرة فقرءوا عنه في جريدة المساء أيضًا.

كانت العناوين الرئيسية لجريدة المساء الرَّسمية للحكومة تُبرِز جملة: «لنقتَلِعَ الشَّجَرة من جذورها.» واعتمدت باقي الجرائد على عنوان آخر لجذب القُرَّاء: «ريدوود العملاق ما زال يُوَاعد الأميرة.» أمَّا جريدة «إكو» فقد جاء عنوانها كالتالي: «شائعاتٌ عن ثورةٍ للعمالقة في شمال إنجلترا. عمالقة سَندرلاند يزحفون نحو اسكتلندا.» بينما اكتفت جريدة وِست مينستر جازيت بعنوانها التَّحذِيري المعتاد: «احذروا أيُّها العمالقة!» وهي تَهدف من ورائه أن تُوَحِّد صفوف الحزب الليبرالي الذي مُزِّق بين سبعةٍ من القَادة المغرورين. وجاءت الجرائد اللاحقة بعنوانٍ موحَّدٍ يقول: «العملاق في طريق نِيو كِنت.»

قال شابٌّ شاحب اللون في الحانة: «ما أريد معرفته هو، لماذا لا نعرف أي أخبارٍ عن الإخوة كُوسَار؟ كان من المتوقع أن يشاركوا في الأمر أكثر من غيرهم.»

قالت النادلة وهي تُنَظِّف قدحًا: «يقولون إن هناك آخرين مثلهم؛ عمالقة صغار، قد فَرُّوا. لطالما كنتُ ولا أزال أرى أنَّهم يُمثلون خطرًا كبيرًا ويتعيَّن علينا ألَّا نُبقِيَهم بالقرب منَّا. كان يجب أن نُوقفهم من البداية، ولكن على أي حال، آمُل ألَّا يمرَّ ذلك العملاق بالقُرب من هنا.»

قال الشَّابُّ الواقف على المَشرَب باستهتارٍ: «أمَّا أنا فأودُّ أن ألقِي نظرةً عليه.» ثُم أضاف: «لقد رأيتُ الأميرة.»

قالت النادلة: «هل تظنُّ أنَّهم سيؤذونه؟»

قال الشَّاب الواقف على المَشرَب وهو يتجرَّع ثُمالة كأسه: «ربَّما يضطرون لذلك.»

وفي خِضَمِّ همهماتِ عشرة ملايين شخصٍ يُثرثرون حول هذا الموضوع، وَصَل صغير آل كادِلز إلى لندن.

٢

عندما أذكُر صغير آل كادِلز أذكُره يوم كان سائرًا في طريق نِيو كِنت والشَّمس تُلهِب وجهه المُرتَبك وعينيه المُحملقتَين. كان الطَّريق مكتظًّا بكل أنواع البَشَر والمَركَبَات؛ الحافلات العامَّة وعربات النَّقل الجماعية والقطارات الكهربائية والشَّاحنات الصَّغيرة وعربَات الخيل وراكبي الدَّراجات والسَّياراتِ وحشدٍ من الناس فاغِري أفواههم من الدَّهشةِ. كان هذا الحشد يتألَّف من المُتسكِّعِين والنِّساء والمُرَبِّيات والمُتسوقات والأطفال والمُراهِقين المُتَهوِّرين الذين تجمَّعوا جميعًا خلف قدمَيه اللتين تتحرَّكان بحذرٍ وحيطة. كانت اللافتات الإعلانية مُبعثرة أينما حَلَّ البَصر وكانت تَعلوها مُلصَقات الانتخابات المُمَزَّقة. ارتفع صوتُ هَمهَمات الحشدِ يُحدِّث بعضهم بعضًا حول أمر هذا العملاق. يَرى الرَّائي أصحابَ المتاجر وزبائنهم مُكدَّسين عند الأبواب، والوجوه تَتردَّد جيئةً وذهابًا على نافِذات المنازل، والصِّبية في الشَّوارع يركضون ويصرخون، ورجال الشُّرطة يتعاملون مع الأمر بحزمٍ وهدوء، والعُمَّال على السِّقالات وقد أوقفوا العمل. يَرى الرَّائي هذا الخليط الهائج وهم يصرخون عليه؛ تارةً يصرخون بجُمَلٍ تشجيعية غامضة، وتارة أخرى ينهالون عليه بالسباب غير المفهوم وبأكثر الألفاظ البلهاء شيوعًا في ذلك الوقت. خَفَضَ بصره وأخذ يُحَدِّق بهذا الجَمع الغفير من الكائنات الحية الذي لم يتخيل من قبل وجوده في هذا العالم.

وعندما صار على أعتابِ لندن، بدأ يُخَفِّف من سرعة سيره شيئًا فشيئًا. تجَمهَر البشر الأقزام حوله تجمهُرًا كثيفًا، وازدادت كثافتهم مع كل خطوة يخطوها. وفي النهاية أتى على مكانٍ يلتَحِم فيه طَريقان عظيمان معًا فتَوَقَّف وتَبِعه حَشد الأقزام الذين اقتربوا أكثر فأكثر منه ثم التفُّوا من حوله.

وقف هناك وبين قدَمَيه فُرجَةٌ صغيرة وظهره باتجاه بُنيَانٍ ضخمٍ شاهق الارتفاع. كان ذلك البنيان حانة ضخمة لبيع المشروبات الكحولية؛ كان ارتفاع الحانة ضعف طول صغير آل كادِلز وكانت تعلوه لوحة بارزة. حدَّق في هؤلاء الأقزام أسفل منه وتعجَّب، وحَاوَل، ولا أشكُّ في هذا، أن يُقارنهم ويربط بينهم وبين غيرهم من الأشياء في حياته؛ بالوادي الواقِع بين المُنخَفَضات، وبالعُشَّاق الليليين وبغناء التَّرانيم في الكنيسة، وبالحجَر

الطباشيري الذي يَقطَعه يوميًّا، وبالغريزة والموت والسَّماء. كان يحاول أن يُوَفِّق بين كل تلك الأشياء جميعًا وأن يراها في تناغُمٍ واتِّساق. عَقَد حاجِبيه ضيِّقًا ورفع راحة يده الضَّخمة ليَحُكَّ شعره الأجعَد وهو يتَأوَّه بصوتٍ عالٍ.

قال: «الأمرُ غير مفهوم!»

كانت لهجتُه غريبةً غير مألوفة، فارتفع صوتُ ثرثرة الحَشد؛ ثرثرة وسط أجراس القطارات الكهربائية، التي حاولت أن تشقَّ طريقها بصعوبةٍ بين الحشود، كأزهار الخشخاش المنثور وسط حقول الذُّرة. «ماذا قال؟» «قال: الأمرُ غير مفهوم!» «بَل قال أين البحر؟» «لا، قال إنه يُريد كرسيًّا!» «ألَا يقدر هذا الأبله أن يقعد على سقفِ بيتٍ أو ما شابه؟»

«ما الذي خُلِقتم لأجله أيُّها الأقزام المُحتشدون؟ ماذا تفعلون في حياتكم؟ ما الذي خُلِقتُم لأجله؟

ما الذي تفعلونه هُنا أيُّها الأقزام المحتشدون، بينما أقطِّع لكم الحجر الطباشيري هناك في المَحجَر؟»

أسكتَ صوته النشاز، الذي كان سببًا في حرمانه من الاستمرار في مدرسة تشيزينج آيبرايت، تلك الحشود الضَّخمة وغشيَتْهم حالة من الصمت ما لبثتْ أن صارت ضجيجًا. كان بعض العُقَلاء يصيحون في النَّاس بصوتٍ عالٍ: «صمتًا! صمتًا!» وكان السؤال الذي يشغل عقول النَّاس هو: «ماذا يقول؟» وذهب الكثيرون منهم إلى أنه كان ثمِلًا. كان سائقو الحافلات العامَّة يصيحون في النَّاس: «أفسحوا الطريق!» وهم يشُقُّون طريقهم بحذر. كان هناك بحَّارٌ أمريكي مخمور يتجوَّل بين النَّاس متسائلًا وعيناه دامعتان بفِعل ما أصابه من سُكرٍ: «ما الذي يُريده في النِّهاية؟» وصاح بائع خُردَةٍ — كان وجهه خشنًا وكان يركب عرَبة يجُرُّها فَرَسٌ صغير — بصوته بحيث علا فوق كل ضجيجٍ من حوله وقال: «ارجع إلى بيتك يا عملاق قرية برستِد! عُد إلى بيتك أيُّها الكائن المُرعِب ضخم الجُثَّة! ألا ترى أنَّك تُخِيف الفرَس؟ اذهب لبيتك! ألم يُفَكِّر أحدهم في أن يخبرك بما ينصُّ عليه القانون؟» ورغم كل ذلك الصياح، ظلَّ صغير آل كادِلز يُحَملق مُرتبِكًا مُتَرَقِّبًا ولم ينبس ببنت شفة.

ومن طريقٍ جانبي؛ ظَهَر صَفٌّ من رجال الشُّرطَة الوقورين واخترقوا الحشد بسلاسة، وكانوا يقولون بصوتٍ خفيضٍ: «تنَحَّ جانبًا!» «استمر بالحركة من فَضلك!»

تَنبَّه صغير آل كادِلز إلى جسمٍ صغير ذي لون أزرق داكن وهو ينهال ضربًا على قَصَبة ساقه. نظر للأسفل ليرى يدَين بيضاوين يُشيران إليه، فانحنى بجسده للأمام وقال: «ماذا تريد؟»

صاح مُفتِّش الشُّرطة قائلًا: «لا يُمكنك الوقوف هنا.»

ثمَّ كرَّر ما قاله: «لا! لا يُمكنك الوقوف في هذه المنطقة!»

ردَّ صغير آل كادِلز وقال: «ولكن أين أذهب؟»

قال له مُفتِّش الشُّرطة: «ارجع إلى قريتك! عُد إلى موقع عملك! في جميع الأحوال، لا يمكنك الوقوف هنا. تحرَّك الآن، فأنت تُعَطِّل حركة السير.»

«أيُّ حركة سير؟»

«حركة سير هذا الطَّريق.»

«وإلى أين يقود هذا الطريق؟ ومن أين يأتي؟ وماذا يعني؟ لماذا كل هؤلاء النَّاس حولي؟ ماذا يريدون وماذا يفعلون؟ أريد أن أفهم. أنهِكتُ من قَطع الحجر الطباشيري وسَئمتُ الوحدَة. ماذا يفعل هؤلاء النَّاس لأجلي بينما أقطِّع الحجر الطباشيري لأجلهم؟ أريد أن أفهَم، وسأفهَم الآن وهنا كما في أي مكانٍ آخر.»

«للأسف نحن لسنا هنا لنُفَسِّر مثل تلك الأمور. أنا هنا لآمرك بمغادرة المكان، تَحرَّك رجاءً!»

«ألا تعرف الإجابات؟»

«من فضلك! يجب أن تتحرَّك الآن. كما أنصحك أن تعود إلى المنزل! فلا تُوجَد لدَينا أي تعليماتٍ خاصة بمثل هذا الأمر ولكنَّه مخالفٌ للقانون. أخلوا الطريق هناك! ... أخلوا الطريق!»

أُخلِيَ الرَّصيف عن شماله وصار مُشجِّعًا له ليتحرَّك، فبدأ صغير آل كادِلز يتحرَّك ببطءٍ مُبتعدًا عن الطريق، ولكنَّه انطلق متحدثًا.

همهم قائلًا: «أنا لا أفهم! لا أفهم أي شيء!» كان ينظر إلى الحشود السَّيَّارة في كلا الاتجاهين؛ أمامه وخَلفه، ويُهَمهِم مُستعطِفًا إيَّاهم وهو كسير: «لم أكن أدري أنَّ هناك أماكن مثل هذه على الأرض. ما الذي تفعلونه في حياتكم أيُّها النَّاس. وما الغاية من كل هذا؟ ما هو الهَدف وراء كل هذا؟ وما شأني بكل هذا؟»

وهكذا، أطلق العملاق الصغير عباراتٍ أخذ يتفوَّه بها الشباب الخفيفو الظلِّ في سُخريةٍ: «مَرحبًا يا فُلان الفُلاني. ما الغاية من كل هذا؟ ها؟ ما هو الهدف اللعين وراء كل هذا!»

ومن هنا انفجرت نافورةٌ من الرُّدودِ الألْمَعِيَّة على تِلك الأسئلة وقد كان جُلُّها ردودًا وَقِحةً غير مهذَّبة. وقد كانت أشهرها وأكثرها مُناسبةً للاستعمال العام: «أطبِق فَمَك!» أو بصوتٍ فيه ازدراءٌ: «كفى هذيانًا!»

كانت هناك عباراتٌ أخرى راجت بالقَدْر نفسه تقريبًا.

٣

ما الذي كان يسعى وراءه؟ كان يريد شيئًا لم يُعطِه له عالم الأقزام، أراد غَايَةً منعَه عالمُ الأقزام من بُلوغِها، منعوه حتَّى من رؤيتها بوضوحٍ، ولم يكن ليراها بوضوحٍ مُطلقًا. لقد كان الجانب الاجتماعي العملاق لهذا الوَحشِ الأبله الوحيد هو ما جعله يُنَادِي ويبحث عن أبناء جنسه من العمالقة أمثاله، ويتطلَّع إلى الأشياء التي تُشبهه، وأن يصبو إلى شيءٍ يُحبُّه وشيءٍ يخدمه. كان يبحث عن غايةٍ يفهمها وأوامر يستطيع امتثالها، كان كلُّ ذلك مكبوتًا يغلي في صدره. لم يكن يستطيع أن يبُوح بما في داخله إذا حدث وقَابَل أحد أقرانه العمالقة، كانت حياته حتَّى تلك اللحظة مُنحَصِرة في تِلك القرية الرَّتيبة، كان كلُّ الكلام الذي يتَفَوَّه به مقصورًا على الكلام الذي يقوله ويسمعه في الكوخ، والذي أخفق وتداعى أمام احتياجاته الأساسية كعملاقٍ. كان لا يعرف شيئًا عن النُّقود؛ ذلك الشيء التَّافه ذي القيمة الضَّخمة، ولا يعرف شيئًا عن التِّجارة ولا عن التَّظاهر والتَّباهي اللذَين يُشَكِّلان أساس النَّسيج الاجتماعي لهؤلاء البشر الأقزام. كان محتاجًا؛ وأيًّا كان ما احتاجه فَلَم يجِده أبدًا.

أخذ يتجوَّل طوال ذلك النَّهار وتِلك الليلة الصيفية، بدأ يشعر بالجوع ولكنه لم يكن قد وصل حدَّ الإرهاق بعد. كان يُراقِب حركة السير المتنوعة في الشَّوارع المُختلفة، ويحاول فَهم المصالح المُشتَركة والغامضة لهؤلاء المخلوقات الضَّئيلة. وفي النِّهاية لم يُوصله ذلك إلى نتيجةٍ سوى مزيدٍ من الارتباك …

يُقال إنَّه أخرج سيدةً من عربتها في كنجستون، كانت تَرتَدي ثوب سهرةٍ أنيقًا لينظر إلى عظام كتفها وذيلِ ثوبها فاحِصًا ماحِصًا، ثُمَّ أرجعها مكانها بلا مُبالاة وهو يتَنَهَّد بعمقٍ. لا يمكنني أن أجزم بهذا. ظَلَّ قُرابة السَّاعة وهو يُشَاهِد النَّاس يتشاجرون على أماكن الجلوس في الحافلات العامة في نهاية طريق بيكادِلِّي. رآه بعض النَّاس في الظَّهيرة وهو يَحُوم حول ملعب كننجتون أوفال لبضع لحظاتٍ، وما إن رأى آلافًا من البشر مُنخَرطين في مُجرَيَات مُباراة الكِريكِت غير عابئين بوجوده، أكمل طريقه مُبتعدًا وهو يئن.

عاد إلى شارع بيكادِلِّي سِركِس ليلًا بين السَّاعة الحادية عشرة والثَّانية عشرة ليجد نوعًا آخر من الحُشُود. كانوا مُنكَبِّين على أمورٍ مُنشَغِلين بها وأمورٍ أخرى خَلَّفوها وراء ظهورهم؛ وكلُّ ذلك لأسبابٍ غامضةٍ لم يفهمها. حدَّقوا إليه واستهزَءوا ثُم مضَوا في طريقهم. أمَّا سائقو سيَّارات الأجرة ذوو الأعيُن الحادَّة والثَّاقِبة كعيون نسرٍ، فقد سارت عرباتهم واحدةً تِلوَ الأخرى بجانب حافة رصيف المُشاة المُكتَظِّ بالنَّاس. كان الناس يخرجون من المطاعم أو يَلِجون فيها إمَّا بوقارٍ واتِّزانٍ ورَزَانةٍ، وإمَّا مُتَمَهِّلين تملؤهم السَّعادة، وإمَّا مُنتَبِهين يَقِظِين أكثر ممَّا سيحتاجون إن كانوا يُخطِّطون لخِدَاع أكثر النُّدُل حِرصًا ودهاءً. كان العملاق الضَّخم جالسًا في رُكنِه يَرمُقهم جميعًا. تَمتَم بصوتٍ خافتٍ مُلِئ حُزنًا: «وما الغاية من كل هذا؟ ما الذي يكدحون من أجله؟ ما الشيء المفقود الذي لم أفهمه بعد؟»

بَدَا أنَّه لا أحدَ منهم يستطيع أن يرى، كما يرى هو، تَعَاسة تِلك العاهرات اللاتي ذَهَب الخمر بعُقُولِهن عند الزَّاوية، ذلك الشَّقاء الذي غمر كلَّ شيءٍ حتى صار كلُّ شيء أجوفَ لا قيمة له. لم يكن يشعر أحدٌ بما يحتاج إليه هذا العملاق، مثلما لا يعلمون شيئًا عما ينتظرهم في المستقبل.

على الجانب الآخر من الطريق، عَلَت حروفٌ غامضةٌ تُومِضُ وتخبو، والتي لو كان استطاع قراءتها لكانت أوضَحَت له — رُبما — أبعاد اهتمامات البشر ولكانت أخبرته بشيء عن تصوُّرات هؤلاء الأقزام عن الاحتياجات والمَلامح الأساسية للحياة. في البداية كانت تلك الحروف تُومِض.

الحرف «ت».

ثم يتبعه الحرف «ا».

ثم الحرف «ب».

ثُمَّ الحرف «ر».

لتكتمل الكلمة «تابر».

وهكذا حتَّى تكتمل العبارة بارزةً في الأفق؛ كرسالةٍ تبعَث البَهجَة في وجه كلِّ من أضنَتْه الحياة وكَدُّها:

خمر تابر الفَوَّار لمزيد من القوة والحيوية.

وفي لمح البَصَر، اختفت العبارة مرةً أخرى وراء سِتار الليل، ثم تبعتها عبارة أخرى تكوَّنت بالبُطء نفسه حرفًا بعد حرفٍ لتُخَاطب ثاني أكبر اهتمامات البشر:

صَابون الجَمَال.

ستُلاحظ أنه ليس مُجرَّد خليطٍ من مواد كيمائية تُستخدم في التنظيف، ولكنَّه كما يُسَوِّقون له الصابون «المِثَالي». ثُمَّ تأتي عبارة أخرى ليكتمل ثَالوث تِلك الحياة التَّافهة:

أقراص تانكر الصَّفراء.

انتهت العبارات عند ذلك ثم أخذت حروفها تُومِض مُجدَّدًا بلون قِرْمِزي، ثمَّ تختفي، ثم تُومِض من جديد ثم تختفي، وهكذا.

«د ا ب ر» ...

في ساعاتٍ قلائل، كان صغير آل كادِلز قد ذهب إلى حديقة ريجنت الهادئة والظَّليلة، دَهَسَ السِّياج بقدمه ثم استلقى على مُنحَدرٍ مُعشَوشِبٍ قُرب مكانٍ يتَزَلَّق فيه النَّاس في فصل الشتاء، وهناك غَطَّ في النَّومِ قُرابَة السَّاعة. وفي السَّاعة السَّادسة صباحًا تقريبًا، كان يتحَدَّث إلى امرأةٍ مُتَرَنِّحةٍ وجدها تَغُطُّ في النَّوم في حفرة قُربَ مبستِد هيث، ويسألها عمَّا تَظُنُّه غَاية وجودها في الحياة.

٤

في صباح اليوم الثَّاني، بلغ الجوع بصغير آل كادِلز الذي كان يجول في أرجاء لندن مَبلغه. تَردَّد ماذا يفعل عندما شَمَّ رائحة الخُبز الطَّازَج الزَّكية وهو يُطرح في العَرَبة، ولكن لم يلبث أن خَرَّ على ركبتيه سريعًا كي يسرق الخبز. أفرغ العَرَبة تمامًا بينما فَرَّ الخَبَّاز يستنجد بالشُّرطة. لم يكتفِ بالعَرَبة ومَدَّ يده داخل المَخبَز ليَستَولي على الخبز الموجود على الطاولة وفي الصناديق. اعتدل وقَبضَة يدِه مملوءة بالخُبزِ وفَمه مليء به، وأخذ يبحث عن مخبزٍ آخر ليُكمِل به وجبتَه. كان هذا الوقت هو أحد مواسم السَّنة التي يَشحُّ فيها العمل ويرتفع ثَمَن الطَّعام ويَندُر، لكن سُكَّان ذلك الحي كانوا عطوفين للغاية؛ فقد تعاطفوا مع عملاقٍ سَرَق الطَّعام الذي يشتهيه كلُّ فردٍ منهم. صَفَّقوا له وهو يتناول الجزء الثَّاني من فَطُوره، وضَحِكوا منه وقد لَوَى قَسَماتِ وجهه مُستهزئًا برجل الشُّرطة.

قَال وفَمه مُمتلئ بالطَّعام: «أنا أتَضَوَّر جوعًا!»

صاح الحشد: «أحسنت!» «مَرحَى!»

وعندما هَمَّ باقتحام المخبز الثَّالث، أوقفه مجموعةٌ من رجال الشُّرطة انهالوا بهراواتهم على مُقدِّمة ساقيه. قال له الضَّابط المسئول: «انظُر هنا أيُّها العملاق اللطيف، تعالَ معي! فأنت ليس مسموحًا لك أن تبتعد عن البيت كلَّ هذه المسافة. تعالَ معي إلى البيت!» لقد فعلوا ما بوسعهم للقبض عليه. أخبرَني أحدُهم أنَّه كان هناك قطارٌ كهربيٌّ يقطع الشَّوارع جيئةً وذهابًا في ذلك الوقت وعلى مَتنِه لِفافَات من السلاسل وأحد كابلات السُّفن كي يستخدموها جميعًا كأصفادٍ في عملية الاعتقال الضخمة هذه. لم يكن هناك أي نيةٍ لقتله، فقد قال كاترام: «لا دَخل له بالمؤامرة المَحُوكة ضِدَّنا! لن ألطِّخ يديَّ بدماءٍ بريئة!» ثم أضاف: «حتَّى نستنفد كلَّ الخيارات المُتَاحة أمامنا!»

في البداية، لم يفهم كادِلز الصَّغير سببَ كل ذلك الكلام اللَّيِّن اللطيف، وعندما أدرك الأمر، قال لرجال الشُّرطة ألَّا يكونوا سُذَّجًا وانطلق هاربًا بخطواتٍ واسعةٍ خَلَّفتهم جميعًا وراءه. كانت المَخَابز في شارع هارو، وانطلق هو هاربًا من خلال قناة لندن ليصل إلى شارع سانت جونز وود، وجَلَس في حديقةٍ خاصةٍ ليُنَظِّف أسنانه ولتلحَق به إلى هناك فِرقةٌ أخرى من رجال الشُّرطة على وجه السُّرعة.

صَرَخ فيهم: «اتركوني وحدي!» وأخذ يَترنَّح في أرجاء الحديقة مُفسِدًا عدَّة مروجٍ خضراء وساحقًا تحت قدمَيه سياجًا أو سياجَين، بينما كان رجال الشُّرطة الهائجون يتبعونه؛ البعض من بين الحدائق والبعض الآخر يتبعه على الطَّريق أمام المنازل، وكان هُناك شرطيٌّ أو شرطيَّان يحملان البنادق ولكنهما لم يستخدماها. وعندما وصل إلى طريق إدجوير، كان هناك حركة ونبرة جديدتان وسط الحَشد كما دهست خيول يمتطيها رجال الشرطة على قدمَيه، وقد انزعجوا لأنَّه تَألَّم.

قال كادِلز الصَّغير وهو يُواجه ذلك الحَشد من الناس والشرطة الذين حُبسَت أنفاسهم خلال مطاردتهم له: «اتركوني وشأني! لن أؤذيَكم!» كان في تلك اللحظة أعزلَ دون سلاحٍ، فقد ترك مِعوَله في حديقة ريجنت. أمَّا الآن فيا للمسكين التَّعِس، شَعَر بأنَّه بحاجةٍ إلى سلاحٍ ما. الْتفَّ باتِّجاه سَاحة البَضَائع في محطة جريت وِست للسِّكة الحديد، واقتلع عمود إنارةٍ طويلًا، كان كصولجانٍ ضخمٍ بالنِّسبة إليه وأراحه على كَتِفه. وَجَد

رجال الشُّرطة ما يزالون يُلاحقونه ليُزعِجوه، فعَاد من طريق إدجوير باتِّجاه كريكلوود ثمَّ سار غاضِبًا باتِّجاه الشَّمال.

مَشَى بعيدًا حتَّى وصَل إلى ولثَم ثُمَّ اتَّجه غربًا ثمَّ رجع باتِّجاه لندن مرةً أخرى. ومع انتصاف النَّهار تقريبًا، مَرَّ بالمَقابِر فوق قِمَّة هاي جيت ليرى أُبَّهَة المدينة وعظمتَها مرةً أخرى. انعطف وجَلَس في حديقةٍ وأسنَدَ ظهرَه إلى بيتٍ يَطُلُّ على لندن كلِّها. كان لاهثًا مُكفَهِر الوجه، ولكن لم يحتَشِد النَّاس حوله كما فعلوا أول مرةٍ ذهب فيها إلى لندن، بل تسَلَّلوا عبر الحدائق المُجاورة يسترقون النَّظر بحذرٍ وقد فَطِنوا إلى أنَّه مُتَجَهِّمٌ الآن أكثر ممَّا ظَنُّوا. صرَّح صغير آل كادِلز مُتذمِّرًا: «لماذا لا يتركوني وشأني! أنا يجِب أن آكُل. لِمَ لا يترُكني النَّاس وحدي؟»

جلس والكآبة تملأ وجهه يَعَضُّ على مَفاصِل أصابعه ويُحدِّق في الأفق حيث لندن. أحسَّ أنَّه وصل إلى ذُروَة التَّعَبِ والقلقِ والارتباكِ والعَجزِ عن التَّنفيسِ عن غضبه خلال تَجوُّلِه. هَمَس وقال: «هُم لا يقصدون شيئًا! لا يقصدون شيئًا ولن يذَرُوني وشأني وسيعترِضون طريقي!» ثُمَّ أخذ يُحدِّث نفسه ويُردِّد مرارًا وتكرَارًا: «هم لا يقصدون شيئًا!»

«أُفٍّ لهؤلاء البشر الأقزام!»

عضَّ بنواجِذِه على مفاصل أصابعه وقَطَّب جبينَه وحاجبَيه وقال مُحدِّثًا نفسه: «أقطِّع لهم الطبشُور، ومع ذلك فالعَالَم كله مِلكٌ لهم! لا مكانَ لي فيه. لا مكان!»

وما إنْ رأى رجال الشُّرطة الذين أَلِفَ مظهرهم يتسلَّقون أسوار الحديقة، حتَّى انتابتْه نَوبَةُ غضَب عَارمٍ وقال بصوتٍ يُشبه النَّخير:

«اتركوني وشأني! اتركوني وشأني!»

قال رجل الشُّرطة الضئيل بوجهِه الأبيض الحازِم: «أنا هُنا لأؤدِّي واجِبي!»

«اتركوني وشأني! فأنا أُريد أن أعيش كما تعيشون! وأُفكِّر كما تفكِّرون! وآكل كما تأكلون. اتركوني وشأني!»

قال رجل الشُّرطة الضئيل: «إنَّه القانون! لسنا نحن من يضَع القوانين!»

ردَّ عليه كادِلز الصَّغير: «ولا أنا! أنتم أيُّها البشَر الأقزام من وضَع كل تِلك القوانين قبل أن أولد. أنتم وقوانينكم حدَّدتم ما المَفروض وما المحظور! لا طعامَ لي إلا إذا عَمِلت كعبدٍ، لا راحة ولا مأوى ... لا شيء! والآن أخبرني ...»

قال رجل الشُّرطة: «لا دَخلَ لي بكل هذا، فأنا لستُ الشَّخص المُناسِب لتُجادِله. عَمَلي هو تَطبيق القانون وحسب.» ثمَّ بدا وكأنه يستعد للنُّزول داخل الحديقة، وظهر من خلفه رجال شرطةٍ آخرون.

قال العملاق: «لا أريد العِراك معكم! احذروني!» وقد قَبضَ بيده على صَولَجَانه الحديدي الضَّخم وشَحبَ وجهه وأشار بإصبعٍ ضخمٍ وباهتٍ إلى رجل الشُّرطة محذِّرًا: «أنا لا أريد الشِّجار معكم! لذا، اتركوني وشأني!»

حاول الشُّرطي أن يبدو هادئًا وطبيعيًّا وهو يَرى بعينَيه مأساةً رهيبةً على وشْك الحدوث، قال لأحد زملائه المُتَوارين: «أعطني البَيَان!» فسلَّمه ورقة بيضاء صغيرة.

قال صغير آل كادِلز وقد تجهَّم وبَدا عليه التَّوتُّر والانزعاج الشديد: «اتركوني وحيدًا!!»

قال رجل الشُّرطة قبل أن يقرأ البَيَان: «هذا يعني أن تذهب إلى بيتك! اذهبْ إلى المحجَر الطباشيري وإن لم تفعل فسوف تُعاقَب.»

تَمتَم صغير آل كادِلز بكلامٍ غير مفهوم.

بعد أن قُرِئ البَيَان، أشار الضَّابط بيدَيه، فظَهَر أربعة رجالٍ يحملون البنادق الآلية وتَمركزوا على طول الجدار في مَواضِع مناسبة. كانوا يرتدون زِيَّ شرطة الفئران. وبرؤية البنادق، ثَارت ثَائِرة صغير آل كادِلز وانفجر غضبًا وتَذكَّر لسعات بنادق صيد المُزَارعين في رِكستُون وقال لهم: «هل ستُطلِقون الرَّصاص عليَّ من تلك البنادق؟» وأشار إليها، وقَد انتاب الضَّابط خوفٌ من كلامه ذاك.

«إن لم تعُد أدراجك إلى مَحجَرك.»

وفي لَمح البصر، ألقى الضَّابط بنفسه خلف الحائط ومن فوقِه بِستِّين قدمًا كان عمود الإنارة يُطوَّح به في الهواء فأصاب ذلك الضابط فلقي حَتفَه! انطلقَتِ الرَّصاصات من البنادق! طاخ! طاخ! طاخ! وتحطَّم الجدار وطارت في الهواء أجزاؤه والتُّربة التي تحته وما تحت التُّربة. شيءٌ ما طار معها في الهواء خلَّف قَطَراتٍ حمراء على يد أحد الرُّماة الذين رَاوَغوا هنا وهناك حتَّى استقرُّوا في مكانٍ وشَرعوا يطلقون الرَّصاص مُجدَّدًا. وقتها كان صغير آل كادلز قد أصيب بطَلَقتي رصاصٍ في جسده، والْتفَّ ليرى مَن الذي أصابَه في ظهره تلك الإصابة البَالِغة. طاخ! طاخ! كانت هناك بيوتٌ ودَفِيئاتٌ في مجال رؤيته، وأناسٌ يُراقبون في حذرٍ عند نَوافذ تلك البيوت. انتاب الجَميعَ حالةٌ من الرعب والفَزع.

تَرنَّح صغير آل كادِلز وخَطَا ثلاث خطواتٍ أفقدته توازنه، رَفَع صولجانه الضخم وأسقطه ثُمَّ أطبَق بيدِه على صَدره؛ فقد أصابته رَصَاصة وبدأ يتَلَوَّى ألَمًا.

«ما هذا الشيء الدافئ والرطب الذي يَسِيل على يَدِه؟!»

هكذا علَّق أحد الرِّجال الذي كان يراقب ما يحدُث من نافذة غرفة نومه؛ رأى وجهه وقد علاه الفزع ودمعَت عيناه عندما رأى الدَّم يَسِيل على يده. لم تقوَ قدَماه على حَملِهِ فخَرَّ على ركبتَيه وارتَطَم بالأرض جُثَّة هامدةً. أولُ عملاقٍ من شجرة العمالقة يَسقط في قَبضَة كاترام الحَازِمة. ذلك العملاق كان آخر من يظنُّ كاترام أن يبطش به.

الفصل الرابع

يومان مرَّا على ريدوود

١

عندما أدرك كاترام أنَّ لحظة اقتلاع الشجرة العملاقة قد حَانَت، طَوَّع القانون بما يخدُم أغراضه وأرسل أمرًا بالقبض على ريدوود وكُوسَار.

كان ريدوود هناك في منزله فريسةً سهلة؛ فقد كانت تُجرى له عملية جراحية في أحد جنبَيه، وقد مَنع عنه الأطباء كل الأخبار المُزعجة حتَّى يتماثل للشفاء. في ذلك الوقت، كانوا قد أذِنوا له بالخروج. كان قد نَهَض لتَوِّه من فِراشِه وجَلَس في غُرفةٍ أدفأتها مدفأة كما أحاطت به كَومة صُحُفٍ. كان يقرأ للمَرَّة الأولى عن الاضطِرابَات التي حدثت وجَرَفت البلاد لتقَع في قبضة كاترام، والمشكلات التي عَصَفَت بابنه والأميرة. كان ذلك في صبيحة اليوم الذي قُتِل فيه صغيرُ آل كادِلز، والذي حاول فيه رجال الشُّرطة أيضًا مَنع ريدوود الابن من الذَّهاب لمُلاقَاة الأميرة؛ لذلك كانت الصُّحف التي بحَوزة ريدوود تُشِير على استحياءٍ وبغموضٍ إلى تِلك الأحداث الوشيكة. كان يقرأ مُجددًا تلك الإشارات المَبدئيَّة بقَلبٍ مَفجوعٍ، يقرأ ليتبَيَّن له أنَّ شَبح الموت كان يقترِب أكثر فأكثر. كان يقرأ ليَشغل عقله حتَّى تأتيه أخبارٌ جديدة؛ لذلك عندما رأى رجال الشُّرطة يتبعون الخادم إلى غرفته، نَظر إليهم بلَهفةٍ وحَمَاس.

قال: «كنتُ أظنُّ أنك أتيتَ لي بصحيفة مسائية مبُكرة.» ثم هبَّ واقفًا ليقول وقد تغيَّر حاله فجأة: «ما هذا؟»

بعد ذلك، لم يُحِط ريدوود علمًا بأي أخبار طيلة يومَين.

كانوا قد جاءوا بعَرَبةٍ لاعتقاله، ولكن عندما تَبَيَّن لهم أنَّه مَريض قرَّروا أن يتركوه ليومٍ أو يومَين حتَّى يتأتى لهم نقله إلى السجن بأمان. استولى رجال الشُّرطة على البيت

وحَوَّلُوه لسجنٍ مؤقَّت. هذا البيت هو نفسه المكان الذي وُلِد فيه ريدوود العملاق، والذي أُعطيت فيه للمرة الأولى مادة هرقليوفوربيا لكائن بشري، والذي عاش فيه ريدوود أرملَ وحيدًا لثماني سنوات بعد أن ماتت زوجتُه.

كان شعره قد اكتسى باللون الرمادي وصارت لحيتُه المُدبَّبة نوعًا ما رمادية اللون في حين احتفظت عيناه البُنِّيتان بحيويتهما. كان ما يزال، كما اعتاد أن يكون، نحيل الجَسَد ذا صوتٍ هادئ ولكنَّ سِمَاتِه قد اكتَسَت بتلك الصِّبغَة المُبهَمة التي اكتسبها من كثرة التفكُّر في الأشياء العملاقة. كان مَظهَر ريدوود في نَظَر الضَّابِط المُوكَّل بأمر الاعتقال، يتناقض تمامًا مع جسامة ما اقترفه من مُخالفات. قال الضَّابط المسئول للشُّرطي الذي بجانبه: «انظر إلى صَدِيقنا هذا! لم يترك شيئًا يُفسِد به حياتنا ويُخَرِّبها إلا وفعله، ومع ذلك، إذا نَظَرت إليه تَرى وجهه هادئًا وَدِيعًا كنَبِيلٍ من النُّبَلاء. وها هو القاضي هَنجبرُو الذي يسعى جاهدًا لجعل الأمور تجري في نِصَابها الصحيح بالنسبة إلى الجميع، وإذا نَظَرتَ إلى رأسه وجدتَه أشبهَ برأس كلبٍ. ثمَّ قارن بين أخلاق هذا وذاك! هذا الرجل في غاية الهدوء والوداعة بينما نجد القاضي مُزمجرًا مُتذمرًا. ألا يُعَلِّمُنا ذلك أنَّ المَظَاهر لا يُمكن أن تُتَّخذ أساسًا للحكم مهما كانت؟»

ولكن ما لَبِث أن أحبَطَ ثَنَاءه على أخلاق ريدوود؛ فقد وجده الضباط مُزعجًا ومُثيرًا للمتاعب في البداية إلى أن وَضَعوا حدًّا للأمر وأوضحوا له أنَّه لا طَائِل من طرحه للأسئلة أو استجداءاته من أجل الحصول على الصحفِ كي يَطَّلع على الأخبار. في الواقع، فتشوا مكتبه بل وأخذوا الصُّحف القديمة التي لدَيه. كان صوت ريدوود عاليًا عندما صاح مُعترضًا مرارًا ومُكرِّرًا: «ألا تستوعبون الأمر؟ ذَاك وَلَدي! ذَاك وَلَدي الوحيد. إنه في وَرطَة. لا يُهِمُّني طعام الآلهة في شيء، لا يُهِمُّني سوى ولدي!»

قال الضَّابط: «وددتُ لو أستطيع إخبارك يا سيدي، ولكن لدَينا أوامر صَارِمة.»

صاح ريدوود: «مَن الذي أعطى تِلك الأوامر؟»

ردَّ الضَّابط: «أها! إنَّه السير ...» ومَشَى باتِّجاه الباب مغادِرًا.

قال الضَّابط الثَّاني للضابط الذي يعلوه رتبةً بعدما نَزَل: «الرجل يَذرَع غرفته جيئةً وذهابًا! ولكن لا بأس، لنَدَعه يَتَرَيَّض قليلًا وسَيَهدأ!»

قال الضَّابط المسئول: «أرجو حقًّا أن يهدأ! الحَقُّ يُقال، أنا لم أفكِّر بالأمر من هذا المنظور من قبل، ولكن هذا العملاق في مدينتنا، ذلك الذي كان بصُحبَة الأميرة دَومًا، هو ابن هذا الرَّجل!»

سَكت الاثنان لحظاتٍ يُفَكِّرَان ويَنظُرَان إلى بعضهما وإلى الشُّرطِي ثالثهما.

قال الشرطي الثالث: «لذلك نَرَى وَقْعَ الأمر شديدًا عليه؟»

صَار واضحًا أنَّ ريدوود لم يَستَوعِب تمامًا حقيقة أنَّه مَعزولٌ عن العالم الخارجي بستارٍ فولاذي استيعابًا كاملًا. سَمِعوا صوت ذهَابِه إلى باب الغرفة يُمسِك بمِقبَضه ويَهُزُّ القُفلَ محاولًا أن يفتحه، ثمَّ صوت الضابط المُتَمركِز على السُّلَّم وهو يُخبره أن لا جَدوى من فِعلِه هذا. ثُمَّ بَعد ذلك سمعوه وهو في نَافِذة الغرفة وقد رأى رجال الشُّرطة في الخارج ينظرون إليه. قال له الضَّابطُ الثَّاني: «لن تُجدِي تلك الطريقة نفعًا!» لم يَجد ريدوود أمامه إلا الجَرَس فأخذ يقرَعه، فصَعد إليه الضَّابط المسئول وأوضحَ له بهدوءٍ أعصابٍ أنَّ قَرْع الجَرَس هكذا لن يُقَدِّم ولن يُؤخِّر. وإذا استمَرَّ في قَرعِه عَبَثًا فربَّما سيتَجاهلونه وقتما يَقرعُه وهو في أمَسِّ الحاجة إلى شيءٍ. قال الضَّابط: «أرجو أن تَقرَعه في حدود المعقول يا سيدي. ولكن إذا ما استمرَّ قَرعُكَ له كوسيلةِ احتجاجٍ فسنُضطرُّ إلى عدَم الاستجابة أو فصل الجرس تمامًا.»

كانت آخر جملةٍ سمعها الضَّابط هي ما قاله ريدوود بحنقٍ شديدٍ وصوتٍ مرتفع: «على الأقل أخبِرْني إذا ما كان وَلَدي ...»

٢

قَضَى ريدوود بعد ذلك جُلَّ وقته يتطَلَّع من النَّوافِذ.

ولكن النَّوافِذ لم تُتِح له اطِّلاعًا واسعًا على مُجرَيات الأحداث في الخارج. كان الشَّارع هادئًا على الدَّوام، وفي ذلك اليوم كان على غير العادة أكثر هدوءًا؛ طوال الصَّباح، لا يَكادُ يَذكر أن سيارة أجرةٍ قد مرَّت أو عَرَبة لبيع البَضَائع. بين الفينة والأخرى، يمرُّ رجلٌ أو رجلان مرورًا رتيبًا دون أن يبدو أي شيءٍ مُثيرٍ على وجوهِهم، بين الحين والآخر، تَمرُّ مجموعة صِغارٍ أو مُربِّية أطفالٍ أو امرأة ذاهبة للسُّوق وهَلمَّ جرًّا. كانوا يظهرون جِهَة اليمين أو الشمال، ذاهبين أو عائدين، كلُّهم تَعلو وجوههم حالة من اللامبالاة بأيِّ شأنٍ عدا شئون حياتهم الخاصَّة. كانوا يتعجَّبون عند رؤيتهم للمنزل الذي تملؤه الشُّرطة وتُحَاصِره ويخرجون في الاتجاه المُعاكِس حيث حزَمٌ كثيفةٌ من شُجيرات الهِدرَنجِيَّة العملاقة على طول المَمشى، ويُشِيرون بأصابِعهم ويُحدِّقون. ومن وقتٍ لآخر، يأتي رجلٌ ويسأل رجال الشُّرطة سؤالًا ليَلقَى جوابًا فَظًّا ...

أمَّا المنازل المُقابلة فقد بَدت مهجورة، إلا مرَّة أطلَّت فيها مُربِّية أطفالٍ من نافذة غرفة نومٍ وحدَّقت للحظاتٍ، فأخذ ريدوود يُشير إليها بِيَدَيه ليلفِت انتباهها. شاهدت إشاراته باهتمامٍ لُدَّةٍ ثمَّ ردَّت عليها بإشارةٍ غامضةٍ والتفَتَت لتنظُر وراءَها ثمَّ انتابها شيءٌ من القلق فالتفتت وراءَها واختفت فجأة. خَرجَ رجلٌ عجوزٌ من المنزل رقم ٣٧ ونَزَل الدَّرَج ثُم اتجه يمينًا دون أن ينظر للأعلى. لُدَّة عشر دقائق بأكملها، لم يكن هناك أي كائن حي في الشارع سوى هِرٍّ.

وهكذا، طالَ هذا الصباحُ الكئيب الذي لم تظهر له نهاية في الأفق.

وفي السَّاعة الثَّانية عشرة تقريبًا، سُمِعَ صوتُ بائعي الجَرائد من شارعٍ قريبٍ ولكنَّه تلاشى بعد ذلك. لقد تَركوا شارع ريدوود على غير عادتهم، فسَرَى الشَّكُّ في نفسه أنَّ الشُّرطة تُحاصِر نهاية الشَّارع أيضًا. حاول أن يفتَح إحدى النَّوافذ، ولكن فِعلته تلك جَلبَت رجل شرطةٍ إلى الغرفة على الفور.

دقَّت ساعة كنيسة الأبرَشِيَّة تمام الثَّانية عشرة، ومَرَّ الوقت كأنه دهرٌ قبل أن تَدُقَّ مرة أخرى تمام الواحدة.

قدَّموا له طعام الغداء.

أكل لُقمَةً أو لُقمَتَين ثُم أبعد الطَّعام عنه ليُؤخذ بعيدًا، شَرِب حتَّى ارتَوى من الويسكي، ثم أخذ كرسيًّا وعاد إلى مكانه بجانب النَّافذة. كان الوَقتُ يَمُرُّ بطيئًا كأنَّه سَرمَدي؛ ربَّما دَفَعه ذلك للغَطِّ في النَّوم حِينًا.

استيقَظَ من النَّوم وهو يَشعُر بهَزَّاتٍ أرضِيَّةٍ بعيدة وغريبة، رأى النَّوافذ تهتَزُّ وتَرتَعِش كأنَّها هزَّة أرضية استمرَّت لدقيقةٍ أو أقل ثمَّ خَمَدت. ثمَّ عادت مرةً أخرى بعد لحظاتٍ من الصَّمت ... ثمَّ خَمَدت مُجدَّدًا. ظَنَّ أنَّها ربما كانت مجرَّد عَرَبة ثقيلة تعبر الطَّريق الرئيسي. فماذا عَسَاها تكون غير ذلك؟!

بعد مدَّةٍ، بدأ يَشكُّ ما إذا كان قَد أحسَّ حقًّا وسَمِع صوت تلك الهزَّة الأرضية.

أخذ يُفَكِّر بينه وبين نفسه بلا توقُّف. فبرغم كلِّ شيء، لماذا احتجزوه؟ ظَلَّ كاترام في مكتبه يومَين كاملين؛ مدَّةٌ كافيةٌ ليقتلع الشَّجَرة من جذورها! بَل ليجتَثَّ شجرة العَمَالِقة تِلك اجتِثاثًا! ولكن ما انفَكَّت تِلك الأسئلة تَدور في رأسه، بعد أن طُرِحت أول مرةٍ ودَوَّى صوتُها في عَقلِه مرارًا وتكرارًا.

فبرغم كل شيء، ما أقصى ما يستطيع كاترام فعله؟ إنه رجلٌ مُتدَيِّن. كان قد عَهِد إلى نفسه ألَّا يَركَن إلى العُنف بلا داعٍ.

ليقتَلِع تلك الشَّجَرة من جذورها إذن! على سبيل المثال، ربَّما يحتَجِز الأميرة ويُرسلها خارج البلاد. يُحتَمَل أن يُثِير ابنه بعض المتاعب، وفي هذه الحالة ... ولكن لماذا اعتُقِلَ كل تِلك المدَّة؟ لماذا كان ضَرُوريًّا إخفاء أخبار أمرٍ كهذا عنه؟ أثار هذا التَّسَاؤل في نفسه رِيبةً أنَّ الأمر أعظم مما يبدو.

ربَّما أرادوا أن يعتَقِلوا العَمالقة جميعًا ويُدخِلوهم السِّجن معًا مثلًا! كانت هناك إشاراتٌ لذلك في خُطَبِ الانتخابات الدِّعائية. ثمَّ ماذا بَعد؟

لا شكَّ أنَّهم احتجزوا كُوسَار هو الآخر؟

تَشَبَّث عقلُ ريدوود بفَرضيَّة أنَّ كاترام رجلٌ مُتَدَيِّن. كان عقله البَاطِن مُمَثَّلًا في سِتَارٍ أسود مكتوبةٌ عليه كلمةٌ تُومِضُ وتختَفِي؛ كلمةٌ خُطَّت حروفُها بالنَّار. كان يتجَاهَل الكلمة ويُجَاهِد ألَّا يَرَاها مُجَاهدةً أبَدِيةً. كانت تبدو كأنَّها تُكتَبُ على السِّتَار ولكن لا تَكتَمِل حروفها أبدًا.

في نِهاية المَطاف، وَاجَه الكلمة التي خُطَّت كاملةً بكل ما تحمِله من وَحشِيَّة؛ «مَجزَرَة!»

لا! لا! لا! هذا مُستحيل! كاترام رجلٌ مُتَدَيِّن ومُتَحَضِّر. وعِلاوةً على ذلك، ليس بعد كلِّ تلك السِّنين وكلِّ تلك الآمال!

انتَفَض ريدوود واقِفًا وأخذ يَذرَع الغرفة هائمًا يُفَكِّر. أخَذ يُحدِّث نفسه ويصيح. «لا يُمكن!»

مهما عَلا جنون البَشَر فلا يُمكن أن يصِل قَطعًا إلى هذا الحَدِّ! هذا مُستحيلٌ لا يُصدَّق ولا يُمكِن أن يكون! ما الخَيرُ الذي سَيجلبه قَتلُ البَشَر العمالقة وقد استَحَالَ كُلُّ شيءٍ كان يومًا ضئيلًا عِملاقًا بلا رَجعةٍ؟ لا يُعقَل أن يكونوا قد بلغَ بهم الجنونُ هذا المَبلغ؟ صَاح قائلًا: «يجب أن أصرف تفكيري عن تلك الفِكرة! أصرِفه عن تِلك الفكرة، كليًّا!»

تَوقَّف لحظاتٍ وقال: «ما هذا الذي حدث؟»

لقد اهتَزَّت النوافِذ وارتَجَّت بالتَّأكيد. تحرَّك ليُلقِي نظرةً خارجًا على الشَّارع، وفي المنازل المُقابلةِ له رأى ما أكَّد له ما سَمِعه من ارتجاجٍ؛ كانت هناك امرأة في غرفة نومٍ بالمنزل رقم ٣٥، وبيدها مِنشَفَة؛ ورجلٌ آخر هناك في غرفة الطَّعام بالمنزل رقم ٣٧ كان بَادِيًا من خلفِ مِزهَريَّةٍ ينبَثِقُ منها نبات كُزبَرة البئر المُتضخم. كان المرأة والرَّجل كلاهما

يُحدِّقان خارجًا من النَّافذة وينظُران للأعلى وقد غشَّى وجهيهما ارتباكٌ وفضول. أدركَ بعدَها وبوضوحٍ أنَّ رجال الشُّرطة على المَمشَى قد سمِعوا هذا الصَّوت أيضًا. إذن لم يكن هذا الصَّوتُ من صَنِيع خَياله.

وَلَّى وَجهَه لدَاخِل الغُرفَة المُظلمة.

قال: «إنه صوتُ البنادق!»

ثمَّ أطلقَ عِنانَ فِكرِه وأنعَمَ التَّفكير في الأمر.

«صوتُ البنادق؟»

أحضَروا له في الغرفة كوبًا من الشَّاي الثَّقيل كالذي اعتاد احتساءَه. لاحظ حينها أنَّ مُدبِّرة منزله قد اقتيدت للاستجواب. بعد أن شَرِب الشَّاي، كان مُتوتِّرًا ليجلِس مرةً أخرى بجانب النَّافِذة، فأخذ يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا. أصبَح عقله الآن قادرًا على التَّفكِير المتسلسل.

كانت تلك الغُرفة هي مكتبه لأربعٍ وعشرين سنة. أُثِّثَت عند زواجِه وكلُّ ما فيها من تجهيزاتٍ أساسية يعُود تَاريخُ وجُوده لذلك اليوم؛ ذلك المكتبُ الكبير والمُعَقَّد، وهذا الكرسيُّ الدَّوار، وتِلك المَكتَبةُ المُثَبَّتة التي تملأ فجوة الجِدار. السَّجَّادةُ التُّركيَّة الزَّاهِية، والسَّتائرُ والبُسُط من العصر الفيكتوري المُتأخِّر أصبَحت عَتيقةً بما يكفي لإشعارك بالهَيبَة والجَلال، كما أخذت الأواني النحَاسيَّة بجانب نيران المدفأة تَلمَعُ في تَوهُّجٍ. حلَّت المصابيحُ الكهربائية المصابيحَ القديمة؛ وكانت تِلك هي أكبر التَّغييرات التي طرأت على أثاث الغرفة الأصلي. وبين كلِّ تلك الأشياء، تَركَت صِلَته بطعام الآلهة آثارًا جَمَّة عليها. فعلى أحد الجُدرانِ، وتحديدًا فوق القِسم السُّفلِي منه، تَرى الكثير من الصُّور الفوتوغرافية ذات الإطار الأسود والصور المطبوعة بالنقش الغائر، تُظهِر ابنه وأبناءَ كُوسَار وآخرين من الأطفال العمالقة في مختلف الأعمار وفي بيئاتٍ مُتعدِّدة. حتَّى صغير آل كادِلز وَوَجهُه الذي خلا من أي ملامح، كان له صورةٌ مُعلَّقةٌ وسط تلك المجموعة. في زاوية الغرفة، كانت هناك حُزمةٌ من عُشبٍ عملاقٍ لأحد مُرُوج تشيزينج آيبرايت، وعلى سطح المكتب تستلقي ثلاثة رءوسٍ ضخمةٍ لزهرة الخَشخاش حجم الواحدة منها كحجم قَلنسُوَة. كانت قُضبَان تعليق السَّتائر من جذوع العُشب، وكانت هناك جُمجُمةٌ ضَخمةٌ لخِنزيرٍ مدينة أُوكَم العملاق مَوضُوعة على رفٍّ بَهِيٍّ من العاج فوق الموقد، وقد ثُبِّتت جَرَّتَان صِينِيَّتَان في مَحجِرَي العينين، وتدلى أنفه فوق نِيران المِدفأة.

ذهبَ ريدوود إلى الصُّوَرِ المُعلَّقة على الحائط، وإلى صُورِ ابنه تحديدًا.

أعادت تِلك الصور الفوتوغرافية إلى ذاكرته ذكرياتٍ لا تُحصى لأشياء كان قد نسِيَها؛ ذكرياتٍ تتعلق بالطعام المُكبِّر في أيامه الأولى. ذكَّرته ببانزنجتن وابنة عمِّه جين، كما ذكَّرته بكُوسَار وبالعمل الليلي في مزرعة التَّجَارب. غَمَرته تِلك الذِّكريات بجَلاءٍ ووضوحٍ شيئًا فشيئًا، كأنَّه يراها من تلسكوبٍ في يومٍ مُشمِس. ثمَّ تَذكَّر حَضَانة الأطفال العَمَالِقة وفترة الطفولة العملاقة؛ تَذكَّر محاولات العملاق الصَّغِير الأولى للتَّكَلُّم، وأول إشاراتِه الواضِحة والمُعبِّرة عن مَشاعِره.

«بنادق؟»

غَمَرته تِلك الفِكرَة وتَدفَّقَت تدَفُّقًا لا يُقَاوم؛ فكرة أنَّ هناك بالخَارج وراء هذا الصَّمت المَشئوم والغُمُوض اللعين، يقِف ابنه وأبناء كُوسَار وجميع العَمَالِقة العُظَماء من بَاكُورة تَجارب طعام الآلهة؛ يقفون جميعًا في خِضَمِّ حربٍ ما. يُحَاربون من أجل بقائهم. حتَّى تصوَّر أنَّ ابنه ربَّما يكون في ورطةٍ صعبةٍ مُحاصَرًا في زاويةٍ ما، مَقهورًا وقد أثخَنه الأعداء بالجِراح.

ابتَعَدَ عن الصُّوَر التي على الحائط وأخذ يَجُول في الغرفة وهو يُشِير بيديه كأنَّه يوضِّح شيئًا ما ثم أخذ يصيح قائلًا: «لا يُمكِن أن يحدُث هذا! لا يُمكِن؛ لا يُمكِن أن ينتهي الأمر هكذا!»

«ما الذي حدث للتو؟»

توقَّف والرُّعب يملأ أوصَاله التي تَخَشَّبت.

اهتَزَّت النَّوافذ مُجدَّدًا ثم حدثت هزَّة قوية ارتجَّ لها البيتُ بأكمله. امتَدَّت الهزةُ هذه المَرَّة مدةً بَدت كأنَّها دهرٌ من الزَّمن؛ لا بُدَّ أنَّها كانت قريبة من المَنزل. لِوَهلَةٍ بَدَا أنَّ شيئًا ما قد ارتَطَم بسَقف المنزل ارتِطَامًا قويًّا انكَسَر الزُّجَاج مُتَنَاثِرًا في إثرِه. تَلَت الارتِطَام لحظَاتٌ من السُّكُون، ما لَبِثَت أن بَدَّدَتها أصواتٌ خافتةٌ لأقدامٍ تُهَرول في الشَّارع بالأسفل.

حرَّكَته أصواتُ تلك الأقدام من تَيَبُّسِه واتَّجه إلى النَّافذة فرأى بقايا حطام زُجاجها.

تَزايدَتْ خَفَقاتُ قلبه وأحَسَّ أنَّ مُصِيبةً قد حَلَّت؛ أحَسَّ بأنَّ شُكُوكَه قد صَدَقَت؛ أحَسَّ بالارتياح. ومَرَّة أخرى، هبط عليه كَستارٍ تَدَلَّى من عَلٍ إحساسٌ بأنَّه مُحاصرٌ وعَاجِزٌ.

نَظَر خارجًا فلم يَرَ شيئًا إلا عمود الإنارة على الجِهة المقابلة وكان مُنطفئًا، ولم تَلتَقِط أُذناه أيَّ صوتٍ بعد أوَّلِ إنذار بأنَّ كارثةً ستقَع. ولكن لا شيءَ جديدًا يُسَاعده على تحليل

هذا اللغز وتفسيره إلا بَريق أحمر بَدَا مُتَذبذِبًا في السَّماء في ذلك الوقت باتِّجاه الجنوب الشَّرقي.

كان الضَّوء يُومِض وينطَفئ، وكان إذا انطَفَأ يَشكُّ أنَّه قد وَمَضَ قط. أسَرَه ذلك الوَميضُ شيئًا فشيئًا وغَشَّاه كما غشَّته الظلمة، ليُصبِح الحقيقة المُهَيمِنة على لَيلِه الطَّويل الذي مُلِئ قَلَقًا. أحيانًا كان يَظُنُّ أنَّ رَعشَةً كرَعشة الجَسد بالقُربِ من ألسنة اللَّهَب تَنتابه، ثمَّ يعود فيَظُنُّ في أحيانٍ أخرى أنَّ ما ينتَابه ليس إلا تأثير هذا الوَميض الليلي. مَرَّت سَاعاتُ الليل الطِّوال، وما فَتِئ الضَّوءُ يُومِض وينطَفِئ حتَّى اختَفَى في النِّهاية عندما بَزَغ الفجر وغَمَرتْه أشعَّة الشَّمس المُشرِقة. هل كان هذا يعنِي أنَّ ...؟ ما الذي يُمكِن أن يَعنِيَه؟ كان ذلك الضَّوء نارًا على الأرجحِ، وسواءٌ قَرُبَتْ أم بَعُدَت، لم يكن ريدوود قادرًا على أن يَجزِم ما الذي هناك، أهو دُخَانٌ أم هي سُحب تسير في السماء. وبحلول السَّاعة الواحدة ظَهَرت أضواء الكَشَّافَات الوامِضة حول ذلك الضَّوء الأحمر واستمرَّت هكذا الليل بطُولِه. هذا أيضًا قد يُفَسَّر بالكثير؟ ما الذي قد يعنيه؟ وماذا كان بالضَّبط؟ كان كلُّ ما لديه ليُفَكِّر فيه هي صَفحة السَّماء المُضطَّربة والمُصطَبِغة باللون الأحمر، وفَرضِيَّة أنَّ ذلك لم يكن سوى انفجارٍ ضخمٍ. حَلَّ الصَّمتُ فلم تكن هناك أصواتٌ تُسمَع وهدأت الشَّوارع فلم تكن هناك أقدامٌ تُهرول، لا شيءَ سوى صوت صِياحٍ ربَّما كان آخر ما تبقَّى من طَاقةٍ في جَسَد رجالٍ مَخمورين.

لم يُضِئ مَصابِيحه، بل وَقَف على أطلال نافذته المُحطَّمة رأى هيئةً كئيبةً تَميل إلى السَّواد لأحد رِجال الشُّرطَة الذي كان ينظُر من آنٍ لآخر في غرفته وينَصَحه بأن يَخلُد إلى النوم.

ظَلَّ ريدوود طوال الليل مُحدِّقًا من النَّافِذة في أُفُق السَّماء حتَّى بَزَغ الفَجر، فأطَاع جَسَده المُجهَد واستَلقَى على الفراش الصَّغير الذي أعدُّوه له بين طاولة الكتابة خاصَّته ونِيران المِدفأة المُكبِّة وتحت جُمجُمة الخِنزير العملاق.

٣

لثَلاثٍ وستِّين ساعةً مَرَرنَ كأنَّهن دهرًا، ظلَّ ريدوود مَحبُوسًا ومَعزُولًا عمَّا كان يجري حوله من أحداثٍ عظيمة خلال اليومين الفائتَين اللذين قَاتَل فيهما البَشَرُ الأقزامُ أطفالَ طعام الآلهة في الفجر العظيم. ثمَّ ودون سَابِق إنذارٍ، أزِيل الستار الفولاذي ليَجِد نفسه

في قلب الأحداث؛ اختفت أسوار سِجنه فجأةً تمامًا كما بُنِيت حَولَه. في وقتِ العَصر، أثارت أصوات سيَّارة أجرةٍ وقَفَت أمام منزله فُضُوله لينظُر من النَّافذة. رأى شَابًّا يَترجَّل منها وفي غُضُون دقيقةٍ وَجَده يقِف أمامه في الغرفة؛ كان شابًّا نحيلًا في الثلاثين من عمره تقريبًا، حَلِيق الذقن حَسَن الهِندَامِ والأخلاق.

استَهَلَّ الشَّابُّ الحديثَ وقال: «سَيِّدي ريدوود، هلَّا تَفضَّلت وأتيتَ معي إلى السيِّد كاترام؟ إنَّه يحتاجك لأمرٍ عاجلٍ ومُلِح.»

ردَّ عليه ريدوود: «يحتاجني!» وانبَثَق سؤالٌ في رأسِه لم يستطِع لِعدَّة لحظاتٍ أن يصوغَه ليسأله. تَردَّد ثُم سأل في صوتٍ كَسِيرٍ: «ماذا فَعل بابني؟» وحَبَس أنفَاسه مُنتَظِرًا الجَواب.

ردَّ الشَّاب: «ابنك يا سيدي؟ ابنك بخيرٍ الآن، على حَدِّ معرفتنا!»

«بخيرٍ الآن؟»

«لقد أُصيبَ البَارحة يا سيدي! ألم تَسمع بالأمر؟»

نَحَّى ريدوود تلك المَظَاهِر جانبًا؛ فلم يَعد يَشُوب صوته خوفٌ، بَل تَأجَّجَ غَضَبًا: «أنت تَعلم تمامَ العِلم أنِّي لم أسمع بالأمر! أنت تعلم أنه لم تصِلني أيُّ أخبارٍ!»

«لقد كان وقت اضطرابٍ فاجأ الجَميع يا سيدي؛ لذلك خَشِي السَّيد كاترام عليك وقَرَّر أن يحتجِزك ليُؤَمِّنَك من أي مَخاطِر ...»

«احتجَزَني ليمنعني من أن أحَذِّر أو أنصَح وَلَدي! أخبِرْني إذن! ما الذي حَدَث؟ هل وُفِّقتُم في مَسعاكم؟ أقتَلتُموهم جميعًا؟»

خَطَا الشَّاب خَطوَة أو خَطوَتين تِجاه النَّافِذة ثمَّ استدار.

قال باقتِضَابٍ: «لا يا سيدي!»

«أفصِح عمَّا لدَيك من أخبارٍ إذن؟»

«أُؤكد لك أنَّنَا لم نُخَطِّط لخَوضِ تلك الحرب يا سيدي! هم من بدءوا وقد وَجدونا غير مُتَهَيِّئين تمامًا ...»

«ماذا تعني؟»

«ما أعنيه يا سيدي أنَّ شَوكَة العَمَالِقة قد قَوِيت قوَّة لا بأس بها.»

تَغَيَّر العَالَمُ في نظر ريدوود، ولوَهلةٍ أصابت عضلات حلقه نَوبَةٌ انفِعَالِيَّةٌ شَبِيهةٌ بنَوبَةٍ هيستيرية، ثم تأوَّه تأوُّهًا عميقًا وقَال وفؤاده يخَفِق ابتهاجًا: «شَوكَة العَمَالِقة قد قَوِيت!»

«نَشَب قِتالٌ مُروِّعٌ ودَمارٌ هائلٌ. وكُلُّ هذا بسبب سوء تَفَاهُمٍ فَظِيعٍ؛ فلقد قُوتِلَت العَمَالِقة في شَمَال البِلاد وأوسَطها ... قُوتلوا في كل مكانٍ.»

«هل ما زالوا يُقَاتَلون؟»

«لا، يا سيدي! أعلِنَت الهُدنَة.»

«هل هم مَن طَلَبُوها؟»

«كلَّا، يا سيدي! طَلَبَها السَّيد كاترام. الأمر برمَّتِه سوءُ تفاهمٍ كبير؛ لهذا يُريد الحديثَ معك ليَعرِض عليك الأمر ويُناقِشه معك. إنَّهم يُصِرُّون أن تَتَوسَّط في هذا النِّزاع يا سيدي ...»

قاطَعه ريدوود وقال: «هل تدري ما الذي حَصَل لابني؟»

«سَقَط جَريحًا.»

«أخبِرْني ماذا حدث! أخبرني!»

«لقد أتى برفقة الأميرة قبل أن يكتمل التحرُّك من أجل حصار مُعَسكَر أولاد كُوسَار في تشزِلهرست. أتيا فجأة، يا سيدي، وهما يُحطِّمان تحت أرجُلِهما أجماتٍ كثيفة من نبات الشُّوفان قُرب النَّهر وفوق طابورٍ من الجُند. كانت أعصَابُ الجنود مشدودةً طوال اليوم وهذا ما سبَّبَ لهم ذعرًا.»

«هل أطلقوا عليه الرَّصاص؟»

«كلَّا، يا سيدي! بَل فرُّوا من أمامه، ولكن أطلق بعضهم عليه الرَّصاص بهَوَج في مُخَالَفَةٍ صريحة للأوامِر.»

أومأ ريدوود مُكذِّبًا ما قَاله. «تِلك هي الحقيقة، يا سيدي! ولن أدَّعِي أن أوامر عدم إطلاق الرَّصَاص كانت لأجل ابنك، بل كانت لأجل الأميرة التي معه.»

«أجل! هذا صحيح!»

«كان العملاقَان يركُضَان باتِّجاه المُعَسكَر ويَصرُخَان. تَفرَّقت الجنود وتَنَاثَروا هنا وهناك، ثمَّ أطلق بعضهم الرَّصاص. قالوا إنَّهم شَاهدوه يَترنَّح.»

«وا أسفاه!»

«هذا ما حدث يا سيدي! ولكن عَلِمنا أنَّ جراحه ليست خطيرة.»

«كيف عِلمتُم ذلك؟»

«لقد أرسل رسالةً يا سيدي. رسالة يقول فيها إنَّه يتَعافى!»

«رسالة إليَّ أنا؟»

«ومن غَيركَ يا سيدي؟!»

وَقَفَ ريدوود ما يُقَارب الدَّقيقة مُطبقًا ذراعيه بشدة، يُحاول استيعابَ ما سَمِع، ثمَّ صَبَّ جَامَّ سَخَطِه وغَضبه على الشَّاب.

«لأنَّكم كنتم أغبياء في تعاملكم مع الأمر، لأنَّكم أخطأتم خطأً فادحًا في حساباتكم. أتريدُني أن أصدِّق أنَّكم لستم قَتَلَة مُتَعَمِّدين؟ وماذا عن البقيَّة؟»

تَظَاهر الشَّابُّ أنه لم يَفهَم وسأل مستوضِحًا.

«أتقصِد بَقِيَّة العَمَالِقة؟»

لم يُكمِل الشَّاب تَظَاهُره بعدم الفَهم وقال بنبرة صوت ذابِلة: «ثلاثة عشر، يا سيدي! قُتِل ثلاثة عشر!»

«وهل سقطَ الباقون جَرحَى؟»

«صحيحٌ، يا سيدي!»

قال ريدوود شَاهِقًا: «وبَعد كل ذلك، يريد كاترام أن يُقَابلني! أين بَقِيَّة العمالقة الجَرحَى؟»

«أُدخِل بعضُهُم إلى المُعَسكَر أثناء القِتال ... بَدَا أنَّهم كانوا يعرفون.»

«بالطَّبع! هم يعرِفون! فلولا كُوسَار ... هل هو موجودٌ هناك؟»

«نعم، يا سيدي! هو وجميع العمالقة النَّاجين الذين أُدخِلوا إلى المُعَسكَر والذين لم يشاركوا في القتال. هم الآن تحت لواء الهُدنَة.»

ردَّ ريدوود: «هذا يعني أنَّكم قد هُزمتم؟»

«لا، يا سيدي! لم نُهزم. لا تستطيع أن تقول إننا هُزمنا. ولكن ابنك قد انتَهَك قوانين الحَرب. مرَّةً البَارحة ومرَّةً الآن بعد أن تَقَهقَرت قوات هجومنا. بدءوا في ظهيرة اليوم بتَفجِير لندن.»

«هذا حقٌّ مشروع!»

«كانوا يَقذِفون قَنَابِل مملوءة بالسُّم.»

«بالسُّم؟»

«أجل. سُم! طعام الآلَ ...»

«هرقليوفوربيا؟»

«هذا صحيحٌ يا سيدي! السَّيد كاترام ...»

«لقد سُحِقتُم! بكل تأكيدٍ كانت هذه ضَربة مُوجِعة لكم. إنَّه كُوسَار! ما الذي تأملون في فِعلِه الآن؟ ما جَدوى فعل أي شيءٍ الآن؟ ستَستَنشِقُونه في تُرَاب شَوارِعِكم شارعًا شارعًا. ما الذي تُحَارِبون من أجله إذن؟ أهي قوانين الحرب؟ بالطَّبع هي! والآن يُريد كاترام خِدَاعي لأساعِده في المُفَاوضات. يا إلهي! لماذا عليَّ أن أذهب لأقَابِل هذا الثَّرثَار المَدحور؟ لقد خَاضَ مَعرَكته ... سَفَكَ فيها الدِّماءَ وأوقعَ نفسه في ورطة ... لماذا عليَّ أن أقابِله؟»

وَقَفَ الشَّابُّ وقَد بَدَا عليه الحَذَرُ والانتباه.

«في الحقيقة يا سيدي ...» قَاطعه الشَّابُّ وأكمل: «يُريد العَمَالِقة رؤيتك ويُصِرُّون عليها. فلا أحدَ يُمَثِّلهم سواك. وأخَشَى أنَّك إن لم تَذهب إليهم فسَتُسفَك المزيدُ من الدِّماء.»

«سَتُسفَك المزيدُ من دمائكم أنتم!»

«لا، يا سيدي! سَتُسفَكُ المزيدُ من الدِّماءِ في كلا الفَريقين. فالعَالَمُ عَازِمٌ على وضعِ نهاية لهذا الأمر.»

نَظَر ريدوود إلى الزَّاوية التي يَدرُس فيها وحَطَّ نَاظِريه على صورة ابنه للحظاتٍ، ثمَّ الْتَفت وقال في النِّهاية مُصَدِّقًا توقُّعَات الشَّاب: «سآتي معك إذن!»

٤

كان لقاؤه مع كاترام مُخَالفًا تمامًا لما تَوقَّعَه. فلقد رآه ريدوود مرَّتين في حياته؛ الأولى في حفل عَشَاءٍ والأخرى في بهو مجلس العموم. كانت مُخَيِّلته مَشغُولةً لا بالرَّجل نفسه، بل بالصُّورة التي رسمتها الصُّحُف ورَسَّامو الرسومات السَّاخِرة له؛ «كاترام الأسطوري»، «جَاك قَاتِل العمالقة»، «بِرسيوس قاطع رأس مِدوسَا» وكل ما يُشبِه ذلك من الأساطير، ولكن عُنصُر الطَّبيعة البَشَريَّة كان موجودًا ليُدَمِّر كل ذلك.

عندما رآه لم يجد أمامه ذلك الوجه الذي اعتاده في الصُّور الفنِّية والرسومات السَّاخِرة؛ ووَجَد وجهًا لرجلٍ مُنهَكٍ لم يذُق طعم النوم؛ وجهًا شَاحبَ اللون مغَضنًا ملأته التَّجَاعِيد، بَيَاضُ عينيه أصفر اللون، وعضلاتُ فَكِّه السُّفلي وَاهِنةٌ فتَدَلَّى شيئًا يَسيرًا، ولكن كانت سِمَاته المُمَيِّزة حاضرةً؛ عيناه ذات اللون الطُّوبِي، وشعره الأسود، وأنفه المَعقوف المُمَيِّز للزُّعماء العِظَام. لَيس هذا فقط، بَل كان بَادِيًا عليه شيءٌ آخر بَدَّد ونَحَّى كل ما لدَيه من فصاحةٍ وازدِراءٍ مُتَعمَّد جانبًا. كان هذا الرَّجل يُعاني معاناةً شديدة وتحت وَطأة

ضُغوطٍ هائلة. في البِدَاية، كان يُحاول أن يَجمَع شَتات نَفسه ليظهر بالمظهر الذي عهده الناس به. أمَّا الآن، فكلُّ إيماءةٍ وكلُّ حَرَكةٍ بسيطةٍ كانت تُنبِئ ريدوود بأنَّ هذا الرَّجل يتنَاوَل العَقَاقِير لكي يُواصِل عَمَله. مَدَّ يدَه إلى جيب صَدرِيَّته، وبعد أن نَبَس بجُملَةٍ أو جُملَتَين أُخريين، فَضَّ عنه رداءَ التَّصنُّع ووَضَعَ حَبَّة الدَّواء الصَّغِيرة بين شَفتَيه.

فَضلًا عن ذلك، وبالرُّغم من كلِّ تلك الضُّغوطات التي تُثقِل كَاهِله، وبالرغم من أنَّه كان ممَّن أخطئوا، وأنه كان أصغر عمرًا من ريدوود باثنتي عشرة سنة، كانت تِلك الصِّفَة الغريبة التي حَظِي بها — هذا الشيء الذي قد نُسَمِّيه مؤقَّتًا الجاذبية الشَّخصِية بسبب احتياجنا لاسمٍ أفضل، والذي أوصَلَه إلى ما هو عليه الآن من مصائب عظيمة — لا تزال مُلازِمة له. وهذا ما كان ريدوود مُخطئًا في تَخمِينه أيضًا. فمنذ بِداية حِوَارِهما وفي خِضَمِّ مُجرَياته، كان كاترام مُهَيمِنًا على ريدوود. ففي الجُزء الأول من اجتماعهما، كان هو المُسيطر بنبرته وإجراءاته. كلُّ ذلك حدث كما لو كان أمرًا متوقع الحدوث وقضاءً لا يُرَد. صَارت توقُّعات ريدوود كلها هباءً منثورًا في حَضرَتِه. تَصَافَحا قبل أن يتذكَّر ريدوود أنَّه كان يَنوِي أن يَصُدَّ تِلك الأُلفَة، فمنذ البداية، تمكَّن كاترام من تَوجِيه دَفَّة الاجتماع بثقةٍ وثباتٍ ووضوحٍ، كمَن يبحث عن الإجراء المناسب الذي ينبغي اتخاذه لمواجهة كارثةٍ عامة.

فلو كان ثَمَّة خطأٌ ارتكبه، فقد كان ذلك عندما أثَّر فيه الإعياءُ مرارًا وتكرارًا ومَنَعه من تركيزه الفوري، ولكن حَمَله اعتيادُه على مثل تِلك الاجتماعات العامَّة على الاستمرار. بعد ذلك اعتدلَ في وقفَته وكانا طوال اجتماعهما واقفَين، ولَملَم شتاتَ نفسه ثم أشَاحَ بوجهه عن ريدوود وبدأ في الدِّفاع عن نَفسه وبالتَّبرير؛ حتَّى إنه اندَمَجَ في مُرَافَعته وقال في مرةٍ وهو يحدِّث ريدوود: «أيُّها السَّادة!»

بدأ كلامه بهدوءٍ وطمأنينة ثمَّ أسهبَ في الحديث.

مَرَّت لحظاتٌ شَعرَ فيها ريدوود أنَّه لم يَعُد حتَّى مُشتَرَكًا في الحوار، بل مَحض مُستَمِعٍ لتَمثِيلية يُنَاجِي فيها كاترام نَفسه ويُحدِّثها. كان المُشاهِد المحظوظ الذي تَسَنَّى له رُؤية هذه الظَّاهِرة الاستثنائية. أدرَك أنَّ شيئًا ما يُشَكِّل فرقًا واضحًا بينه وبين هذا المخلوق الذي غَمَره صوته العَذبُ في حديثه الذي استمر دَهرًا. كان أمام عقلٍ جَبَّارٍ ومَحدودٍ في الوقت ذاته. فبدايةً بالطَّاقة التي تَدفَعه، ثمَّ تأثيره وأهميَّته الشَّخصية، ثمَّ جهله الكبير بأشياء مُعَيَّنة، كلُّ ذلك جعل عَقل ريدوود يرسم صورةً مُتنافرة وغريبةً لكاترام. فبدلًا من كونه غريمًا له من بني البشر، رُجلًا يمكن تحميله مسئولية أخلاقية،

ويمكن التحاور معه بالمنطق، رسم له صورةً بَدا فيها كأنَّه وحيد قرنٍ بشع، أو قُل وحيد قرنٍ مُتَحضِّر وُلِد من رَحِم أدغَال الديمقراطية وشئونها. تصوَّره ريدوود وكأنه وحشٌ إذا هَجَم فهجومه لا يُصَدُّ ولا يُردُّ، وإذا قَاوَم فهو مَنيعٌ لا يُقهَر. في كل النِّزَاعات الطَّاحنة التي خَاضَها كان فيها مُتَفوِّقًا. والأدهَى من ذلك هو تأقلُم هذا الرَّجل ببراعةٍ على شَقِّ طريقه وسط حُشُود الرِّجَالات. فأعظم الخَطَايا عنده هي التَّناقض مع الذَّات، وأنفع العلوم هو علم التَّوفِيق بين المصالح المُختلِفة. أمَّا الحقائق الاقتصادية والضرُورَات الطُّبوغرافيَّة والأسرار العلمية فكان اهتمامه بوجودها لا يزيد عن اهتمام الحيوان بوجود السكك الحديدية أو بنادق الرصَاص أو المؤلَّفات الجغرافية. أمَّا ما كان يُهِمُّه؛ فهو الاجتماعات والتَّكَتُّلات السِّياسِيَّة وأصوات النَّاخِبين؛ أصوات النَّاخِبين فوق كُلِّ شيء. إذا أردتَ النَّظر إلى ملايين الأصوات مُجتَمِعةً في شخصٍ واحدٍ؛ فما عليك إلَّا النظر إلى كاترام.

والآن، في خِضَمِّ هذه الأزمة الطَّاحِنة؛ حيث العمالقة قد خَسِروا مَعرَكتهم ولكن لم يخسروا الحرب بعد، بدأ هذا الوحش المُتَعَطِّش لأصوات النَّاخِبين بالحديث.

كان جَليًّا أنَّه كان لدَيه كلُّ ما يحتاجه ليَتَعلَّم، حتَّى في ذلك الوقت. كان لا يَدري شيئًا عن وجود قوانين الفيزياء والاقتصاد، عن المَقَادير والتَّفاعلات التي لا يختلف اثنان على أهميتها، والتي إن خُولفت، تُصبح عاقبة مخالفتها دمارًا. كان لا يَدري شيئًا عن وجود المَعايير الأخلاقية التي لا يُمكن أن تُلوَى تحت أي قوةٍ من قوى السِّحر والإغراء وإن استجابت والْتَوت، تَرتدُّ بأشدِّ أنواع العنف انتقامًا. كان واضحًا لريدوود أنَّ هذا الرجل ربما يلجأ إلى التصويت في مجلس العموم ظانًّا أنه سيحميه من شظايا القنابل أو حتى من يوم القيامة.

لم يكن أكثر ما يَشغل تفكيره في ذلك الوقت هؤلاء العمالقة الذين انتصروا على بعض رجالاته وأقصَوهم نحو الجنوب؛ لم تكن الهَزيمة أو الموت هما أكثر ما يخشاه. بَل كان أكثر ما يشغله أثر كل ذلك على شَعبِيَّته التي يَعُدُّها أهمَّ ثوابت حياته. كان عَليه أن يَدحَر العمالِقة أو يُدفَن تحت أقدامهم. كان لا يُسَاوِره أيُّ يأسٍ على الإطلاق. ففي خِضَمِّ هذه السَّاعة التي بلغ فيها الفَشَلُ ذُروَته، وأصبحت الدِّمَاءُ تُلَطِّخ يدَيه وأتتْه الكوارث مِن كل مكانٍ، ولاحت في الأفق نُذُرٌ تُنبئ بوقوع المَزيد من الفاجعات مع تزايُد مظاهر العَملقة التي بدا أنها ماضية في الهيمنة على العالم وأنها حتمًا ستطاله في يوم من الأيام. كان كاترام مؤمنًا في قرارة نفسِه بأنَّه عن طريق صوته فحسب، وبمُجَرَّد الشَّرح والوَصف

والتَّأكيد، فإنَّ لديه فُرصَة ليستَجمِع قواه مرةً أخرى. كان بلا شَكٍّ مُرتَبِكًا بَائسًا ومُنهَكًا يُقَاسِي الآلام، ولكن كان يُمَنِّي نَفسه بأنه لو استطاع أن يواصل أحاديثه وخُطَبه، فسوف يتحقَّق له ما يريد.

أثناء حديثه، بَدَا لريدوود أنَّه يتقدَّم ويتراجع، ويتوسَّع وينحسر، كان يُسهِب في حديثه ثم ما يَلبث أن يَختَصِر ويَقتَضِب. كان نصيبُ ريدوود في هذه المُحادثَة محدودًا للغاية؛ «هذا هُراء!» «لا!» «لا طَائل من هذا الاقتراح!» «إذن، لماذا بدأت؟»

ربما لم يكن كاترام يسمع أو يلتفِت إلى تِلك الجُمل المُقتَضَبة التي كان يتفوَّه بها ريدوود. كان حديثُ كاترام يتَدَفَّق كَسَيلٍ جارفٍ. وقفَ هذا الرَّجُلُ المُدهِش على بساطِه الرَّسمي مُتَحدِّثًا بقدْرٍ هائلٍ من اللباقةِ والحماسة. استرسل في حديثه دون توقُّف كما لو كان يخشى أن تؤدي لحظةُ صمتٍ واحدة أثناء حديثه وتَوضيحه وشَرحِه لِوجهات النَّظر وللوسَائِل والاعتِبارات المُختَلِفة إلى تمكين بعضٍ من معارضيه من إظهار نفوذهم؛ نُفُوذهم الصَّوتِي بالطبع؛ إذ هو نوع النُّفوذ الوحيد الذي يَفهَمه. وقفَ هناك وسط مظاهر العَظَمة والأبَّهة التي اضمحلت قليلًا لتلك الغرفة الرَّسمِيَّة التي خضعَ فيها الرَّجلُ تِلو الرَّجلِ للفكرة القائلة بأنَّ سُلطةَ التدخل هي الوسيلة الخلَّاقة للسيطرة على الإمبراطورية …

كُلَّمَا استمرَّ كاترام في حديثه، ازدادَ إحساسُ ريدوود بأنه لا جدوى من ذلك الحديث. هل كان هذا الرَّجُل يَدرى أنَّه وبينما هو واقفٌ هناك يتَكَلَّم، كان العمالقة يتحركون وتزداد مظاهر العَملَقة أكثر فأكثر؟ هل كان يَدري أنَّ هناك أوقاتًا في الحياة بخلاف السَّاعات التي يقضيها في البرلمان؟ هل كان يعلمُ شيئًا عن الأسلحة التي يمتلكها المُنتَقِمون لِدِمَائهم؟ في الخارج، مَالَت وَرقةٌ عملاقة من أوراق شجرة لبلابَة فِرجينيا على زُجاج النَّافذة فأظلَمَت الغُرفَة دون أن يُعير أيٌّ منهما لذلك انتباهًا.

ضَاقَ ريدوود ذَرعًا بذلك العرْض المنفرد الرَّائِع الذي يُنَاجِي فيه كاترام نفسه، وهَمَّ أن يَضع له نِهايةً وأن يَفِرَّ إلى المَنطِق وسَلامة العقل؛ إلى المُعَسكَر المُحَاصَر، إلى أرض المُستَقبَل ومركز العَظَمة حيث يجتَمِع أبناء الطَّعام معًا. هذا هو السَّبب الذي حمله على تَحمُّل ذلك الحديث. كان لدَيه انطباعٌ غريبٌ، وهو إن لم تَنتَهِ هذه المَسرَحيَّة الفَردِيَّة، فلَيَجِدنَّ نفسه وقد انسَاقَ وراء أفكارها واتَّبعها؛ لذلك عليه أن يُحارِب ويَصُدَّ صوتَ كاترام كما يُحارِب المرءُ المُخَدِّرات. كانت الحقائق قد تبدَّلت وما زَالت تتبدَّل تحت تَأثير تِلك التَّعويذة.

ماذا كان يقول هذا الرَّجل؟

وبما أنَّه يجِب على ريدوود أن يَنقل هذا الحديث إلى أبناءِ الطَّعَام، كان استيعابه لما يُقال أمرًا ضروريًّا؛ فكان لِزامًا عليه أن يسمع كلامَ كاترام ولكن بآذانٍ وَاعيةٍ تُفَرِّق بين الغَثِّ والسَّمين على قدر استطاعته.

الكثير من النَّدم على سَفك الدِّماء. يَا له من كلامٍ لَبقٍ وجَزل، ولكن غير مُهم. ما التَّالي؟

كان يَقتَرِح عَقد مُعَاهدة!

كان يَقتَرِح أن يَستَسلِم أبناءُ الطَّعَام الناجون ثم يذهبوا في حَال سبيلهم ليؤسِّسوا مجتمعًا خاصًّا بهم. وعلى حَدِّ قوله؛ كانت هُناك تَجارب سَابِقة ومُمَاثلة لهذا. «سنُخَصِّص لهم أرضًا ...»

قاطَعه ريدوود، وهو يُحاول أن يَشتَرِك في الحِوار، قائلًا: «أين هي تلك الأرض؟»

استَغلَّ كاترام هذه المُوافَقة الضِّمنِيَّة، وأدَار وجهه إلى وجه ريدوود وتَحَوَّلت نَغمة صوته إلى نَغَمَة إقناعٍ تُعزَف على أوتَار الاعتِدَال والمَنطِق. هذه المسألة يمكن اتخاذ قرارٍ بشأنها. فقد كان يظنُّ أنَّ تلك مسألةٌ فرعية. ثُمَّ قال مُشتَرطًا: «وبخلافِهم هم والأرض التي سنُخَصِّصها لهم، يجب أن تُهيمن قبضتُنا على كل شيءٍ وبإحكام؛ فالطَّعامُ المُكَبِّر وكلُّ نِتَاجِه يجِب أن يُبَاد وأن ينتهي أمرُه.»

وَجَدَ ريدوود نفسه يُساوم في صَفقة: «والأميرة؟»

«لا شأنَّ للأميرة بذلك!»

قال ريدوود وهو يُنَاضِل ليستعيد موقِفه القديم: «لا! هذا نوعٌ من السُّخف!»

«سَننظر في هذا لاحقًا، ولكن على أي حالٍ؛ اتَّفَقنا على أنَّ صِنَاعة طعام الآلهة ستَنتهي ...»

«أنا لم أتَّفِق على أي شيء. أنا لم أنبس ببنتِ شَفة ...»

«ولكن كيف يكون على كوكبٍ واحدٍ نوعان من البشر؛ عَماليق وأقزَام؟! انظر واعتَبِر مِمَّا حدث! فهو ليس إلا إنذارًا لما يُمكن أن يحدُث إذا استَمَرَّ هذا الطَّعام في الانتِشار! انظر إلى ما جَنَتْه يَداك وحَلَّ على العالم! ماذا سيحدث إنْ كان هُنَاك نوعٌ من البَشَر العَمَالِقة يتَكَاثَرون ويَتَضاعف عددُهم ...»

ردَّ ريدوود قائلًا: «هذا الأمر ليس من شأني أن أُجادلك فيه؛ يجب أن أذهب إلى أبنائي العَمالِقة ... أريد أن أرى وَلَدي؛ لهذا جئتُ إليك. أخبِرني بالضَّبط ما هو عرضُك الذي تُقدِّمه.»

فألقَى كاترام خُطبَةً حول الشُّروط التي يرتضيها.

سيُمنَح أبناءُ الطَّعَام أرضًا رحبَةً في شمال أمريكا أو أفريقيا على الأرجح حيث سيُتَاح لهم أن يعِيشوا حياتَهم كما يشاءون.

قال ريدوود: «ولكن هذا هُراء! هناك عمالقة آخرون خارج البلاد الآن؛ هم مُبعثرون في كل أنحاء أوروبا!»

«يُمكِن أن نَعمَل على إبرام مُعَاهَدةٍ دولية، ليس هذا بمُستَحِيل. في الواقع، أمرٌ كهذا قد نُوقِش بالفعل ... ولكن في تلك الأرض سيَتَسنَّى لهم أن يعيشوا حياتهم كما يروقُ لهم، وأن يفعلوا ويَصنعوا ما يَحلُو لهم. وسنكون مُمتَنِّين إذا صَنَعوا لنا المُنتجَات. ربَّما ستتحقَّق لهم السعادة بفضل هذا الأمر ... أنعِم التَّفكِير في المسألة!»

«كلُّ هذا بافتراض أنَّه لن يكون هناك المزيدُ من الأطفال العَمالقة.»

«بالضَّبط! الأطفالُ حقٌّ لنا نحن! وهكذا أيُّها السَّيد المُبَجَّل سَنُنقِذ العالَم؛ سَنُنقِذه ونُخَلِّصه من ثِمَار اكتشَافِك الفَظِيع. لم يَفُت الأوان بعد. نحن نَتَطَلَّع إلى أن نكسو مَصَالِحنا رداءَ الرَّحمَة، حتَّى ونحن نحتَرق الآن ونَكتَوي في تلك الأماكن التي أصابَتها قَنابِلُهم البارِحة. سَنَتَغاضى عن ذلك. ثِق بي، لسَوف نَتَغاضى عن ذلك. ولكن بهذه الطَّريقة، دون وَحشِيَّةٍ أو إجحَاف ...»

«ماذا لو افترضنا أنَّ الأطفال لم يُوافِقوا؟»

لأول مرةٍ نظر كاترام إلى وجه ريدوود بأكمله نَظرةً مُتَمَعِّنَة.

«يجِب أن يوافقوا!»

«لا أظنُّ أنَّهم سَيقبَلون بالأمر.»

ردَّ عليه كاترام في نَبرةٍ مُلئَت دهشة: «ما الذي سيحملهم على الرفض؟!»

«افتَرِض أنَّهم لن يقبلوا!»

«لا أرى إلَّا الحربَ إذن! فنحن لا نَملِكُ خيارَ تركِ هذا الشَّيء ينمو ويَنتشر. لا نَملِكُ خيارًا كهذا أيُّها السَّيد المُبَجَّل. ألم يَهبكم الله خيالًا أيُّها العُلَماء؟ أليس في قلوبكم رحمة؟ لن نَسمح بأن نَترك كوكبًا تحت وَطأة زُمرَة الوحوش المُتَزَايدة هؤلاء وتلك الأشياء التي تنمو بضخامةٍ فَجَّةٍ والتي تَسبَّب فيها طَعامُك الذي صَنَعْت. لن ولن نَسمَح بذلك! ودَعنِي أطرح عليك سؤالًا أيُّها السَّيد، هل تَرى خيارًا إلا الحرب؟ وتَذكَّر أنَّ ما حدث لم يكن إلا البِداية فقط! ما حدث لا يُعَدُّ إلا مُنَاوشَاتٍ مع رجالِ الشُّرطة. صَدِّقنِي، لقد تَولَّت الشُّرطة وحدَها ذلك الأمر. فلا تَغُرَّنَّك الضَّخامةُ الهائلة لهؤلاء المخلوقات الجديدة إذا ما قُورِنُوا

بنا. أمَّا نحن فمن ورائنا تَدعَمنا الأمَّة؛ تُسَانِدنا البَشَرية جَمعاء. وخَلف هؤلاءِ الآلاف الذين ماتوا ستَزحَفُ الملايين. فلولا خَشيَتُنا أيُّها السَّيد الكريم من سَفكِ الدِّماء في هجومنا الأول لوجدتَنا نَشُنُّ الآن هجومًا بعد الآخر. فسواءٌ أكُنَّا نَقدِر على إبادة الطَّعام أم لا، أنا مُتَيَقِّن أنَّنا نستطيع أن نقتل أبناءك! أنت تَركَن وتعتَمِد في حِسَابَاتِك على أحداث الأمس؛ على مُجرَيَات عشرين سنة فقط؛ على نَتَائج معركة واحدة! أنت لا تَشعُر بالتَّحَرُّك البطيء لَمجرى التَّاريخ. أنا أعرضُ هذه الاتفاقية من أجل إنقاذ الأرواح، لا لأنَّها ستُغَيِّر من النِّهاية المحتومة. إذا كان ظَنُّك أنَّ جَماعةً مؤلفة من أربعةٍ وعشرين عملاقًا مسكينًا سيقفون في وجه قواتِ شعبنا، فضلًا عن الشُّعُوب الأخرى التي سَتَهُبُّ لتُسانِدنا؛ إذا كنت تَظُنُّ أن باستطاعتك أن تُغيِّر النَّوع البشري جملةً واحدة وفي غضون جيلٍ واحد؛ وأن تُبَدِّل خِلقة الإنسان وطبيعته ...»

أشار بذراعِه قائلًا له: «اذهب إليهم الآن أيُّها السَّيد، فأنا أراهم جَاثِمين مُثخَنين في جِراحِهم جزاءً لما اقترفتْهُ أياديهم من شُرور ...»

توقَّف كما لو أنَّه لَمح وَلد ريدوود مُصادفةً.

حَلَّت لحظة صمتٍ.

ثمَّ قال: «اذهب إليهم!»

«هذا ما أريده؛ أن أذهب إليهم.»

«إذن لِتَذهب الآن.»

الْتفت وقَرَع جَرسًا؛ فسُمِع على الفَورِ صوت أبوابٍ تُفتَح وأقدامٍ تَقتَرب مُسرِعةً.

وصلَ الحديثُ إلى نهايته، وانتهى العرْض. وفجأة ظَهرت على كاترام آثار انكماشٍ وتَضَعضَع إلى رجلٍ شَاحب الوجه مُنهَك القُوى، جسده لا بالنَّحِيل ولا بالسَّمين، وقد انتَصَفَ عُمره. خَطا خطوَةً للأمام كأنَّه يَخرج من لوحةٍ مَرسومةٍ كان محبوسًا بها، وعَلا وجهَه وُدٌّ وبَشَاشَةٌ تَراهما حاضرَين في كل الصِّراعات العَلَنِيَّة لنَوعِنا البَشري، ومَدَّ يده نحو ريدوود مُصافِحًا.

وكقَدَرٍ لا مَفَرَّ منه، مَدَّ ريدوود يده وصَافحه للمَرَّة الثَّانية.

الفصل الخامس

معسكر العمالقة

١

في الوقت الرَّاهن كان ريدوود على مَتن قطارٍ يتَّجِه جنوبًا ويَمرُّ فوق نهر التِّيمز. استطاع أن يَلمَح النَّهر لمحةً سريعةً وهو يتألَّق تحت أضواء القطار، ونَظَر إلى الدُّخَان وهو ما زَال يعلو المكان الذي أُلقيَت عليه القُنبُلة على الضِّفة الشَّمالية حيث جُمِع حَشدٌ ضَخمٌ من الرِّجال ليحرقوا الهرقليوفوربيا ويُبِيدوه من الأرض. أمَّا الضِّفة الجنوبية فقد كان يُخَيِّم عليها سوادٌ حالِكٌ، ولسببٍ ما؛ حتَّى الشَّوارع لم تكن مُضَاءة. لم يَكن يُرَى منها إلا هَيَاكِل أبراج الإنذار العالية والتَّجَمُّعات القاتمة من المنازل والمَدَارس، وبَعد دقيقةٍ من إنعام النَّظر والتَّحدِيق، أشَاحَ بوجهه عن النَّافِذة وغرقَ في بَحر التَّفكِير؛ فَلَم يكن هناك أيُّ شيءٍ لِيُرَى أو ليُفعَل حتَّى يَرى أبناءه …

كان جسده وَاهِنًا من ثِقل ضُغُوط اليومين الفائتين؛ أحَسَّ أن مَشَاعره قد استُنزِفَت، لكِنَّه كان قد استَعَدَّ وحَصَّن نَفسَه بكوبٍ من القهوة قبل أن يبدأ يومه؛ فانسَابَت أفكاره في سَلاسَةٍ وجَلاء. جَالَ بخَاطِره العديدُ من الأشياء، ثمَّ أعادَ النَّظر، على ضوء الدُّروس المُستَفادة من الأحداث المَاضِية، في الطَّريقة التي خَرجَ بها طعامُ الآلهة إلى العالم وكيف انتَشَر فيه.

قال هامسًا بصوتٍ لا يسمعه سواه وارتسمت على شفتَيه ابتسامةٌ رقيقة: «كان ظَنُّ السيد بانزنجتن أنَّ هذا الطَّعام سيكون مُمتَازًا للرُّضَّع.» ثمَّ تَذَكَّر بوضوحٍ ما سَاوَره من شُكُوكٍ وارتِيابٍ تَلَا إعطاءَه الطَّعامَ لابنه بيدَيه؛ ويكَأنَّهَا لم تَهدَأ بَعد. وابتداءً من تِلك اللحظة، تَفَشَّى الطَّعام في عَالَم البَشَر على نحوٍ مستمر بالرُّغم من كل الجُهُود التي بُذِلت لإيقَافِه والحَدِّ من انتشَارِه. وما هو الحال الآن؟

هَمَسَ ريدوود مُجَدَّدًا وقال: «حتَّى لو قَتَلوهم جميعًا، فقد قُضيَ الأمر.»

كان سِرُّ خَلطَة الطَّعام مُنتَشِرًا في كل مكانٍ ويَعرِفه القَاصِي والدَّانِي؛ كان هذا هو عَمَله الذي انشَغَل به. فالنَّباتُ والحَيَوان وزُمرَة الأطفال العَمَالِقة المُزعِجين سيتآمرون ويُخطِّطون المَرَّة تِلو الأخرى بِلا هَوَادَةٍ ليُجبِروا العَالَم على الرُّجوع إلى هذا الطعام مُجددًا، بِغَضِّ النَّظَر عمَّا يَجرِي من صراعاتٍ رَاهِنة. قال وتَفكِيره قد أصبح مُنصبًّا بصورة حصرية على المَصِير الرَّاهن لأطفال الطَّعام ولوَلَده: «لقد قُضيَ الأمر.» هل سيجِدهم مُنهَكِين يتَضَوَّرون جوعًا وقد أجهَدَتهم المَعرَكة وأثخَنت جِراحهم وتَركتهُم على حَافة الهزيمة؛ أم سَيَلقاهم وقد سَرَت العَافِية في أجسادِهم ومَلأ الأملُ نفوسهم، بحيث يكونون مُتأهِّبين لصراع الغَد الذي ما تزال نيرانه مُوقَدة؟ أصيبُ وَلده! لكِنَّه قد بَعَثَ برسَالةٍ!

ثمَّ هَدَاه عَقله إلى التفكير في مُقَابَلته مع كاترام مُجَدَّدًا.

قَطَع صوتُ تَوقُّف القطار في محطة تشزلهرست حِبَال أفكاره. تَعرَّف على المكان من أبراجِ الإنذار الضَّخمة التي طَوَّقت كامدِن هيل، ومن صَفِّ البَراعم العملاقة لنَبات الشَّوْكَران الذي اصطَفَّ مع الطَّريق.

جَاءه أمينُ سِرِّ كاترام من عَرَبة القِطار الأخرى وأخبره بأنَّ قضيبَ القطار قد حُطِّمَ على بُعد نصف ميلٍ من المكان، وأنَّ سائر الرِّحلة ستكون في سَيَّارة. نَزَل ريدوود على رصيفٍ لم يَقشَع ظُلمَته إلا شُعلَة نُورِ مصباحٍ يدوي كانت تُصارع البقاء وسط نَسِيم الليل البارد. كان الهدوء المُخَيِّم على تلك الضَّاحِية ذات المنازل الخَشَبيَّة والحَشَائِش الكَثِيفة، والتي لاذ أهلُها بالفِرار إلى لندن عندما اندَلَعت مَعرَكةُ أمس؛ هدوءًا يُثير الإعجاب. أنَارَ له المُحَصِّلُ طريقَه ليهبط درجات السُّلَّم حيث تَنتظِر السَّيارة بأضوائها البَرَّاقة التي هي مصدرُ الضوءِ الأوحَدِ وقتها. سَلَّمَه أَمِينُ سِرِّ كاترام إلى عِناية السَّائق ورِعايته ثُمَّ وَدَّعه.

«أثِقُ أنَّك ستَبذُل قصارى جهدك من أجلنا.» قال ذلك لريدوود وهو يُحَاكِي أسلوبَ رئيسه ثُمَّ صَافَحه.

وفَور أن استَقَرَّ ريدوود في السَّيارة، انطَلَقا في سَفَرِهما في ثَنَايا الليل. وَقفت السَّيارةُ ساكنةً لِلَحظةٍ، ثم في اللحظة التي تَليها كانت تَشقُّ طريقَها مُندَفِعةً بهدوءٍ ورَشَاقةٍ على مُنحَدر المحطَّة. انعطفا مَرَّة تلو الأخرى، والتفَّا مع اعوجاجِ أحد الشوارع الذي ارتصَّت الفِيلَّات على جانبَيه ليجدا الطريق الذي يسلكانه. انتَقل مُحَرِّك السَّيارة لأقصَى سُرعةٍ لدَيه

والليل الدَّامِس ينساب على جانبَيهما. كان كلُّ شيءٍ على مَدِّ البَصَر مُظلمًا، والعالَم من حَولهما قد سَكَن سكونًا غريبًا وسَادَ صَمتٌ مُطبِق. لم يُسمَع لتلك الأشياء الطائرة على جانبَي الطَّريق أيُّ صوتٍ؛ ذَكَّرته تِلك الفِيلَّات الشَّاحِبة البَياضِ والمَهجُورة ذات النَّوافِذ السَّوداء المُظلِمة بمَوكِبٍ صَامتٍ للجماجِم. كان السَّائقُ رجلًا صامتًا، أو حَلَّ عليه الصَّمتُ بسبب ظُروفِ رحلته تِلك. أجابَ عن أسئلة ريدوود القصيرة برُدودٍ خَشِنَةٍ من كَلِمةٍ أو كَلِمَتَين. كانت أشِعَّة الكشَّافات في أفقِ سَمَاءِ الجَنوب تُلَوِّح للطُّرقِ الصَّمُوتَة؛ حيث كانت هي الإشارة الوَحيدة والغَريبَة التي تدلُّ على وجود حياةٍ في هذا الخَرَاب الذي يُحيط بالآلة المُسرِعة على الطَّريق.

بعد ذلك، صَارَ الطَّريقُ مُسَوَّرًا على جانبيه بأغصَان شَجَر الزَّعرور الأسود مِمَّا زَاد الطَّريقَ ظُلمة، وبنَباتِ شَعر الأرنَب وزُهور السِّيلين الضَّخمة والسِّيقان العملاقة لنبات اللاميُوم التي تبلغ في ارتفاعها ارتفاعَ الأشجار والتي كانا يمرَّان عليها سريعًا في الظلمة وترمي بظلالها فوق رأسيهما. بَعد أن مَرَّا بكستون، أتيَا على تَلٍّ صاعِدٍ، فأبطأ السَّائق من سُرعة السيارة، وعند قِمَّة التَّلِّ تَوقَّف، وخَفَت صوت ارتِجاج المُحَرِّك حتَّى صار ساكنًا. «هناك!» قال السَّائقُ مُشيرًا بأصبعه الضَّخم، الذي كَسَاه هو وبَقِيَّة اليد قُفَّازٌ، إلى مكانٍ مُدلَهِمٍّ غَريبِ الهَيئةِ يَربِض أمام عينَي ريدوود.

بعيدًا كما كان يبدو للناظِر، كان السَّدُّ الضَّخمُ يَعلُوه وَهَجٌ انبَثَقَت مِنه أضواءُ الكَشَّافات وارتَقَتْ نحو السَّماء. كانت أشِعَّةُ تلك الكَشَّافات تتجَوَّل بين سُحبِ السَّماء ثم تَهبِط فتَجُول التِّلالَ المُحِيطة كأنَّها تَقْتَفِي أثرَ طَلَاسِم سِحريَّة.

قال السَّائق أخيرًا: «لا أعرف!» وكان بَادِيًا عليه أنَّه فَزِعٌ من المُضِيِّ قدمًا.

انسَلَّ ضوءُ أحد الكَشَّافات هابطًا من السَّماء ليَغمُرَهما، وتَوَقَّف كما لو كان قد تفاجأ، وأخذ يُدقِّق فيهما بإمعان، كان يتفحَّصهما في ارتباكٍ دون أن يمنعه عن ذلك بعض سيقان العُشب الضَّخمة أو ما شَابَهَها التي كانت تفصل بينه وبينهما. جَلسَا وهما يَضَعان قُفَّازَيهما فوق أعيُنِهما ويُحاولان النَّظر من تحتهما باتِّجاه ذلك الضوء.

قال ريدوود بعد قليلٍ: «هيَّا! وَاصِل السَّير!»

كانت الشُّكوكُ ما زَالتْ تُسَاور السَّائق، حاول أن يُعَبِّر عمَّا يَشعُر به ولكن انتَهى به المَطاف أن قال مجدَّدًا: «لا أعرف!»

وفي النِّهاية تَجَرَّأ وقَبِل بالمُجازَفة وقال: «هَا نحن ذا!» ثُمَّ جَعَل السَّيارةَ تَتَحرَّك مرةً أخرى، وتِلك العَين البيضاء الضَّخمَة تَتبَعهما باهتمامٍ شديد.

بَدَا الأمر لريدوود أنَّهما لم يَعودا يسيران على الأرض، بَل أصبحا وكأنهما ينطلقان بسرعةٍ بالغة عبر سحابةٍ مضيئة. مَضَت السَّيارة في طَريقها وأخذ السَّائق الذي انتابتْه حالةٌ من التوتُّر يضغط على بُوق السَّيارة مرارًا وتكرارًا.

استقبلتهما ظُلمةٌ حَارةٍ عاليةٌ أسوارها، ثمَّ انحدرَا في وادٍ ومَرَّا ببعض المَنازل، وما لَبِثَا أنْ غَمَرهما مُجدَّدًا هذا الضوء القوي المُتفحِّص لهما والذي عجزت أعينهما عن تحمُّله. بَعد ذلك صَار الطَّريقُ خاويًا مُنحدِرًا لمُدَّةٍ من الوقت، واشتدَّ صوتُ خفَقان المُحَرِّك. ارتَفَعت الحشَائشُ العملاقة مُجددًا من حولهما ومرَّت بها سيارتهما مرورًا خاطفًا. ثمَّ ظَهرت فجأةً مَلامِح هَيْكَلٍ عملاقٍ يقتَرِب منهما؛ كان جُزءُ جَسَدِه الذي وَقَع عليه الضَّوءُ لامِعًا مُضِيئًا، أمَّا الجزء الآخر فقد كان مُظلِمًا كالسَّماءِ من خَلفِه. قال بصوتٍ عالٍ: «مَرحبًا بمَن هناك!» ثمَّ قال: «تَوقَّفَا! فلقد انتهى الطَّريق هُنا ... هل هذا الأب ريدوود؟»

وَقَف ريدوود وأطلق صيحةً غامضةً إجابةً عن السؤال، ولم يَمضِ الكثِيرُ من الوَقتِ حتَّى كان كُوسَار بجانبه على الطَّريق يُمسك بيدي ريدوود جاذبًا إيَّاه خارج السيارة.

سأل ريدوود: «ماذا حَلَّ بوَلَدي؟»

ردَّ عليه كُوسَار: «إنه بخير! لم تُصِبه إصابة خطرة.»

«وأبناؤك؟»

«بخير. جميعُهم بخير، ولكن اضطُرِرْنا أن نَخُوض حَربًا من أجل ذلك.»

كان العملاق يُخبِر سائق السيارة بشيءٍ ما، وانتحى ريدوود جانبًا بينما كانت السيارة تَدُور للخلف. ثُمَّ اختَفَى كُوسَار فجأةً، واختَبَأ كُلُّ شيءٍ تحت سِتَار الظَّلام لبُرهةٍ من الوقت. كان الضَّوءُ يُلاحِق السيارة في طريقها عائدةً إلى قمَّة تَل كستون. شَاهد ريدوود هذه العَرَبة الصَّغيرة وهي تَبتَعِد وبُقعة الضَّوء مُسَلَّطَة عليها. كان لها تأثيرٌ عجيب كما لو كانت لا تتحرَّك وما يتحَرَّك هو بُقعة الضَّوء. ظَهَرت في وَمضَةٍ مجموعةٌ من الأشجَار العَتِيقة الضَّخمَة التي طحَنَتها الحَربُ بوَعثَائِها وتَركَت عليها ما تَركَت من نُدُوبٍ وذُبُولٍ، ثمَّ ما لبثا أن ابتَلَعَهُما ظلامُ الليل مرة أخرى ... التفت ريدوود مَرَّة أخرى إلى كُوسَار في تلك الظُّلمة وصافح يدَه قائلًا: «لقد مُنعتُ عن الكلام وحُبِسَت عَنِّي الأخبار لمُدَّة يومَين كاملين.»

قال كُوسَار: «لقد أطلَقْنا عليهم قَنَابِل الطَّعَام! هَه! ثلاثون قُنبُلة بالتَّمامِ والكَمال!»

«أتيتُ من عِند كاترام.»

ضَحِك كُوسَار وقد عَلت أَسَارِيره مَرَارَةٌ ثمَّ قال: «أعلم ذلك! أظنُّ أنَّه مَشغولٌ بالتَّنظِيف.»

٢

سأل ريدوود: «أين وَلَدِي؟»

«إنَّه بخير! ينتَظِر العَمَالِقة خطَابَك.»

«نعم، ولكن ابني ...»

ذهبَ مع كُوسَار ومَرَّا في نَفَقٍ طويلٍ منحدرٍ، كان مُضَاءً بنورٍ أحمرَ للحظاتٍ ثمَّ عمَّه ظلامٌ دامسٌ مرةً أخرى. انتهى النَّفَقُ بِهما إلى الوَهدة العَظيمة للمأوى الذي كان قد شيَّده العمالقة.

كان أولُ ما رأى ريدوود هو تِلك الحَلبة الوَاسِعة مُحَاطَةً بالمُنحَدرات الصَّخرية العالية وأرضها مَليئة بالأشياء المُبعثَرة. كانت غَارِقةً في الظَّلام باستثناء انعِكاساتِ أضواء كَشَّافات الحَارِس الليلي تَلُفُّ بلا انقِطَاعٍ فوق الرءوس، وباستثناء الوَهَج الأحمر اللون الذي كان يظهر ويختفي من رُكنٍ بعيد حيث كان يَعمَل عِملاقَان معًا وَسطَ صَلِيل الحَديد. في عَرضِ السَّماء، حيث كان يظهر ضوء الكَشَّافات، رأت عيناه هَيكَلَين مَألوفَين، هما هَيكلا سَقِيفَة العَمل وكُوخ اللَّعِب اللذان صُنِعَا لأبناء كُوسَار. صَارَا الآن متدلِّيَين كما لو كانا على حَافة جُرفٍ صَخري وقد انحنَيا وشُوِّها على نحوٍ غريب تحت تأثير وابل القذائف التي أمطرتهما بها مَدافع كاترام. كان هُناك ما يُشبه المَدَافِع الضَّخمة مُتَمَركِزةً في الأعلى وعلى مَقرُبَةٍ منها أكوامٌ من الأسطوَانات الضَّخمَة كانت هي الذخائر على الأرجح. أمَّا في المِسَاحة الشَّاسِعة في الأسفل، فقد كانت تَقبَعُ أشياء على هيئة مُحَرِّكاتٍ كبيرة الحجم وكُتل ضخمة من الأشياء الغَامِضة، مُبعثرةً في فَوضى عَجيبة. كان العَمالقةُ يظهرون ويختفون تحت هذا الضوء المُتَرَدِّد؛ كانت هيئاتُهم ضَخمَةً لكِنَّها كانت مُتَناسقة مع الأشياء التي يَحمِلونَها. كان بعضُهم يَعمَل بهمَّةٍ، والبعضُ الآخر جالسًا أو مُستَلقيًا كأنَّ النومَ يُغازل عينيه، وكان على مقربة، عملاقٌ آخر، جَسَده مُضَمَّدٌ ويَستَلقِي على سَريرٍ خَشِنٍ من مُخَلَّفَات أغصان شجر الصنوبر وكان نائمًا بلا شَك. حدَّق ريدوود في تِلك الهَيئاتِ المُعتِمة وعَينَاه تَنتَقِل من عملاقٍ إلى آخر.

«أين هو وَلدي يا كُوسَار؟»

ثمَّ رآه.

كان وَلَدُه جالسًا تحت ظِلِّ حائطٍ فولاذي، وكانت هيئتُه تبدو معتمةً للنَّاظِر لا يُتَعَرَّف عليها إلا مِن وضعية جِلسَتِه؛ فملامِحه لم تكن مرئية. كان جالسًا وذقنه يتَوَسَّد ذراعَيه كرجلٍ أهلَكَه الدَّهر أو أغرَقه التَّفكِير. بجانِبه، تَبَيَّن ريدوود هيئة الأميرة بالقَدْرِ الذي سَمَح به سَوادُ الليل، ثمَّ بعد ذلك، وعندما عَاد الوَهَجُ الأحمر لأحد الكَشَّافات البَعِيدة وسَقَط على وجهها الرقيق، رأى في لحظةٍ خاطفةٍ، طيبةً وعطفًا لا يُوصَفان. كانت تَقِفُ وهي تستَنِدُ بيدها على الحائط الفولاذي، نَاظِرةً إلى حبيبها الجالس بجوارها كما لو كانت تَهمِسُ إليه بشيء.

كَادَ ريدوود أن يَذهب باتِّجاهِهما.

ولكن قال له كُوسَار: «الآن يتعيَّن عليك أن تُلقِي خِطَابك.»

ردَّ ريدوود وقال: «أجل! ولكن ...»

توقَّف ريدوود في مكانه. كان ولدُه يتطلَّع إلى الأميرة ويَتَحدَّث إليها بصوتٍ هَامِسٍ يَسمَعه كِلاهُما ولا يَسمَعه غيرهما. رَفعَ ريدوود الشاب وَجهه إليها وانحَنَت هي باتِّجَاهِه ونظرت بِطَرفِ عينَيها جانبًا قبل أن تُحَدِّثه.

سَمِعا هَمسَ ريدوود الشاب وهو يقول: «ولكن ماذا إن غُلِبنَا ...»

سَكَتت وكشفَ الوَهَجُ الأحمر عن عَينَيها المغرورِقَتَين بالدُّمُوع. انحَنَت لتَدنُوَ منه وحدَّثَته بصوتٍ كان لا يزال هامسًا. كان في هَيئتِهما شيءٌ حَمِيمِيٌّ ووُدِّيٌّ، وفي نبرة صَوتَيهِما لِينٌ وحَنانٌ أثَار فضولَ ريدوود؛ ريدوود الذي شُغِل تَفكيره لُمُدَّة يومَين كامِلين بوَلَدِه ولا شيءَ سُواه، لكنَّه تَسَمَّر في مكانه فجأة؛ لَعَلَّه قد أدرَك للمَرَّة الأولى في حياته أنَّ اعتزاز الأب بولده يفُوق كثيرًا اعتزاز الولد بأبيه؛ أدرَك أنَّ الغَلَبة للمُستَقبَل على المَاضِي. فهُنَا بين هذَين الاثنين كان لا دَورَ له، فلقد انتهى. الْتَفت إلى كُوسَار في تلك اللحظَة التي أدركَ فيها تلك الحقائق. تَلاقَت أعيُنهما، وتَبَدَّل صَوتُه ليُسمع في نَبرَته عَزمٌ شَابَهُ كَمَدٌ.

قال ريدوود: «سألقِي خِطَابي الآن، ثم لننظُر ماذا سنفعل بعد ذلك.»

كانت الوَهدَةُ عظيمةَ الضَّخامة ومَلِيئةً بالأشياء المُتناثِرة وكان طريقه إلى المكان الذي يُمكِن له أن يُلقي خطبَته منه فيسَمَعوه جميعًا، طويلًا ومُتَعرِّجًا.

سَلَكَ هو وكُوسَار طريقًا مُنحَدِرًا انحِدارًا شديدًا يَمُرُّ تَحت قَوسٍ من الآلات المُتَشَابِكة، ثُمَّ عَبَرا مَمرًّا جَانِبيًّا عَمِيقًا امتَدَّ بِطُول قاع الوَهدَة. كان ذلك المَمَرُّ الجَانِبي فارغًا، إلا أنَّه

كان ضيقًا نِسبيًّا، وكأنه تآمر مع جميع الأشياء من حوله ليَزيد من إحساس ريدوود بالضَّآلة. كان هذا المَمَرُّ أشبهَ بخندقٍ محفور. أمَّا أضواءُ الكَشَّافَاتِ فقد ظَلَّت تَدُور وتَدُور مُتَوَهِّجَةً فوق رأسه، لا يفصلها عنه سوى جُروف من الظُّلمة. وكانت الأشكَالُ اللامعة تَظهر وتَختَفي المَرَّة بعد المَرَّة. كانت الأصواتُ العِملَاقة تُنَادي بَعضها بعضًا من فَوقِه، يُنَادُون العَمَالِقة ليَحضروا مَجلِسَ الحَرب؛ ليَستَمِعوا إلى الشُّروطِ التي أملَاهَا كاترام. كان المَمَرُّ الجَانِبيُّ ما زَال يَنحَدِر نَحو الظلامِ الفَسِيح؛ نحو الظِّلالِ والأشيَاءِ الغَامِضة والعَجِيبة التي دَفَعت ريدوود ليَمشِي الهُوَينَى، أمَّا كُوسَار فقد كان يمَضِي وَاثِقَ الخُطَا …

كان عقلُ ريدوود مَشغُولًا. دَخَل الرَّجُلان إلى مكانٍ مُدلَهمٍّ وأمسَك كُوسَار بسَاعِد رَفِيقه، وسَارَا ببطءٍ معًا رُغمًا عنهما.

اندفعَ ريدوود قائلًا: «هذا كلُّه غريبٌ حقًّا.»

ردَّ كُوسَار: «غَريبٌ أشدَّ الغَرَابة!»

«غَريبٌ! غَريبٌ وغير مألوفٍ حتَّى بالنسبة إليَّ أنا باعتباري الرَّجُل الذي ابتدأ هذا الأمرَ كلَّه. إنَّه …»

تَوقَّف في مكانه، مُصارِعًا ما يعتمِل في عقله من أفكارٍ مُراوغة، وأومأ إيماءةً غير مرئية إلى الجُرف.

«لم أفكِّر في هذا الأمر من قبل؛ انشَغَلتُ ومَرَّت السَّنَوات، ولَكِنِّي أرى الآن يا كُوسَار؛ أرى جيلًا جديدًا ومَشاعِر واحتِياجَاتٍ جديدة. كلُّ ذلك يا كُوسَار …»

كان كُوسَار قد أدركَ الآن إيماءته الخفيَّة إلى تِلك الأشياءِ من حولهما.

«هؤلاء هم الشباب!»

لم يكن هناك ردٌّ من جانب كُوسَار الذي واصلَ السيرَ.

«ليست هذه المرحلة مرحلتنا يا كُوسَار. إنها مرحلة هؤلاء الشباب الذين يَتَولَّون زِمام الأمور الآن، وقد بدأت تتشكَّل لديهم مشاعرُ وتجارب خاصَّة بهم وشرعوا في أن يسلكوا الطريق الذي ارتضَوه لأنفسهم. لقد صَنَعْنَا عَالَمًا جديدًا لا نَملك فيه شيئًا لأنفُسِنَا. حتَّى إنَّه غير مُتَعاطِفٍ مَعَنا. هذا المكان العظيم …»

قال كُوسَار مُقرِّبًا وجهه منه: «لقد خَطَّطتُ للأمر.»

«ولكن ماذا عن الوقت الحالي؟»

«أها! لقد وهبتُه لأبنائي.»

أحسَّ ريدوود بما يشعُر الرجلُ به من إحباط.

«هذا كُلُّ ما في الأمر! لقد انتهَينا أو أوشَكْنَا على الانتهاء.»

«خِطَابك!»

«أجل! ثمَّ بعد ذلك ...»

«نكون قد انتهَينا.»

«أحقًّا هذا ...؟»

قال كُوسَار فجأةً بنبرته المُعتَادة عندما يَغضَبُ: «بكلِّ تأكيدٍ لم يَعُد لنَا، نحن العَجُوزين، شأنٌ في ذلك الأمر. بكلِّ تأكيد. فكلُّ إنسانٍ له زمانه، وها هو زمانهم قد بدأ الآن. لا بأسَ بذلك. نحن أشبَهُ بمجموعةٍ من العاملين في مجال الحفر، يؤدي كلٌّ منهم وظيفته ويُغادر. أتَرَى؟ لِهَذَا خُلِقَ الموت. نحن نُعمِل عقولنا الصَّغِيرة ونَستَنزِف مَشاعِرنا المحدودة، ثمَّ يُعِيد من يأتي بَعدَنَا الكَرَّة من جَدِيد! يَستَهِلُّ الأمر من بِدايَته، ببسَاطة! ما المشكلة إذن؟»

ثمَّ سَكَتَ لِيُرشد ريدوود نحوَ دَرَجٍ يصعدُه.

قال ريدوود: «أجل! ولكن يشعُر المرءُ ...»

ولم يُكمِل جُملَته.

سَمِع كُوسَار بالأسفل منه وهو يُرَدِّد بإصرَارٍ: «لهَذا خُلِقَ الموت! كيف يُمكن للأمور أنْ تَتِمَّ إذن؟ لهذا خُلِقَ الموت.»

٣

بعد الكثير من التَّسَلُّق والطُّرق المُلتَوية والمُتَعَرِّجة، وَصَلا إلى حافةٍ بَارِزةٍ حيث يُمكنك رؤية جميع أرجاءِ وَهدَة العَمَالِقة تلك، وحيث يُمكِن لريدوود أن يَتَكَلَّم فَيُسمَع من جميع الحاضرين. كان العمالقة مُجتَمِعين أسفله وحَولَه على مستوياتٍ مُختَلِفة ليَسمعوا الخِطابَ الذي سَيُلقِيه عليهم. وَقفَ الابنُ الأكبر لكُوسَار على الضِّفَّةِ في الأعلى يُرَاقِب ما تكشفُ عنه أضواءُ الكَشَّافات لأنَّهم يخشون أن تُنقَض الهُدنَة. أمَّا عُمَّال الآلات الضَّخمَة فَقد بَرَزوا بوضوحٍ في ركنٍ وضوءٍ خاصَّين بهما، كانوا شِبْهَ عُرَاةٍ وقد وجَّهوا أنظارهم نحو ريدوود ولكن بحذرٍ شديدٍ إذ كانوا ينظرون بين الفَينَة والأخرى إلى سَبَائِكهم المَصبُوبَة التي لم يكن بمقدورهم تركُها. وَقَعت عيناه على هَيئَاتِ العَمَالِقة القَرِيبة، بِفَضل الأضواء المُتَحَرِّكة، وقد كانت جَمِيعُها مُتَشَابهة إلا النزر اليَسِير. أمَّا الواقفون بَعِيدًا فقد كانوا أكثر تَشَابُهًا. كانوا يظهرون ثُمَّ يَختَفون مُجَدَّدًا في هذا الظَّلام المُمتَد. فهؤلاء العمالِقة لم يكن

لديهم أيُّ مَصَادر للضوء أكثر مما تَستَدعِيه الحاجةُ في تلك الوَهدَة، لكي تَكون عُيُونُهم مُستَعِدَّة لرَصد أي قُوَّاتٍ مُهَاجِمةٍ قد تُغِير عليهم من وَسَطِ هذا الظَّلام المُحيط بهم.

مِرَارًا وتَكرَارًا، كان ضوء الكَشَّافَات العَشوَائي يُسَلَّط فيُظِهر هذه الجماعة أو تلك من العمالقة ذوي الأجسَاد القَويَّة والطَّويلة. كان عَمَالِقةُ سَندرلاند يتَدَرَّعُون بصَفَائِح فُولاذِيةٍ مُتَشَابِكةٍ، بينما ارتدى العَمَالِقة الآخرون السُّترَات الجِلدِيَّة أو السُّترَات التي حِيكت من الحِبَال أو من الفُولَاذ حسبما سَمَحت لهم ظُرُوفُهم. كانوا يَجلسون على الأرضِ وَسط الآلات والأسلِحَة التي لم تكن تقلُّ قوةً عن قوتهم، أو يَستَنِدون عليها بأيديهم أو يَقِفون مُنتَصِبين بينها في شُمُوخٍ واعتِدَادٍ بالنفسِ. أمَّا عَن وُجُوهِهم جميعًا، فقد كانت كلَّمَا مَرَّ عليها الضَّوء وظَهَرت رأيت أعيُنَهم قد مُلئَت عَزمًا وصَرَامة.

بَذَل جهدًا ليبدأ خطابه لَكِنَّه لم يفعل. ثمَّ ظَهر للحظاتٍ وجهُ وَلَده لامِعًا على ضَوءِ ألسِنَة النَّارِ المُستَعِرة، كان وَجهه وهو يَنظُر إليه رقيقًا لكن فيه قوةً وعَزمًا؛ فانطَلَق لِسَانه ليَصِل صَوته إليهم جَمِيعًا مُتَحدِّثًا عبر تلك الوَهدة؛ وموجِّهًا نظره شطر وَلَدِه.

استَهَلَّ وقال: «أتَيتُكم من عند كاترام، أرسَلنِي إليكم لأخبِركم بشُرُوطِ عَرضِه.»

سَكَت ثمَّ قال: «تِلك الشُّرُوطُ مُستَحِيلة، أيقَنتُ ذلك عِندَما رأيتُكم الآن مُجتَمِعين معًا. تِلك الشُّرُوطُ مُستَحِيلةٌ، ولكن جِئتُكُم بها لأنِّي أرَدت رؤيتَكم جميعًا ورؤية وَلَدي. أجل، لقد أرَدتُ رُؤيَة وَلَدي ...»

قال كُوسَار: «أخبِرهم بالشُّرُوط!»

«هذا ما عَرَضَه كاترام؛ يُرِيدُكم أن تَتَفَرَّقوا وتَترُكُوا هذا العَالَم!»

«نَترُكُه إلى أين؟»

«إنَّه لا يَعرِف! إلى مكانٍ غير معلومٍ في هذا العَالَم؛ إقلِيم شَاسِع مَعزُول سيُخصَّص لكم. كمَا أنَّكُم لن تَصنَعوا المَزِيدَ من الطَّعام، ولن تُنجِبُوا أطفَالًا لَكُم. سَتَعِيشون حَياتَكم كما يَحلُو لكم ثم تَفْنَونَ وتَذْرُوكم الرِّيَاحُ كأنْ لم تَكُونُوا قطُّ.»

ثمَّ سَكَتَ عن الكَلام.

«أهذا كلُّ شيء؟»

«أجل! هذا كلُّ شيء.»

تَلَا ذلك صَمتٌ رَهِيبٌ، وبَدَا كما لو كانت الظلمة ذاتها التي غطَّت العَمالِقة بجَناحِها كَانَت تُحَدِّق فِيه بتَمَعُّن.

شَعَر بلَمسَةٍ على مِرفَقِه؛ كان كُوسَار يَحمِل كُرسِيًّا له؛ بَدَا الكُرسِيُّ كقِطعةٍ غَريبةٍ من ألعاب الأطفال وَسط تلك الأشياء الضَّخمة المُتَرامِية. جَلَس وضمَّ ساقَيه واضِعًا وَاحِدةً فوق الأخرى، ثمَّ وَضَع إحدى ساقيه بالعَرض فوق رُكبَة ساقه الأخرى وقَبضَ على حِذائِه في تَوَتُّرٍ. شَعَر بالضَّآلة والخَجَل، كما أحَسَّ أنَّه مَرئِي تَختَرِقه النَّظَرات وأنَّه في المَكان الخطأ.

ثمَّ عندما سمعَ صدى الصوت، استغرقَ في التفكير مُجددًا.

قال صدى الصَّوت الصَّادِر من الظَّلام: «أسَمِعتُم ما قال يا إخوَتِي؟!»

أجَابَه صوتٌ آخر: «أجل، سَمِعنَا!»

«ومَا ردُّكم يا إخوَتِي؟»

«أتقصد ردَّنا على كاترام؟»

«ردُّنا بالتأكيد «لا!»»

«مَاذَا بعدُ إذن؟»

سَادَ صمتٌ لِعدَّة ثوانٍ.

ثُمَّ سُمِع صَوتٌ ما يقول: «هؤلاء البَشَر على حَقٍّ! فبَعد وِجهة نَظَرِهم تِلك، هم على حقٍّ. كان الحَقُّ مَعَهُم عندما أبَادوا كلَّ ما نَما وكَبر زِيَادةً عن بني جِنسِه؛ سَواءٌ أكان نَبَاتًا أم حَيَوانًا أم غير ذلك من الأشياء الضَّخمَة التي نَمَت. كان الحَقُّ مَعَهُم عندما حاوَلوا أن يذبحونا. وهم أيضًا على حَقٍّ بِقَولِهم إنه يجِب ألَّا يتزوَّج بعضنا بعضًا. وَفقًا لِوجهَة نَظَرِهم، فإنَّ الحَقَّ مَعَهم. لقد عَلِموا، كما أنَّه قد حان الوقت لنَعلَم نحن أيضًا، أنَّهُ لا مَجَالَ في هذا العَالَم ليَعِيش العَمَالِقةُ والأقزامُ معًا. رَدَّد كاترام ذلك مَرَّاتٍ كَثيرة وبوضُوحٍ؛ عَالَمُهم أو عَالَمُنا.»

قال عملاقٌ آخر: «عَدَدُنَا لا يَصِل إلى خَمسِين فَردًا، أمَّا هم، فأعدَادُهم مَلايين لا تُحصَى.»

«قد يكون هذا صحيحًا، لَكِنَّ الأمرَ كما قُلت لَكم.»

ثمَّ سَادَت مُدَّةٌ أخرى من الصَّمتِ الطَّويل.

«هل كُتِبَ علينا المَوتُ إذن؟»

«لا قَدَّر الله!»

«إذن هل كُتِبَ المَوتُ عليهم؟»

«لا!»

«لكن هذا ما يقوله كاترام؛ سَوف يَدَعُنَا نَعيش حَيَاتَنا لنَموت واحدًا تِلو الآخر، حتى لا يبقى سوى واحدٍ منَّا ثمَّ يموت هو الآخر في النِّهاية. ثمَّ سيُبِيدون كُلَّ النَّبَاتَاتِ والحشائش العِملاقَة، ويَجتَثُّون شَجَرة العَمالِقَة من جُذُورِها ويَحرِقون كل آثار الطَّعام ليضعوا نِهَايَةً له للأبد. ثمَّ يعيش بعد ذلك عَالَمُ الأقزامِ في أمان. سيُكمِلون مَسِيرَتَهُم بأمانٍ إلى الأبد، سيَعِيشُون حياةَ الأقزام القَصِيرة تِلك، ويُظهِرون عَطفَ الأقزام وقَسوَتَهم بعضِهم لبعض؛ ولرُبَّما يَصِلون إلى شَيءٍ من ألفِيَّةٍ قزمَةٍ، يضَعُون فيها حَدًّا للحَرب وللزِّيَادة السُّكانِيَّة، ويَسكُنُون مَدينةً واحدةً تَشمَل العالم كله ليُمَارِسوا الفَنَّ فيها ويعبد بعضهم بعضًا حتَّى يَبدَأ العَالَم في التَّجَمُّد ...»

في ذلك الرُّكنِ؛ هَوَت صَفِيحةٌ حديدٍ على الأرضِ مُحدثَةً دوِيًّا كالرعد.

«يا إخوتي! أنتم تَعرِفون ما الذي عَلينا فِعلُه.»

في ومضةٍ سريعة من ومضات الكَشَّافَات، رأى ريدوود الوُجوه المَليئة بالشَّبَاب وقد نظرت باتِّجاه وَلَدِه.

«من السَّهلِ صُنع الطَّعام، وسيكون من السَّهلِ أيضًا أن نَصنَع طَعامًا يكفي العالَم بأسره.»

قال صوتٌ صَدر من الظَّلام: «أتعني يا أَخَانا ريدوود أن نَصنَع الطَّعَام ليأكُله البَشَرُ الأقزَام.»

«ما الذي يُمكِنُنَا فِعله غير هذا؟»

«عددُنا أقلُّ من خمسين وأعدادُهم بالملايين.»

«ولَكِننا نَمْتَلِك زِمَامَ أمورنا.»

«حتَّى الآن.»

«إنْ كانت مَشيئة الله، فسَنُكمِل امتِلاكَ زِمَام أمورنا.»

«صحيح! ولكن فَكِّر فيمَن ماتوا!»

صَاحَ صوتٌ آخر ليَزِيد من حِدَّة التَّوَتُّر: «مَن مَاتوا؟ فَكِّر فيمَن لم يُولَدوا بعد ...»

عَلا صوتُ ريدوود الشاب: «يا إخوتي! ما الذي في وُسعِنَا فِعله إلَّا أن نُحَارِبَهم؛ لو غلبنَاهم سنُجبِرهم جَميعًا على أكل الطَّعام؟ لا يسَعُهم الآن إلا أخذ الطَّعام. تَخَيَّل معي أنَّنَا رَضَخْنَا لتلك الحَمَاقَات التي اقترحها كاترام وتَخَلَّينا عن إرثِنَا! تَخَيَّل أنَّنَا صَدَدنا ذلك الشيء العَظِيم الذي يَتَوهَّج بدَاخِلنا وتَبَرَّأنا منه؛ هذا الشَّيء الذي مَنَحنا إيَّاه آباؤنا؛ الذي مَنَحتَه أنت لنا يا أبي، ثمَّ نُنسَى ونَتَلاشَى إلى العَدَم عندما تحين آجَالنا. ماذا سيحدث

حينها؟ هل سَيَعودُ عَالَمهم الصَّغير هذا كما كان من قبل؟ رُبَّما يُحَاربون العَظَمة مُتَمَثِّلةً فينا نحن أبناء الرجال، ولكن هل يستَطِيعون الفَوز والتَّغَلُّب علينا؟ حتَّى وإن أبَادُونا عن بَكرة أبينا، ماذا سَيَحدُث حينها إذن؟ هل سيُنقِذُهم ذلك؟ لا! لأنَّ العَظَمة في كلِّ مكانٍ حولنا، ليسَت مُتَمَثِّلة بدَاخِلنا نحن فقط ولا في الطَّعام وَحده، ولكن موجودة في غَايَات كلِّ الأشياء ومُتَغَلغِلة في طَبيعتها، هي جزءٌ من الزَّمَان والمكان. فالنموُّ واستمرارية النمو من المَهد إلى اللَّحد هما مَعنى الوُجُود وقَانون الحياة الأوحد. هل توجد قَوانين أخرى؟»

«أنْ نُسَاعِد الآخرين؟»

«نُسَاعِدهم على النموِّ والاستمرارية. يظلُّ الأمر متعلِّقًا بالنمو والاستمرارية. إلا إذا سَاعَدْنَاهم ليفشَلوا ...»

قال صَوتٌ ما: «سيُحَاربون بكل ما أوتوا من قوَّةٍ للتَّغَلُّب علينا.»

صَاحَ صَوتٌ آخر: «وماذا عن ذلك؟»

ردَّ ريدوود الشاب: «سَيُحَارِبُونَنا بلا أدنى شَكٍّ إذا رَفضْنا تِلك الشُّرُوط. وأرجو أن يكونوا صُرَحاء ويُحاربونا، فإذا جَنَحوا للسِّلمِ بعد كل ما حَدَث، فسَيَكون ذلك حتَّى يتَمَكَّنوا من القَضَاء عَلَيْنَا على حِين غِرَّة. لا تَقَعوا في الخَطأ يا إخوتي؛ فهم سَيُحَارِبُونَنا بطريقةٍ ما أو بأخرى، فقد استَعَرت نيرانُ الحَربِ ولا بُدَّ لنَا من أن نُحارِب. إذا لم نتحلَّ بالحكمة، فسوف نجد أنفسَنَا بعد ذلك وقد انقَضَت أعمَارُنَا في صُنعِ أسلِحةٍ أقوى لهم ليستَخدِمُوها ضِدَّ أطفالِنا وبني جِنسنا. ما حَدَث حتَّى الآن لا يُعَدُّ شيئًا إلا مُنَاوَشَات للمَعرَكة. ستكون حياتُنا بأكملها معركة، سَيُقتَل بعضٌ منَّا أثناء المُوَاجَهة، وسَيُغدَر ببعضٍ آخر، ولكن ليس هناك نصْرٌ سهل. ثِقوا بأن أيَّ شيءٍ دون النصر هو بمثابة نصف هزيمة. وما قولُكم إذا استَطَعنَا فقط أن نُثَبِّت مَوطئ أقدَامنا ولا نَتَرَاجع، ما قولُكم إذا استَطَعنا أن نُخلِّف وراءنا حَشدًا مُتَزَايدًا ليُواصِل القِتال عندما نَرحلُ عن هذا العالم؟!»

«وماذا عن الغَد؟»

«سنَنشُر الطَّعام في كلِّ مكان، سوف ننشُره في جميع ربوع العَالم.»

«وماذا لو حَاوَلوا التَّفَاهم مَعنا؟»

«سوف نتمسَّك بالطعام. الأمرُ لا يتعلق بإمكانية عيشِ الضئيل والعملاق معًا في ظلِّ تَنَازُلاتٍ مُنَاسِبة من الطرفين. الأمر يتعلق بحياة طرفٍ وفناءِ آخر. أيُّ حقٍّ يملكه الأب ليقول: «وَلَدِي لن يَعيش إلا كما عِشتُ أنا، ولن يبلُغ من الضخامة أكثر ممَّا بلغتُ أنا؟» أليس هذا صحيحًا يا إخوتي؟»

أكَّدَت همهمات المُستمعين كلامه وأجَابَت عن سؤاله.

قال صوتٌ من وسط الظَّلام: «هذا من أجل كُلِّ الفتيات اللائي سيصِرن نساءً، وكل الصبية الذين سيَصِيرون رجالًا ...»

«بَل أكثر من ذلك، من أجل من سيكُنَّ أمهاتِ نوعٍ جديدٍ ...»

قال ريدوود وعيناه تَنظران إلى وجه ابنه: «ولكن يجِب أن يكون هناك ضَئيلٌ وعِملاق في الجِيل القَادِم.»

«بَل لأجيَالٍ قَادِمةٍ؛ سَيعُوق الضَّئيل مَسِيرة العِملاق، وسَيضغَط العِملاق على الضَّئيل؛ لذلك يجب أن يكون هذا الأمر يا أبي.»

«ستكون هناك صِراعات.»

«صراعاتٌ لا تَنتَهِي، وسُوءُ فَهمٍ لا حَدَّ له. هكذا هي الحياة؛ العِملاقُ والضَّئِيل لا يُمكن أن يَتَفَاهَمَا، ولكن بداخِل كلِّ طِفلٍ يُولَد للبَشَر، يا أبانا ريدوود، تكمُن بُذُور العَظَمَة بانتِظَار الطَّعام.»

«إذن، سأذهبُ إلى كاترام مرةً أخرى وأُخبره.»

«أنت ستَبقَى معنا هنا يا أبَانَا، وجَوابُنا سيَذهب إلى كاترام عند مَطلَع الفجر.»

«لقد قال إنَّه مُستَعدٌّ للقِتَال.»

قال ريدوود الشاب: «لِتَكن الحَربُ إذن!» وَعَلَت هَمهَمَات إخوته بالمُوافَقة.

نَادَى صوتٌ ما وقال: «الفولاذُ جاهزٌ وينتَظِر.» ثمَّ بَدأ العِملاقَان اللذان كانا يعمَلان في ذلك الرُّكن بالطَّرق مَعًا في تَنَاغُمٍ، فأضفى صَوتُ طَرقِهما إيقاعًا مَهيبًا على المشهد. كان الفُولاذ يَلمع مُتَوهِّجًا أكثر مِن تَوَهُّجِه السَّابِق، فأتَاح لريدوود رُؤيَةً أوضَح للمُعَسكَر أفضَل مِمَّا رآه آنِفًا. رأى المِسَاحة المُستَطِيلة بجَمِيع ما فيها؛ آلات الحَربِ الضَّخمة مُصطَفَّة ومُهَيَّأة. وَراءها وعلى مُستَوًى أعلى، بَرَز بيت آل كُوسَار. أمَّا حَوله فقد كان العَمَالِقة الشباب بضخامتهم وحسن منظرهم، يَتَألَّقون بدُرُوعِهم وَسْط استِعدَادَات الغَد وتَجهِيزَاتِه. شَرَحت رُؤيته لَهم صَدرَه؛ فقد كانوا أقوياء دون شك! كانوا فارعي الطول، أقوياء البِنية، تُرى خُطُواتُهم وحَرَكَتُهُم وقد مُلِئت إصرارًا وعَزِيمة. وكان وَلَده وسطهم هناك، وبصُحبَتِه أُولى نساء العمالقة؛ الأميرة ...

ثمَّ قَفَزت إلى عَقله أغرَبُ ذِكرَى على الإطلاق، ذكرى تُناقض ما يراه أمام عينَيه؛ فقد تذكَّر السيد بانزنجتن ذا الجسم الضئيل، وهو يَقِف وسط غُرفَتِه ذات الأثَاثِ التَّقلِيدي،

وأصَابع يَده وسط الرِّيش النَّاعِم لصَدر أول دَجَاجةٍ عِملاقةٍ ويَنظُر من فَوق عدستَي نَظَّارَته بارتِيَابٍ عندما طَرَقت ابنة عَمِّه «جين» البَاب.

لقد كان هذا الموقف منذ إحدى وعشرين سنة مرَّت كلمح البصر.

ثمَّ اعتَرَتْه رِيبةٌ سَيطَرت عَلَيه؛ فقد ظنَّ أن هذا المكان وكلَّ تِلك الضَّخَامَة ما هي إلا أضغَاثُ أحلامٍ؛ كلُّ ذلك كان حُلمًا سَيفِيق منه في لَحَظَاتٍ ليجد نفسه مُنكَبًّا على الطاولة في مكتبه مرةً أخرى وقد ذُبحت العَمَالِقة وأُبِيد الطَّعام، كما وقعَ هو نفسه في الأسر. في واقع الأمر، ما الذي كانت عليه الحياة غير ذلك؟ فلطالَما كان أسيرًا محبوسًا. كانت تِلك هي ذُروَة حُلمِه ونِهَايَته. سَيفِيق أثناء القِتَال وسَفك الدِّماء، ليجدَ طَعَامَه وقد صَار أكثرَ الأوهام حَمَاقَةً، وليكتشف أنَّ كلَّ ما كان يأمله ويؤمن به مجرد سراب؛ فالضَّآلة هي مصيرُ العالم لا ريب!

جعلته نَوبَة الجَزَعِ تِلك يظنُّ أنَّ التحرُّر من الأوهام قد أصبحَ وشيكًا. ونظرًا لقوتها وعُمقها، فقد انتفضَ فزعًا من كُرسيِّه. غطَّى عينيه بقبضتَي يديه، وظَلَّ هكذا لحظَاتٍ يَخشَى أن يَفتَحهما مُجدَّدًا فيرى هَذَا الحُلم وقد زَال وانقَضَى …

كان صوتُ مطارق الحدَّادين يطغى على أصوات العمالقة وهم يتحدَّث بعضهم إلى بعض. زالت عنه شكوكه. كان، برغم كل شيء، لا يزال يسمع أصواتَ العَمَالِقة من حوله ويشعُر بحركاتهم، كلُّ شيء من حوله كان حقيقيًّا وواقعيًّا بكُلِّ تأكيد، مِثلما أن وجود الشرِّ في هذا العالم حقيقيٌّ وواقعي. بَل ربما الأكثر واقعية أنَّ الأشياء العظيمة في طريقها إليهم بينما الأشياءُ الضَّئيلة والبَهِيمِيَّة والضَّعِيفة ستذهبُ أدراجَ الرياح. ثُمَّ فَتَح عينَيه. صَاحَ أحدُ الحَدَّادِين العَمَالِقة قائلًا: «انتهينا!» ثمَّ رَمى مِطرَقَته جَانِبًا.

أتى صَوتٌ من الأعلى. كان ابنُ كُوسَار الوَاقِف على الضِّفَّة الكَبيرة قد وَلَّى الآن وجهَه شَطرَهم وأخذ يُحَدِّثُهم جميعًا.

خَطَبَ فيهم قائلًا: «لا تظنُّوا أنَّنَا نُريد أن نستأصِل شأفة هؤلاء البَشَر الأقزام من هذا العَالَم لكي نَسُود فيه نحن ويَسُود نَوعُنا إلى الأبد؛ نحن الذين لا يفصلنا عَن ضآلَتِهم سوى خطوةٍ واحدة. إننا نُحارب من أجل تِلك الخطوَة لا مِن أجل أنفُسِنَا. يا إخوتي! ما غَاية وجودِنا هنا؟ نحن هنا لنَخدم الرُّوح والغَايَة التي نُفِثَت في حَيَاتِنا. نحن لا نُقَاتِل من أجل أنفُسِنَا، فَمَا نحن إلا ضيوف على هذه الحَياة، وهكذا عَلَّمْتَنا أيُّها الأب ريدوود. فَمِن خِلالِنا ومن خِلال البَشَر الأقزام، تُشَاهِد الرُّوح وتَتَعَلَّم. فَبِكَلامِنَا وأفعَالِنا وبِنَسلِنا، ستَعبُر تِلك الرُّوح إلى حَيَواتٍ أعظَم وأعظَم. هذه الأرضُ ليسَت مَكانًا للرَّاحة ولا مَرتَعًا للَّعِب.

رُبَّمَا وَضَعنَا حنَاجِرَنا تحت نِصَال سَكاكِين هؤلاء الأقزام؛ ظنًّا منَّا أننا لا نَملِكُ حَقَّ الحَيَاة أكثر مِنهم، ورُبَّما استَسلَموا هُم للنَّمل والحَشَرات. نحن لا نُحَارِب من أجل أنفسِنَا، بل من أجل النُّمو والتَّطور الذي سيَستَمر إلى الأبد. غدًا، سَواءٌ أحَيينا أم قُتِلنَا، سيغزو النُّمو العالم بأسره من خِلالِنا، وسينتصر. فهَذا هو القَانون الخَالِد للرُّوح، أن ننموَ وَفقًا لإرادة الله. أن ننمو خارجين من تلك الشُّقُوق والفَجَوات، ومن تِلك الظُّلُماتِ والظِّلال إلى النُّور والعَظَمة!» ثمَّ أكمَل في تمهُّلٍ وتَرَوٍّ: «لنَصِرْ أعظم وأعظم، يا إخوتي! لنكبر أكثر وأكثر حتَّى نَصِل في نهاية الأمر إلى مَعِيَّة الله وفَهم كَلِمته. لنكبر ... حتَّى تَضِيق الأرض ولا تَسَع إلا مواطئ أقدامنا ... حتَّى تُصيِّر الرُّوحُ الخَوفَ عدمًا وتَنتَشر.» ثمَّ رَفَع يَدَيه إلى السَّمَاءِ وقال: «هُناك!» انقَطَع صَوته. ودَار أحد الكَشَّافَات بضَوئه الأبيض حَولَه، ثمَّ سُلِّط عليه لِلَحظَة. كان يَقِفُ هُناك ضَخمَ الجَسَد ويَده مرفوعةٌ إلى السَّمَاء.

لِوَهلَةٍ، بَدَا مُتألقًا في درعِه وهو يَنظُر إلى السَّمَاء المُرَصَّعة بالنجوم من فَوقه بِبَسَالةٍ دون مِثقَال ذرةٍ من خَوفٍ؛ شَابًّا فَتِيًّا ذا حَزمٍ وثَبَات. ثمَّ ما لَبِثَ الضَّوءُ أن مَرَّ وتَرَكه مُجَرَّدَ هيكلٍ ضخمٍ لا تُرَى له مَلامِح قُبَالَة السَّمَاء اللامِعة؛ هيكل ضخم مُعتِم هَدَّدَ بإيماءةٍ واحدةٍ جَبَّارَةٍ قُبَّة السَّمَاءِ من فَوقه وما فيها من نجوم لا تُحصى عددًا.

(النِّهَاية)

هنـــداوي